سلسلة :

الإسلام وقضايا العصر

المسلمون فى البوسنة بين الماضى والحاضر

الأستاذ الدكتور

رشدي عزيز محمد

عميد كلية أصول الدين سابقاً

وأستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر

(الجزء الثاني)

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلذينَ يُقَاتِلُون بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ اللَّهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

صدق الله العظيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

سيطرت الأحداث الدامية التي تفجرت في جمهورية البوسنة والهرسك على تفكيري وأخذ تشدني بعنف فرأيت أن أسجل قضية المسلمين في هذه البلاد منذ دخلها الإسلام إلى الآن في هذه السطور ليقف المسلمون والمنصفون من غيرهم على سبب هذه المأساة من واقع الحقائق العلمية والتاريخية التي سوف نتعرض لها من خلال فصول هذا الكتاب ، وليكونوا على وثوق تام بأن هؤلاء المسلمين الذين هم الآن بين أنياب الصرب والكروات منذ مطلع العقد الأخير من القرن العشرين لا ذنب لهم فيما يقع عليهم إلا أنهم أحفاد أبطال دقوا آخر البوابات الإسلامية في أوربا وفتحوها ضمن فتوحاتهم لينشروا دين الله في الأرض منذ زمن بعيد ، وإذا كان ما بالطبع لا يتخلف ، فإن طبائع الناقمين على الإسلام وأمته الكبرى على اختلاف الأزمنة والأمكنة لا تتخلف هي الأخرى ، لقد درجوا على العداء للإسلام والمسلمين ، وهم في عدائهم كالأفاعي بل هم أشد ، ومهما بدلوا من زيهم ، وحاولوا إخفاء شراكهم ، واحتالوا لنيل مرادهم ، فهم أشد أعدائنا فتكاً ، سواء كانوا صليبيين أو شيوعيين أو صهاينة ، الكل في مواجهة الإسلام وكراهيته سواء .

وأيا ما كان الأمر فليس أمامنا - مهما اختلفت مسميات أعدائنا - إلا أن نحيا بأيماننا أو نموت دونه .

لقد بالغ الصرب والكروات - في البوسنة والهرسك - في إيلامهم للمسلمين هناك كما بالغ غيرهم في أماكن أخرى من العالم ، ولكنه إيلام بلغ حد الصفاقة ، حيث تكالب الكل على سلب حرية المسلمين ، وخدش كرامتهم ، وما كان لهم أن يجرؤوا على خوض هذا الإفك ، لو أنهم كانوا يرهبون عقباه ، إنهم يحسبوننا مازلنا نحب الدنيا ونكره الموت ، ومن أجل ذلك يتنادون : هلم إلى الكلأ المباح ، هلم لتصفية المسلمين،

هلم لكتم الصحوة الإسلامية التي بدت في الأفق بعد نوم طويل .

إن حرب الإبادة التي تدور رحاها على أرض البوسنة اليوم ، ما كانت لتقوم لو لا أن طواغيتها أدركوا ما نحن فيه من ضعف واستكانة ، وتشتت وضياع ، تمشيا مع المنطق السائد في آفاق الحياة الحاضرة :

ما كان في ماضي الزمان محرما * للناس ، في هذا الزمان مباح

صاغوا نعوت فضائل لعيوبهم * فتعذر التمييز والإصلاح

فالفتك فن ، والخداع سياسة * وغنى اللصوص براعة ونجاح

والعري ظرف ، والفساد تمدن * والكذب لطف ، والرياء صلاح

إن ما نحن فيه - في عصرنا الحاضر - من تقطع نفسي وعاطفي ، وتمزق ديني واجتماعي وما شابه ذلك من خصال مرذولة . هي التي أوهنت بلادنا ، وأطمعت غدونا ، وألبت السفهاء ضدنا . مصداقا للحديث الشريف : (يوشك الأمم أن تداعى عليكم ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل : ومن قلة نحن يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن . فقال قائل : يا رسول الله .. وما الوهن ؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت)[1] .

وليس من شك في أن المسلمين عندما ينفضون عن أنفسهم غبار الذل والهوان ويقضون على عوامل الضعف والخذلان ، ويترسمون سياسة أساسها القتال لآخر رمق لكل من يحاول النيل منهم في أية بقعة يتواجد فيها مسلمون ، عندئذ لو اجتمعت الدنيا كلها علينا فلن نخشى بأسها ، ولن يرهبنا ما لديها من ترسانات الأسلحة وآلات الدمار .

(١) رواه أبو داوود

ولنا أن نتصور المسلمين في البوسنة والهرسك ، وهم يقاتلون الآن منذ أن اندلع الصراع في بلادهم ، إنهم يواجهون بما تيسر لديهم من أسلحة . لا تقارن بما لدى أعدائهم من وسائل الحرب والدمار ، التي تتدفق عليهم من كل حدب وصوب ، ومع ذلك فهم صامدون لا تلين لهم قناة ، إنها وقفة تكاد تصل إلى حد الإعجاز ، إذ كيف يصمد إخواننا طيلة هذه المدة التي فاقت الثلاثين شهراً حتى نوفمبر ١٩٩٤ برغم ما يحل بهم من كوارث ومحن واغتصاب، وما يتساقط منهم من قتلى ، وما يتساقط عليهم من قذائف من كل اتجاه ، إنها وقفة إيمانية صادقة تعجز عنها أحدث الجيوش المدعومة بأحدث الأسلحة ، ومما يظهر براعة مسلمي البوسنة والهرسك ، إنهم برغم حظر الأسلحة المطبق عليهم دون غيرهم ، مازالوا صامدين يقاتلون والله ناصرهم .

ومما يشرح الصدر أنهم في مطلع شهر نوفمبر عام ١٩٩٤م قد حققوا انتصارات باهرة من شأنها أن تفتح باب الأمل لانتصارات أخرى تالية ، لقد طالعتنا الأنباء أنهم حققوا على جبهات القتال في وسط وشمال البوسنة انتصارات ساحقة على الصرب الصليبيين ، وكان آخر هذه الانتصارات الاستيلاء على بلدة (كوبريس) بوسط البوسنة ، وتعد هذه المرة الأولى التي يخسر فيها الصرب بلدة استراتيجية مثل (كوبريس) منذ اندلاع الحرب هناك ، منذ (٣١) شهراً [١] .

وهذه البلدة التي استولى عليها مسلمو البوسنة ستوفر للمسلمين ميزة إمداد قواتهم بسهولة ، هذه النتائج الباهرة ، والتي نسأل الله أن تدوم ، لا شك سيكون لها صداها لدى الصرب ومن يقف وراءهم ، ومهما تكون النتائج فإن الله مع من ينصره (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) .

وإذا كنا نعيش الآن مأساة البوسنة لحظة بلحظة ، ونسمع ونرى ما يدور فيها من كوارث ومحن ، وإذا كنا نعيش زمان الهوان الذي أصبح فيه المسلمون كالقصعة التي يتداعى عليها الأكلة ، فإن سنن الله الجارية لا تتبدل ولا تتخلف ، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفهسم ، وإذا كان من شأن الزمان أن يدور ، فإن القمة لن تدوم

---

(١) جريدة الأهرام . السبت ٥ نوفمبر ١٩٩٤ . ص٤

لأحد ، وكذلك القاع لن يكون من نصيبنا إلى الأبد ، وانقسام العالم الإسلامي وتشرذمه لن يدوم إلى الأبد أيضا. وما يدور في البوسنة من فتك بالمسلمين إنما هو المخاض الذي يعقبه ولادة الفجر الجديد ، فكم من ممالك تهاوت بعد أن طغت وتجبرت ، وكم من أقوام دالت دولهم فسقطوا بعد أن ظنوا أنهم لا يسقطون ، وأنهم عن الانتقام الإلهي بعيدون (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار)[1] فأين إرم ؟ وأين ثمود ؟ وأين فرعون ؟ (ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك صوت عذاب. إن ربك لبالمرصاد)[2]

أين الامبراطوريات التي علت في الأرض وطغت ؟ أين الفرس والروم ؟ أين بريطانيا العظمى ؟ وأين نابليون وهتلر ؟ بل أين روسيا العملاقة ؟ !

إن سنن الله تعالى في الكون تؤكد لنا أن القمم يأتيها يوم ينزل عليها فيه الخسف والدمار .

إن المجازر التي تدور رحاها في البوسنة والهرسك ، والتي مات خلالها مئات الألوف من المسلمين ، واغتصب فيها عشرات الآلاف من المسلمات العفيفات ، برغم بشاعتها لا ينبغي أن تدفعنا إلى اليأس ، وصمود إخواننا في هذه البقعة الغالية منذ اندلاع الحرب إلى حين كتابة هذه السطور - وهو صمود في ظل ظروف بالغة القسوة - لهو أكبر دليل على أن الله معهم ، وإلا كانوا قد أزيلوا من فوق سطح الأرض . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن الشدة تولد الهمة ، والضغط يؤدي إلى مزيد من التلاحم والعودة إلى رحاب الله ، ولقد عاد الشعب البوسنوي المسلم إلى الله ، ونجح في الابتلاء بينما تكشفت فيه مواقف كل الحكومات ، وكل الشعوب . فهل لنا أن نعتبر ؟

والله الموفق

المؤلف

---

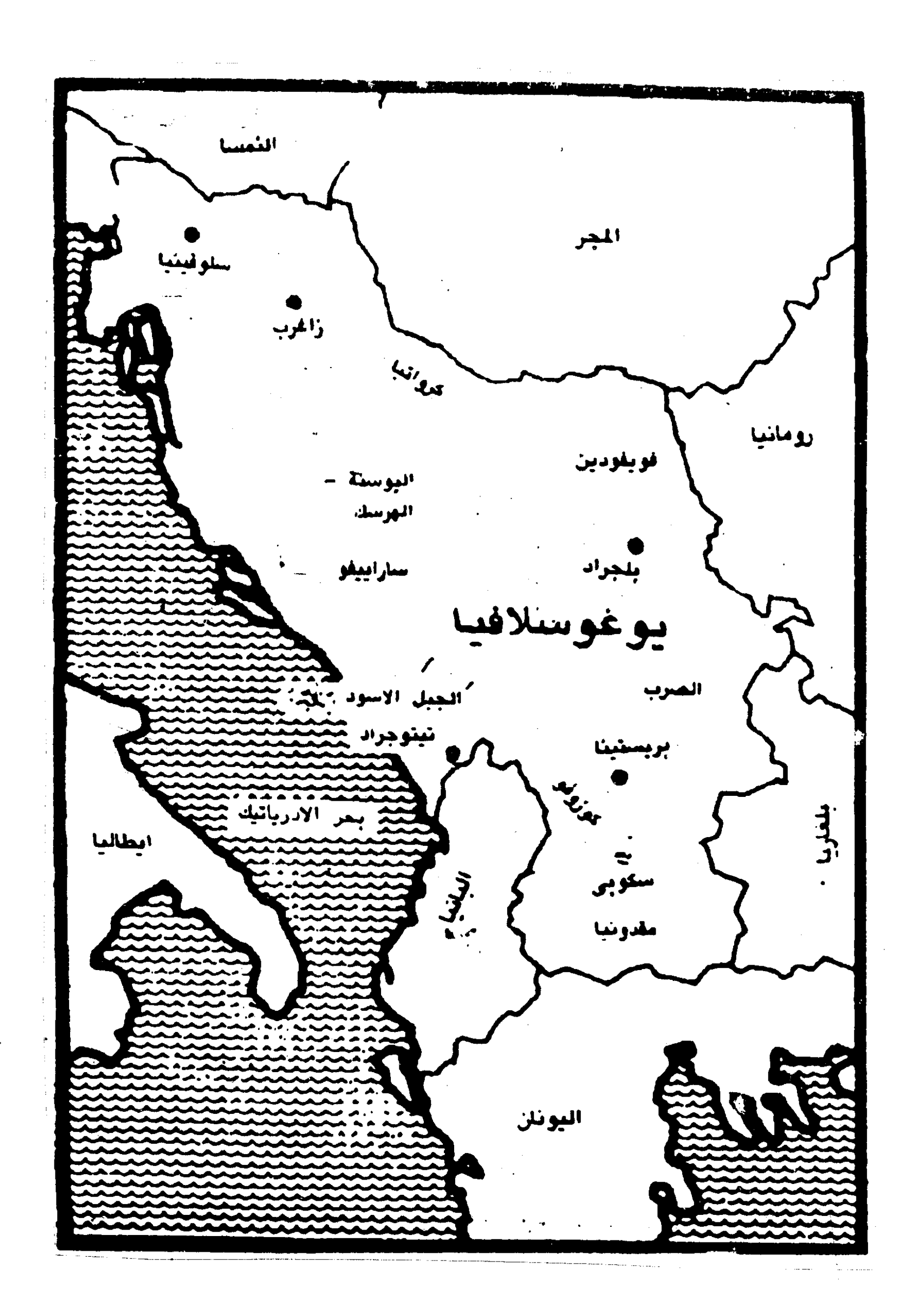
(١) إبراهيم : ٤٢

(٢) الفجر : ٦ - ١٤

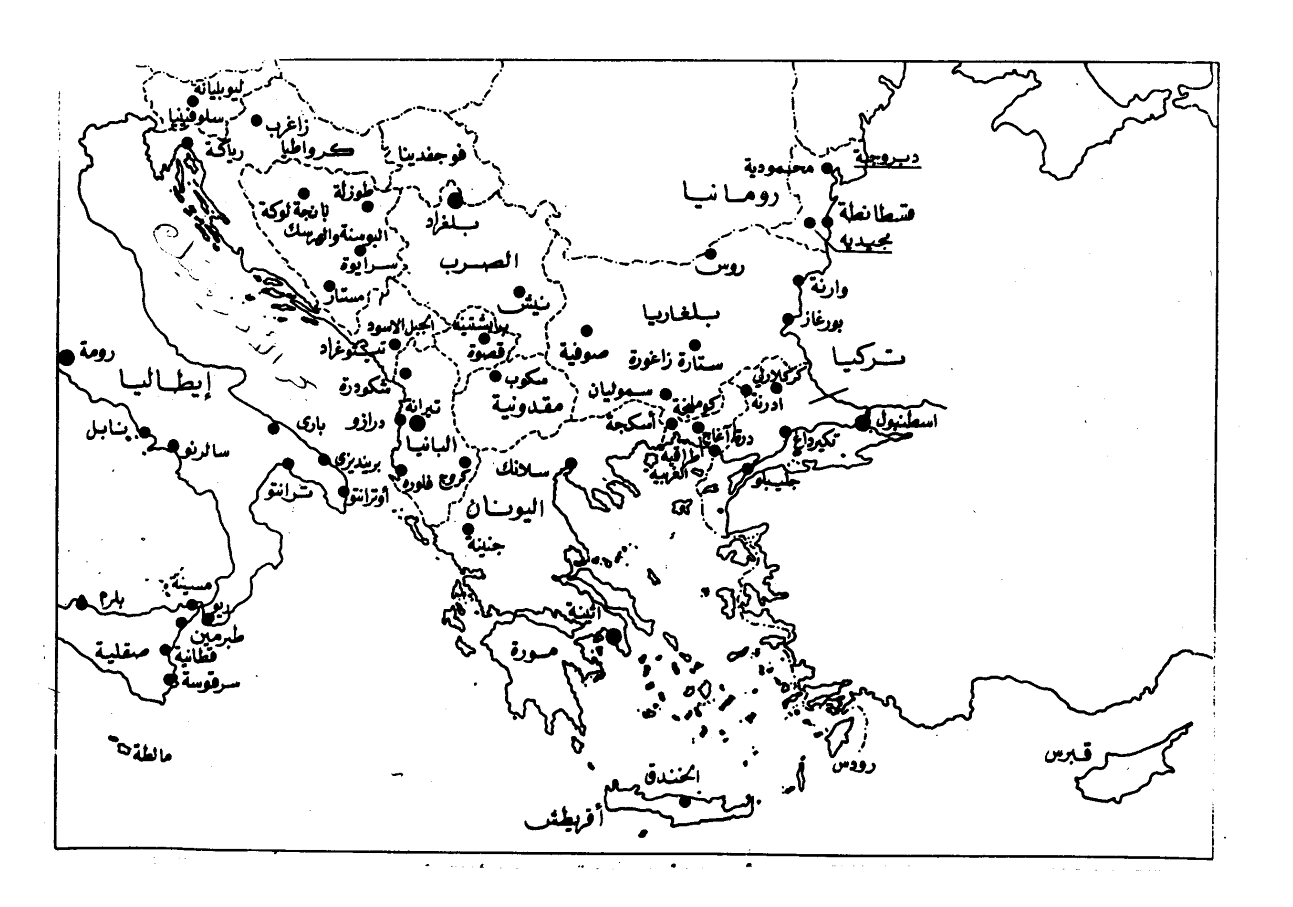
الفصل الأول



خرائط
البوسنة والهرسك



النمسا
المجر
سلوفينيا
زاغرب
كرواتيا
رومانيا
فويفودين
البوسنة -
الهرسك
سارايفو
بلجراد
يوغوسلافيا
الجبل الاسود
الصرب
تيتوجراد
بريستينا
كوسوفو
بحر الادرياتيك
ايطاليا
البانيا
سكوبى
مقدونيا
بلغاريا
اليونان



رومانيا
الصرب
بلغاريا
تركيا
إيطاليا
البانيا
مقدونية
اليونان
بلغراد
صوفية
نيش
سلانك
اسطنبول
ادرنة
وارنة
بورغاز
روس
ستارة زاغورة
فوجفدينا
كرواتيا
زاغرب
سلوفينيا
ليوبليانة
رياكة
البوسنة والهرسك
سرايوة
الجبل الاسود
شكودرة
تيرانة
درازو
باري
برنديزي
اوترانتو
ترانتو
رومة
نابل
سالرنو
صقلية
بلرم
مسينة
قطانية
سرقوسة
مالطة
جنينة
مورة
اقريطش
الخندق
رودس
قبرص
محمودية
قسطانطة
دبروجة
جليبولو
تكيرداغ
سكوب
قصوة
سموليان
اسكجة

تمهيد

المسلمون في ظل الفوضى الدولية

إن ما آل إليه حال المسلمين في البوسنة والهرسك منذ مطلع العقد الأخير من القرن العشرين أمر يدعو إلى الأسى حيث انفجر بركان الغيظ والحقد على المسلمين هناك من جانب الصرب والكروات ومعاونيهم من الدول الكبرى التي تدعي المدنية والتحضر منتهزين مرحلة الفوضى الدولية التي يعيشها العالم في هذا العقد الأخير من هذا القرن بعد سقوط نظام القطبية الثنائية بانهيار الاتحاد السوفيتي السابق ، وعدم قيام نظام يخلفه يمكن أن يضبط السلوك الدولي ، ويضع قيودا وحدودا تكبح جماح الدول العنصرية المتطرفة ، وتردعها عن ممارسة العدوان كوسيلة لتحقيق أهدافها التوسعية ومن أجل ذلك ، فإن هذه المرحلة من الفوضى الدولية تمثل الفرصة التاريخية النادرة لمثل هذه الدول لتحقيق طموحاتها التي كانت مؤجلة ، ومشروعاتها التوسعية التي كانت مرجأة .

إنها فرصة تاريخية نادرة أمام أمثال هذه الدول لأنها لا تتكرر كثيرا بسبب اقترانها بتقوض أركان نظام دولي ، وهو أمر لا يحدث إلا بعد عدة عقود ، ودليل ذلك: أن نظام توازن القوى الأوربية لم يسقط إلا بعد قرن من الزمان. وأن نظام عصبة الأمم لم يسقط إلا بعد عقدين من الزمان ، وأن نظام الثنائية القطبية لم يسقط إلا بعد خمسة عقود .

ومع سقوط النظام الدولي ، تتعطل الشرعية الدولية ، أو على الأقل لا تطبق إلا بصورة انتقائية ، وتختل التوازنات المرتبطة بهذا النظام ، وتضعف الرابطة الجوهرية بين المحافظة على الاستقرار وبين المحافظة على الأمر الواقع .

وفي هذا الجو يطلق العنان للطموحات المشروعة وغير المشروعة ، لتفرض واقعا جديداً ، لا يجد النظام الدولي الجديد مفرا إلا الاعتراف به ، ولنضرب على ذلك مثالا

حيا وهو إسرائيل . حيث استوعبت هذا الدرس جيدا ، فطبقته بلا هوادة في أعقاب حروبها عندما كانت تنطلق في سرعة محمومة لتستولى على كل جزء من الأراضي العربية يمكن أن تصل إليه قواتها قبل دخول وقف إطلاق النار حيز التنفيذ ، وإن شئت فقل : قبل أن يصل النظام الدولي القائم إلى أرض المعركة .

وها هو رئيس صربيا (ميلوسيفيتش) يسير على نفس الخط حيث يسعى الآن لفرض واقع جديد مستغلا في ذلك الفوضى الدولية التي يعيشها العالم الآن ، لكي يبني دولة الصرب الكبرى ، ليجعل منها واحدة من دول أوربا الكبرى ، ويضع النظام الدولي القادم أمام واقع سياسي لا يملك إلا أن يعترف به .

ورئيس صربيا – وهو يفعل ذلك ويمضي في مخططه إلى نهايته – يعرف جيدا عدم صدق النوايا الأوربية والأمريكية في وقف عدوانه ، ويدرك تماما عدم جدية التهديدات التي توجه إليه من قبل قادة النظام الدولي القائم ، ويضع في حسابه عدم قدرة العالم الإسلامي على صده والوقوف في وجهه ، ولذا فهو يمضي في تنفيذ مخططه بلا قيود ولا حدود [1].

ومع كل هذا لا يملك المسلمون إلا البكاء ، دون أن يتخذوا موقفا ايجابيا يرد لإخوانهم في تلك البلاد بعض ما أهدر من دمائهم وكرامتهم وأعراضهم ، وما سُلب من أراضيهم وهذا موقف يذكرنا بموقف داعية وقف يعظ الناس في المسجد – ولعله الحسن البصري – وكان قد وضع أمامه مصحفا كان بيده ، ثم أخذ يعظ الناس ، ولحلو حديثه انخرط الناس في البكاء ، ثم حانت منه التفاتة إلى مكان المصحف فلم يجده فتوقف فجأة عن الدرس والوعظ وقال : كلكم يبكي فمن سرق المصحف ؟

إن الفاجعة التي حلت بالمسلمين والمسلمات في البوسنة والهرسك وما تزال تحدث في هذه البلاد وفي بلاد أخرى كثيرة ، أكبر من أن تعالج بالبكاء أو الندم أو اللوم والعيب فينا لا في الزمان .

نعيب زماننا والعيب فينا *** وما لزماننا عيب سوانا

---

(١) كتاب (من وراء ضياع البوسنة) لواء أ.ح. حسام سويلم ص١٠١١.

إنها مؤامرة عالمية يجري تنفيذها على أرض البوسنة ، وهي مثال لمؤامرات أخرى تتعرض لها الأقليات المسلمة في العديد من مناطق العالم . مؤامرة قديمة حديثة يجري نسج خيوطها بواسطة الأيدي الخفية ، التي تحكم العالم من وراء ستار في عواصم الدول الكبرى ، والصرب والكروات هم أدوات تنفيذ لهذه المؤامرة ، أما الذي نسج خيوطها وشارك في التخطيط لها فهم رؤساء دول كبرى ، ومؤسسات ، وأجهزة سياسية وأجهزة مخابرات ، وأجهزة مصرفية عالمية ، تعمل لحساب أصحاب تلك الأيدي الخفية التي اشعلت من قبل حروبا وثورات عالمية ، لم يجن العالم منها إلا الخراب والدمار وجنوا هم في مقابل ذلك الأموال الطائلة ، كما جنوا قيام دولة إسرائيل ، التي يريدون لها أن تكون كبرى في الشرق الأوسط على حساب العرب والمسلمين إما حربا أو سلماً وهم في مؤامراتهم هذه لا يخشون شيئا يحول دون تنفيذها سوى قيام بعث إسلامي جديد في العالم يعيد إليه الوجه الحضاري الإسلامي ويقضي على دولة الشيطان في الوجود تلك التي تنشر الإلحاد والكفر ومختلف ألوان الشر والفساد بين الناس . وهذا ما عبر عنه (بن جوريون) مؤسس اسرائيل حين قال: (إن أخشى ما أخشاه ظهور محمد جديد لهذه الأمة) ويعني بهذه العبارة أنه يخشى قيام بعث إسلامي جديد [1]

---

(١) نفس المرجع ص ١٥

هل من بعث إسلامي جديد
يكسر شوكة هؤلاء المارقين من العنصريين ؟

لقد استغاثت امرأة عربية بالمعتصم العباسي حين لطمها رومي من عمورية فصرخت قائلة (وامعتصماه) ووصل نبأ استغاثتها للمعتصم فما كان منه إلا أن قال : لبيك يا أختاه ، ومع أن البعد كبير والسفر إلى عمورية طويل ، إلا أنه جيش الجيوش وقادها إلى عمورية وحاصرها وأجبر أهلها على التسليم ، ثم طلب أن تحضر المرأة وأن يحضر الرومي الذي لطمها ثم قال للمرأة أمام الحاضرين جميعاً : ألطميه كما لطمك ؟ فقالت المرأة : لا يا خليفة المسلمين ، لن ألطمه كي يذهب إلى قومه فيخبرهم أن العرب من شيمتهم العفو عند المقدرة .

فأين معتصم اليوم ؟ هل من رجل يعيد للمسلمين كرامتهم وللإسلام بهاءه ؟. لقد ذكرني هذا الموقف السلبي للمسلمين بما فعله ذلك الفيلسوف الاغريقي ديوجين الكلبي منذ آلاف السنين حين حمل مصباحا في وضح النهار وأخذ يطوف به بين الناس في الشوارع والطرقات يفتش فيهم ويتفحصهم ، فلما سألوه عن سبب ما يفعل كان جوابه : (إني أبحث عن رجل). فأين الفاروق ؟ وأين خالد ؟ وأين الرشيد ؟ أين أبطال الإسلام الذين أضاؤوا بسلوكهم وبطولاتهم صفحات التاريخ الإسلامي حين انطلقوا ينشرون دين الله في الأرض وكأن الأرض قد ضاقت تحت أقدامهم فطووها طيا ؟

أين أمثال القادة العثمانيين المسلمين من أمثال مراد بك وابنه بايزيد ومحمد الفاتح، وغيرهم من الذين أخضعوا الدنيا لسيطرتهم لينشروا الإسلام وعدله وسماحته في ربوعها ؟ وأجبروا العالم على احترامهم لدرجة أن النواقيس في أوربا كانت تدق - في عهد محمد الفاتح - لأي تركي بسيط يسير في الشوارع عندها ، خشية أن يهان سهوا فيؤذيهم هذا السلطان العثماني المسلم .

أين صلاح الدين ؟ أين هؤلاء الأبطال الأخيار ؟ هل كانو نماذج ولن تتكرر ؟ هل عقمت النساء المسلمات عن أن تلدن مثلهم ؟

إن عدد المسلمين (مليار) مسلم في العالم ومعظمهم يحكمهم حكام مسلمون ، فهل استمرأ هذا العدد ما يحدث للمسلمين والمسلمات في البلقان وفي القرم ودول أوربا وفي أفريقيا وغيرها من مخازي ومذابح وهتك لأعراض نسائهم وبناتهم في تلك البقاع ومع ذلك نراهم صامتون لا تتحرك لهم نخوة ، ولا يستيقظ لهم ضمير ؟

لقد كان الدكتور مصطفى محمود على حق حين هاله ما يحدث للمسلمين والمسلمات في البوسنة والهرسك ، فكتب في جريدة الأهرام[1] يحفز المسلمين في كل أرجاء الأرض ، ويضعهم أمام أنفسهم في مواجهة هذه الجرائم البشعة التي تقع في هذه البقعة من العالم ضد المسلمين والمسلمات . ومما قاله في هذا الشأن :

أقرأ في دهشة واستغراب ما تنشره الصحف أحيانا من حوادث العنف الفردي .. قاتلة زوجها التي تذبحه وهو نائم وتشعل فيه النار ، وقاتل صديقه الذي يكتفه ويصب عليه البنزين ويحرقه حيا في الطريق العام ، والابن الذي يذبح أمه من أجل جنيهات قليلة .

تلك النماذج من البشر هي ولا شك أنماط نادرة فردية ، وهي من قبيل الغرائب نسمع عنها كل حين من الزمان وينتهي أصحابها إلى المشانق .

ولكن أن يكون هذا هو النمط العام ، وهو القاعدة العامة للمعاملة والسلوك العادي ويتلقاه الناس في تكرار روتيني ، واستسلام رتيب ، ويمر أمامهم دون عقاب ودون مساءلة فيما نرى الآن من جرائم الصرب وما يفعلونه في البوسنة ، فنقرأ في الأخبار الأخيرة أن الصرب يتعمدرن قصف المساجد وهي ممتلئة بالمصلين أثناء صلاة الجمعة ، ويقول المراسل : إنه شهد بنفسه قصف ثلاثة مساجد وهدمها على المصلين وهم سجود في صلاة الجمعة .

ويذكر (بيتركلر) أن المدافع الصربية تحاصر مائة ألف مسلم أعزل في سرايفو يموتون من البرد والجوع والعطش ، وقد انقطعت عنهم الكهرباء والماء والطعام ووسائل

(١) جريدة الأهرام في ١٩٩٣/٢/٢٠م.

التدفئة . والشيء الوحيد الذي لم ينقطع عنهم هو سيل القصف المستمر ، ووابل القنابل والمتفجرات والحرائق ، وأن المسليمن المحاصرين من عشرة أشهر في شرق البوسنة يأكلون الجيف ويشربون البول - (يلاحظ أن هذا الذي يتحدث عنه المراسل كان في عام ١٩٩٣م).

ثم تذكر آخر الإحصاءات أن عدد حوادث الاغتصاب قد تجاوز الستين ألف امرأة (حتى شهر ١٩٩٣/٢م) وفي بعض حوادث الاغتصاب هذه كان المعتدى يغتصب ضحيته ثم يلقي بها حية من النافذة لترتطم بالأرض كومة عظام محطمة ، وفي حادثة أخرى - والكلام للسيدة ليف أولمان المسئولة عن شئون اللاجئين - : يتعاقب الرجال على المرأة يغتصبونها بعد أن انتزعوا منها طفلها ، فلما توسلت آخر الليل أن ترى طفلها غابوا لحظة ثم عادوا ليلقوا إليها برأسه .

مثل هذا المزيج من الوحشية والبهيمية والرعب الذي يتكرر في رتابة مفزعة لا يخطر بخيال .

نحن هنا أمام شياطين أطلقت من عقالها ، ونفوس سفلية ، ومردة ، وزبانية خارجة من قاع جهنم ، ولا أقول حيوانات ، لأن الحيوانات لا تقتل إلا لتأكل ولا تغتصب ذكورُها إناثها ، بل إنها لا تقربها إلا بعد مغازلة ومراودة وإشارة قبول .

وهذا النمط الجماعي من الإجرام ليس حربا ، وليس غزوا ، وإنما هو تنكيل ينبىء عن نفوس مريضة مشوهة كافرة ، لا يخطر لها على بال أن هناك حسابا أو عقاباً في دنيا أو آخرة ، أو شبهة عدالة ، أو وجود لإله من أي نوع في الأرض أو في السماء .

وما يحدث أمامنا اليوم لم يحدث له مثيل في ماض أو حاضر أو تاريخ[1] ، أو أي عصر بائد من عصور مظلمة خلت ، وأفظع منه أن تمر تلك الوحشية دون عقاب ودون مساءلة ، وأفظع من الكل هو السكوت والسلبية الأوربية ، وعدم التدخل وعدم النجدة من أي نوع إلا لتوصيل فتات الطعام من وقت لآخر للضحايا التي تقتل وتذبح في

(١) سوف نرى من خلال ما سنعرضه في هذا الكتاب مدى الوحشية التي لقيها المسلمون في تلك البلاد على أيدي أجداد هؤلاء المجرمين .

أقفاص الثلج والبرد ، ووقوف الكل في مشهد المتفرج . وأسوأ من ذلك إفساح المجال لهؤلاء الشياطين للجلوس والتفاوض ، واستقبالهم في مواكب تليفزيونية وصحفية .

هؤلاء الأوربيون الذين ملأوا آذاننا كلاما عن حقوق الإنسان ... أين هم ؟ إن المشهد الذي يجري أمامنا لا يصدق ، وهو إدانة للكل ، بل هو إدانة لإنسانية القرن العشرين بأسرها ، إدانة لإنسانية القاتل ، وإنسانية المتفرج على السواء . وهو ليس نهاية ، بل بداية ، لأن من يفعل هذا بتعمد وتدبير وإصرار ، ومن يلقي بهذه البذور من الرعب ، إنما يريد أن يحصد وأن يجني ثمار ما زرع .

والرسالة مرسلة إلى كل مسلم ، فهم يزرعون هناك ليحصدوا هنا ، وحيثما وجدت للإسلام راية ، وحيثما ارتفعت له كلمة .

ومن عجب أن نرى روسيا ترفع صوتها لتحذر أي دولة من أن تمد يدها لتعاقب الصرب[١]. واليونان هي الحليف الثاني المستتر لهذه الحرب الإجرامية ، ورومانيا هي الحليف الثالث[٢].

ومدد السلاح والبترول يتدفق على الصرب من روسيا واليونان ، و(سيروس فانس) هو اليوناني العميل الذي يخنق الضحية بقرارات الأمم المتحدة ويضغط عليها حتى تلفظ آخر أنفاسها ، وبقية أوربا تعلن عن تواطئها بالصمت .

هذا التآمر المقزز (الجديد القديم) لإبادة شعب صغير مسالم يجري أمام أعين ستة آلاف مليون مشاهد ، وعلى شاشات التليفزيون في خواتيم القرن العشرين قرن العلم الذي مشى فيه الإنسان على القمر ، وسبح في الفضاء ، وعجز مع ذلك عن أن يمشي خطوتين لنجدة جاره على الأرض ، أي جهالة ؟ ، وأي فشل ؟ وأي عار ؟ بئس العلم الذي تعلموه ، والذي كدسوه في الكتب ، فلم يثمر إلا الخراب . ليس علما وإنما كان مجرد لهو ولعب ومتاع للغرور . وقد غرهم سكوت السماء فظنوا أنهم وحدهم ، والدنيا دنياهم وملكهم من قطبها الشمالي لقطبها الجنوبي يفعلون بها ما يشاؤون .

(١) لا ينبغي أن ننسى أبدا أن روسيا هي التي كسرت شوكة الخلافة العثمانية وسيتضح هذا في مكانه من هذا الكتاب.

(٢) وهؤلاء أيضا كان لهم دورهم بالإضافة إلى الدول العظمى الأوربية في القضاء على الدولة العثمانية.

ونسوا أن هذا السكوت الإلهي مثقل بالنذر والكوارث ، وأنه كلما طال الإمهال اشتد الوبال ، واقترب النكال ، وأوشكت السحابة الحبلى بالظلم أن تمطر على الكل بلاءاً عظيماً .

يقول ربنا عز وجل في محكم كتابه : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)[1] فحينما ينزل العقاب لن ينزل على الظالمين وحدهم ، بل سوف يعم الذين جلسوا في المقاصير يتفرجون ، والذين اكتفوا بالكلام ولم يمدوا الأيدي للنجدة .

وأقول لكل عاقل ، ولكل ذي لب ، أن يسارع ويدفع عن نفسه البلاء القادم بأن ينجد هؤلاء الضحايا فيقدم لهم أي شيء . إن القليل من المال إذا ساهم فيه الكثيرون يغدو كثيرا ، إننا جميعاً سكان هذا الكوكب في قارب واحد ، والقارب يوشك على الغرق ، وكل ما نراه هو صفحات الحقد والضغن والغل التي سطرها أعداؤنا في كتاب كئيب وأنتم المرادون والمقصودون بهذا الكتاب ، وأنتم المطلوبون أمام محكمته ، وانتظروا المزيد في غد أكثر كآبة .

ولكي لا نصادف هذا الغد ، علينا أن نثوب إلى رشدنا وأن نتدارك ما فاتنا ، وأن نتعرف على ما لدينا من مقومات الوجود والتقدم ومن قبل هذا ومن بعده ، علينا أن نعرف جيداً أنه لن ينصلح حال العرب والمسلمين والإنسانية إلا بالإسلام .

ألم يقرأ المسلمون - حكاما ومحكومين - ماكتبته صحيفة العالم (دي فلت) الألمانية في صفحتها الأولى تقول :

(إن قوات حفظ السلام التي أرسلتها الأمم المتحدة يقومون بالاشتراك مع الصرب باغتصاب الفتيات المسلمات في مدن المسلمين وقراهم ، وأن المنظمة الدولية لحقوق الإنسان بعثت برسالة إلى المؤتمر الدولي المنعقد في جنيف يلفتون انتباههم إلى اشتراك قوات حفظ السلام في اغتصاب الفتيات المسلمات في البوسنة ، إن الشاعرة "علية الجعار" في لجنة مناصرة شعب البوسنة بنقابة المهندسين بالقاهرة- وقد عادت لتوها من البوسنة بعد أن زارت معسكرات اللاجئين في كرواتيا قالت :

---

(١) الأنفال : ٢٥

إن فتاة بوسنية مسلمة صرخت في وجهها قائلة : أين نخوة الإسلام ؟ أين التضامن؟ إن كنتم عاجزين عن مساعدتنا ونجدتنا فإن أضعف الإيمان أن ترسلوا لنا حبوب منع الحمل حتى نجنب أنفسنا وأمتنا العار.

فبم تجيبون أيها المسلمون على هذه الصرخات التي تصدر من شعب يباد في البوسنة والهرسك وفي كل بقعة يوجد فيها مسلمون معذبون في العالم ؟: أطفال تذبح ، ونساء تسبى وتغتصب ، ومآذن تهوي ، وبيوت تنهار، ودماء تجري كالأنهار ، هل يستطيع مسلم يعرف لدينة حقه - حاكما كان أو محكوما - أن تغمض له عين وأن يعرف لراحة البال طريقا ، وهو يرى ويسمع أن النيران تشتعل من حول الأمة الإسلامية، تلتهم الأخضر واليابس ؟

بماذا يجيب المسلم ربه عندما يسأله عن موقفه من هذه الدماء المسلمة التي تستباح قتلا وبترا وملخا وتعذيبا ، والأعراض التي تنتهك في وضح النهار والأرض والأموال التي تسلب بالسياسة تارة وبالسلاح والغدر والخديعة تارة أخرى ؟.

يحدث هذا على مرآى ومسمع من الدول الإسلامية التي تملك الثروات والطاقات البشرية . فأين الأخلاق الإسلامية التي تدعو إلى النجدة والشهامة وإغاثة الملهوف ؟ فهل أصيب القوم في أخلاقهم ؟

ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال :

*وإذا أصيب القوم في أخلاقهم *** فأقم عليهم مأتما وعويلا*

إن على الإنسانية أن تغطي وجهها خجلا لوقوفها عاجزة أمام هذا الطوفان الذي يجتاح المسلمين أينما كانوا في كل بقعة يعيشون فيها .

وأين دور العالم المتحضر ؟ هل يقبل على بني جنسه أن يصيبهم ما أصابنا ؟

إن الذي لا جدال فيه أن هذا العالم الذي يدعي الحضارة هو هو الذي يدبر لهذه المهازل ويوقد نارها ، وهو الذي يستخدم معنا سياسة ميكيافيلية لا شرف فيها ولا قيم ولا أخلاق في الوقت الذي مازال فيه المسلمون أسرى الانشغال بالفتن الداخلية التي

خطط لها هذا العالم المتحضر بذكاء ، فدبت فينا عوامل الضعف من الداخل والخارج . وها نحن نحارب بعضنا. حكومات تعادي حكومات وتستولي على أراضيها بالقوة ، وحكومات تحارب شعوبها ، وجماعات تصارع الحكومات ، وقيادات مشغولة بأشياء كثيرة ليس من بينها ما يخطط في الخارج للقضاء على هذه الأمة .

صهاينة وصليبيون وشيوعيون تكالبوا علينا وفاقوا الشيطان في تآمرهم على سلام البشر ، وهدم كرامة الإنسان ، وإذلال الشعوب المستضعفة وسلب ثرواتها .

ونتيجة لذلك نرى المخاطر تزحف ، والدماء تسيل رخيصة ، وثروات المسلمين تستنزف طبقا لمخطط مرسوم ، دون أن تستفيد الأمة الإسلامية منها في الدفاع عن نفسها وتعويض ما حل بها من تخلف .

(إن ما يجري على أرض البوسنة والهرسك ليس إلا بداية الطوفان ، والصهيونية العالمية تتآمر مع اليمين الغربي الصليبي المتعصب للقضاء على أمتنا بأكملها ، وكثير من وسائل الإعلام الغربية تتناول المسلمين في صحفها وأجهزتها بأسلوب لا يمكن تفسيره إلا بأنه إعداد للشعوب الغربية ، واستعداء لها ضد الإمة الإسلامية ، إنه استعداد لأمر جلل يدبر ضد الأمة ، ولن يقف عند حدود ما يجري في البوسنة والهرسك.

فماذا فعلنا نحن المسلمين بمساحاتنا الشاسعة أرضاً وعدداً وثراءاً لحماية أمتنا من هذا الطوفان ؟

إننا نشجب ونحتج ونصرح ونرجوا أولئك الذين يضحكون علينا بما يزعمونه من نظام جديد ... نرجوهم إيقاف المذبحة .. ولكن .. اختطاف طائرة غربية أمر خطير جلل يستحق أن تقوم له الدنيا ولا تقعد .. نسف طائرة في الجو من قبل أناس فقدوا عقولهم نتيجة ما حاق بأهلهم وبلادهم عمل إرهابي يستحق أن تغتال فيه دولة بأكملها ..

أما ذبح شعب بأسره وانتهاك حرماته وأعراضه ، واستخدام أسلحة الجيوش القوية ضد شعب أعزل ، لا يملك ما يدافع به عن نفسه فهذا أمر لا يقيم الدنيا ولا يحرك ساكنا.. لماذا ؟ لأن المعتدي عليهم من المسلمين رغم أنهم من أصل القبائل السلافية

الأوربية التي تعيش في وسط أوربا منذ أبعد عصور التاريخ .. لكنهم لبوا نداء العقل واعتنقوا عقيدة الإسلام وثبتوا عليها .. لهذا استحقوا من حملة لواء الحضارة الغربية ، وباباواتها ورهبانها وقساوستها وزعمائها أن يعاملوا طبقاً لشريعة الغاب بوحشية لم يعرفها التاريخ من قبل ...

وبعد : فماذا تنتظرين يا أمة الإسلام ؟ ألا يستحق كل هذا أن تتحد كلمة المسلمين وأن يتناسوا خلافاتهم ، ويوحدوا صفوفهم ، ويثبتوا وجودهم على الساحة الدولية ؟ .

أليس ليوغوسلافيا الصربية والذين يساعدونها من أمثال روسيا واليونان وغيرهم مصالح في العالم الإسلامي فنقاطعها ، ونتخذ منها مواقف مؤثرة تجبر هؤلاء على احترام العدل والحق والإنسانية ؟

إنه مجرد حلم يحلم به الشرفاء من أبناء هذه الأمة ، أن تتحد وأن تعامل من يعادونها بما يتلاءم مع حماية مصالح المسلمين لتعود لأمة الإسلام مهابتها بين دول العالم ...)[1] ولتعود إلى سالف مجدها الذي عبر عنه رب العزة حين قال : (كنتم خير أمة أخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

---

(١) منارة الإسلام . الاستاذ/مصبح محمد السويدي . العدد . ٤ - أكتوبر ١٩٩٢م

ما أحوجنا إلى الأخوة الإسلامية

إن شيئا من هذا لن يتحقق إلا إذا فهمنا معنى الأخوة في الإسلام فهماً صحيحاً في ضوء قول الله عز وجل في سورة الحجرات (انما المؤمنون إخوة)[1] ، فالأخوة الإسلامية - التي تربط وشائج المسلمين - لا تقف عند حد العاطفة ، ثم يتقلص ظلها . وإنما الأخوة الإسلامية أخوة لها حقوق وواجبات ، سواء في علاقات الأفراد أو الجماعات والشعوب الإسلامية جاليات كانت أم شعوبا.

أما فيما يتعلق بعلاقات الأفراد فيحدثنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه عن هذه الحقوق فيقول :

(حق المسلم على المسلم ست . قيل : ما هن يا رسول الله ؟ قال : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس - فحمد الله - فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه). رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

والعلاقات الأخوية تلزم المسلم إلزاما برعاية جاره ، وستر عيبه ، وكفالة حاجته ، فإذا نام المسلم عن أخيه المسلم في هذه الواجبات تام آثما .

وأما فيما يتعلق بالعلاقات الجماعية بين المسلمين فإنها تتخذ أحكاماً صارمة تلزم كل الجماعة بكل أفرادها فرداً فرداً أن تكون بجانب المعتدى عليه ، والذي أصابه عدوان لم يكن ظالماً فيه ، ولا طاغيا على غيره من البشر ، فيكون إلى جانبه بكل إمكاناته .

ولم تخل كتب (الأحكام) في التراث الإسلامي من بيان الواجب على المسلمين عند العدوان على جماعتهم .

يقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنه :

(ترى المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له

(١) الحجرات : ١٠

سائر جسده بالسهر والحمى) ومتى فهمنا الأخوة الإسلامية على هذا النحو استطعنا أن نصل ما انقطع من عري العلاقات ، ووقتها سوف نسترد كرامتنا باسترداد حقوقنا ، ونرى قوتنا دون بطش أو عدوان . هذا فيما يتعلق بالأخوة في العقيدة والتي هي أساس الإيمان بالله وحده .

أما فيما يتعلق بالأخوة العامة فإن مما تمتاز به دعوة الإسلام ، هو أنها دعوة إلى أخوة عامة ، مجالها الإنسانية بلا أية فوارق في الجنس أو اللون أو الأصل ، باعتبار أن هذه الإنسانية هي الطابع المميز للآدمية التي كرمها الخالق عز وجل ، وباعتبار أن دعوة الإسلام ذاتها موجهة في الأصل إلى البشرية كلها .

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ...)[1]

ومن هنا : فلا يجوز التضحية بالأخوة في العقيدة والتي هي خاصة بالمسلمين من أجل الأخوة الشاملة التي مجالها وحدة الأصل البشرية ، لأن هذه الأخوة التي قوامها العقيدة والخاصة بالمسلمين ، تعتبر بمثابة المحرك الذي يحرك البشرية إلى سبل الهدى والخير (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[2]

ومن أجل ذلك - لا ينبغي التضحية بالمباديء الإنسانية - وفي مقدمتها العدل - من أجل مصلحة هذه الأخوة الخاصة .. وإلا انهارت قيمة الدعوة الإسلامية ، لأنها - والحالة هذه - تكون قد تخلت عن العدل الذي هو ركيزة المباديء الإنسانية التي جاءت لترى قواعدها : (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)[3]

بل إن دعوة الإسلام تهيب بالمسلمين أن يحققوا أعلى درجات العدل بأن ينصفوا الناس ولو كانوا لهم أعداء . (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)[4]

والإسلام لا يمنع أن يكون ولاء المسلمين تجاه الأخوة الإنسانية العامة ، على أن

(١) الحجرات : ١٣ (٢) الأنبياء : ١٠٧ (٣) النساء : ٥٨ (٤) المائدة : ٨

يكون في إطار التعاون على البر والتقوى . أما بالنسبة للأخوة في العقيدة فالولاء لها ، كما أشرنا إلى ذلك - فريضة واجبة، ولا ولاء على الإطلاق لأعدائها :

يقول ربنا عز وجل : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير)(١)

وينبغي أن تدرك أن الاستثناء في الآية (إلا أن تتقوا منهم تقاة) لا يستغل تبعاً لأهوائنا ، لأن الضرورة تقدر بقدرها ، ولذلك جاء بعد ذلك مباشرة : (ويحذركم الله نفسه) أي أن الله مطلع على خبايا النفوس ، وسوف يحاسبنا على ذلك ، والآية تخاطبنا على مستوى الدولة والأفراد ، لكن مخاطبة الجماعة في المقام الأول .

والحق أن التفريط في هذا المبدأ كان وراء محنة الأقليات المسلمة في عالمنا المعاصر وبخاصة الأكثرية كما والأقلية كيفا ... (٢)

أول خطوة على الطريق الصحيح

أعود فأقول :

إن عدم سماع الأصم للصيحة لا يعني أن الصيحة لم تحدث ، أقول ذلك لما أجده من تجاهل المسلمين خاصة والإنسانية عامة لمحنة الأقليات المسلمة في عالمنا المعاصر . إن محنة هذه الأقليات أصبحت واقعاً مريراً لا سبيل إلى تجاهله - فضلاً عن الجهل به - وعدم إحساسنا بهذا الواقع المرير لا يعني عدم وجوده . ويكفي ما يدور الآن في البوسنة والهرسك من مذابح كدليل على ذلك . وأول خطوة على الطريق الصحيح لوضع حد لهذه المحنة هو الإحساس الصادق بها ، ويستلزم ذلك ، أن تكون هناك وسائل إعلام إسلامية شكلاً وموضوعاً ، تشخص الداء وتصف الدواء ، لا أن تتعرض لها في إذاعاتها ونشراتها على أنها أخبارة مجردة كما هو الحال في وسائل الإعلام الرسمية في

(٥) آل عمران : ٢٨

(٦) محنة الأقليات المسلمة في العالم . محمد عبد الله السمان ص ٢٦ دار الاعتصام .

الدول الإسلامية . وإنما على وسائل الإعلام الإسلامية أن تعرض محنة الأقليات المسلمة، وتذيعها وتنشرها على أنها قضية تتولى الدفاع عنها ، باعتبار أنها مستقلة تماماً عن تأثير السياسة العليا للدول .

إن الأمة الإسلامية أنظمة وشعوباً ينبغي أن يشملها إحساس عام بأصحاب هذه المحن من الأقليات المسلمة المتناثرة في العالم ، كما أن عليها أن تعرف بدقة حجم المحنة التي تعيشها هذه الأقليات - جذورها وفروعها وثمارها - والأيدي الخفية التي تخطط لها ، وتباشر التنفيذ بطريق مباشر أو غير مباشر ، وأن تعرف كم وكيف هذه الأقليات أي من حيث عددهم وظروفهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية والمعنوية .

ومما يدعو للأسى أننا نجيد كثرة الكلام ، وليس لدينا أدنى قدر من إجادة الأفعال لأنه ليس لدينا خطة عمل . أما غيرنا فيجيد كثرة الأفعال في صمت ، بعيداً عن الثرثرة والإعلان ، ولديه خطة عمل يسعى بجدية إلى تنفيذها .

إذا كان هذا الإحساس بمحنة الأقليات المسلمة إحساساً شاملاً للأمة الإسلامية فهو بداية الطريق ، ويكون مبعثه تجسيد الواقع المر الذي يشكل محنة هذه الأقليات ويكشف عن اللامبالاة بهذه القضية ، من قبل الأنظمة والعلماء والمفكرين المسلمين ومن مظاهر هذه اللا مبالاة ، أن بعض الأنظمة ما تزال تتعامل مع من أراقوا دماء إخوانهم المسلمين وتصافح أيديهم الملوثة بالدماء ، أما العلماء والمفكرون فإن تقصيرهم يتمثل فيما هم فيه من سلبية .

إن هذه الأقليات المسلمة في كل دول العالم تحتاج منا الكثير كي تواجه ما هي فيه من محنة . فهل قدمت لها الأمة الإسلامية شيئاً مما تحتاجه ؟

إننا على الصعيد السياسي نتعاون مع هذه الأنظمة التي تضطهد الأقليات المسلمة في بلادها ، فأندونيسيا - مثلا - أكبر دولة إسلامية تشترك في حلف يضم ضمن أعضائه : الفلبين وتايلاند ، وهاتان تمارسان أشرس الأساليب في حربهما ضد الأقليات المسلمة هناك .

وعلى الصعيد المادي : فما يقدمه المسلمون القادرون للأقليات المسلمة يدعو إلى الخجل فدول البترول - وهي على ما هي عليه من ثراء عريض - تنفق في الترف مئات الملايين من الدولارات ، في حين أن هذه الأقليات المسلمة في حاجة ماسة إلى عشر معشار هذا المبلغ . وإذا قدموا لهم شيئا فإن هذا الشيء لا يقاس بما تتلقاه مؤسسات التنصير في هذه البلاد .

فمثلاً : تلقت مؤسسات مسلمي الهند من دول البترول في عام ١٩٨٤م خمسة ملايين من الدولارات . بينما تلقت مؤسسات التنصير هناك في العام نفسه مائة وعشرين مليونا من الدولارات ، دفعت أمريكا وحدها ٦٠٪ من هذا المبلغ . ولو نظرنا إلى ما قدم من الجانبين ، ثم قارنا بين عدد المسلمين وعدد النصارى في الهند لكان هذا مدعاة للأسى .

أما فيما يتعلق بما نبذله للأقليات المسلمة روحياً وفكريا في عالمنا المعاصر ، فلن نجد إلا أقل القليل ، ويتضح هذا عندما نقارن - في أية دولة - بين عدد المبعوثين الإسلاميين من الأزهر أومن غيره كرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، أو دار الإفتاء بالرياض ... ، وبين عدد المنصرين في نفس الدولة ، ومن خلال هذه المقارنة سوف تتضح لنا الحقيقة المرة ، فنجد الفرق كبيراً في الكم والكيف ، حيث تتاح الإمكانات المادية والثقافية للمنصر ، وهو ما لا يملكه الداعية الإسلامي .

إننا كمسلمين نستطيع أن نقدم الكثير للأقليات المسلمة في عالمنا المعاصر ، متى أحسسنا بمحنتها ، وعقدنا العزم على العمل من أجلها . وذلك عندما تتوافر استراتيجية ناجحة للدعوة الإسلامية تعمل وفق مخططاتها في الدول غير المسلمة والتي تستوعب عدداً - قل أو كثر - من المسلمين .

صحيح أن للدعوة الإسلامية في الدول غير الإسلامية وجودا ، إلا أنه وجود بدون استراتيجية . ولكي نكون منصفين لابد من أن نعترف بأنها مهمة شاقة ، ولكن نجاحها ليس مستحيلاً ، متى تحولت محنة الأقليات المسلمة في أذهان الأمة الإسلامية - قادة وشعوبا - إلى قضية - لا مجرد مشكلة هامشية في حياة هذه الأمة . ومتى أصبح لهذه

المحنة منظمة دولية مستقلة ، لها شخصيتها الاعتبارية أو ا لقانونية [1] ، كشأن بقية المنظمات الدولية التي لا تتبع دولة من الدول مهما كان شأنها . وأحسب أنه لو خلصت النوايا وصدق العزم لحملت الأمة الإسلامية كل دول العالم على إيجاد هذه المنظمة لتكون لسان صدق للمسلمين الذين أصبحوا في عصرنا الحاضر أحوج ما يكونون إلى من يأخذ بيدهم مرة أخرى إلى طريق الإسلام بعد أن نجح الأعداء في إبعادهم عنه .

خاصة وأن سحبا قاتمة من بريق الحضارة قد حالت بين الكثيرين منهم وبين دينهم فالأمة الإسلامية التي يشكل العرب فيها واسطة العقد ، وقاعدة الأساس ، نريد منها أن تستيقظ اليوم على آمال جديدة وطموحات واسعة ، بعد أن ظلت سنوات طويلة في سبات عميق ، نريد منها أن تصحو من غفوتها ، وتتأمل ذاتها ، وتتلفت من حولها ووقتها ستجد نفسها راكدة منطوية ، بينما تجد أمما أخرى كانت في المؤخرة فأصبحت في المقدمة .

إن على الأمة الإسلامية - وهي الآن على مفترق الطرق - أن تعمل جاهدة لتنفض عنها أوزار الكسل والركود والخنوع ، وأن تتعرف على الطريق الذي مهده لها رسولها الكريم فكانت به خير أمة أخرجت للناس ، ثم تصحح مسارها فيه لتهيىء لنفسها حاضراً عزيزاً ومستقبلاً أعز وأشرف .

وحين يتعرف المسلمون على ما لديهم من مقومات الوجود والتقدم ، فإن عليهم أن يتسلحوا بها تجاه الأفكار والعقائد الأخرى ، وحين يتعرف المسلم على حقيقة دينه وسعة جوانبه ، وضخامة ما يستطيع أن يقدمه للإنسانية جمعاء يزداد ثقة بنفسه لثقته بعقيدته ويقوي أمله في حاضر مجيد ومستقبل أعز وأمجد .

إن البلاء الذي حل بالمسلمين منذ فرطوا في دينهم - ومازال يحل بهم أينما كانوا- لا سبب له إلا أنهم نسوا أن هذا الدين الإسلامي هو الذي جاء ليقدم الحلول لكل المشكلات في العالم للعرب وللمسلمين وللإنسانية جمعاء .

(١) محنة الأقليات المسلمة في العالم : محمد عبد الله السمان . ص ٢١ ، ٢٢

وفي غيبة الإسلام تصبح الحضارة والآلة والمخترعات وسائل إضرار ، وينقلب الإنسان إلى وحش كاسر. إن الاستعمار وقتل الأبرياء ، وامتصاص دم الشعوب ، واستغلال خيراتها وطاقاتها ، والرفاهية على حسابها . كل هذه الجرائم تصبح فضائل في ظل حضارة زائفة تخلو من الروح والخلق . والإسلام هو الذي يملك تسخير المادة والحضارة لخير الإنسانية ، وهو الذي يستطيع - متى صدقت نوايا المسلمين - أن ينقذ الشعوب من المصير التي تساق إليه بسبب إنطلاق عقال المصلحة والأنانية والاستغلال . والإسلام هو الذي يستطيع أن يكشف زيف الحضارة الغربية المادية وما تنطوي عليه من متناقضات ومفارقات .

إن الحضارة لا تعني البريق الزائف منها فحسب ، وأي فضيلة لحضارة تسمح لأفرادها أن يسرقوا الشعوب ويلتهموا خبراتها ؟

وأي فضيلة لحضارة تسمح لأفرادها بالقتل الجماعي لجماعات لا ذنب لها إلا أنها آمنت بربها واتخذت الإسلام دينها ؟

وأي فضيلة لحضارة تسمح لأفرادها باغتصاب النساء والفتيات وهن في عمر الزهور ولا ذنب لهن إلا أنهن مسلمات ؟

فالعالم الذي لم يتحرر بعد يجب أن يمد له الإسلام والمسلمون طريقة للخلاص، والعالم الذي يتعرض أفراده للقنص والقتل والتعذيب والاغتصاب يجب أن يجد من المسلمين من يقف بجانبه يدافع عنه ولو أدى هذا إلى تجييش الجيوش .

والمسلمون والعرب هم المهيئون للأخذ بيد العالم ، وقد أخذوا بيده يوما ما فعرف الناس الاستقرار في ظل الكرامة الوافرة والانسانية الراشدة ، وبخاصة إذا عرفنا أن الأقليات المسلمة في العالم اليوم حوالي (٣٠٠) مليون مسل تنتشر في آسيا وأفريقيا وأوربا وأمريكا واستراليا .

- ففي الهند يوجد عشرة ملايين في ولاية جامو وكشمير يشكلون أغلبية ساحقة من سكانها تتعدى ٨٠٪ في حين تحتل الهند حوالي ٦٧٪ من أراضي هذه الولاية المسلمة، هذا بخلاف (٧٠) مليونا من المسلمين موزعين في باقي الولايات الهندية .

- وفي الصين يوجد حوالي (٧٥) مليونا من المسلمين .

- وفي الفلبين ثمانية ملايين .

- وفي الدول الأفريقية ينتشر المسلمون حيث يصل تعدادهم في الدول الأفريقية غير المسلمة إلى حوالي (٣٠) مليونا .

- أما في أوربا فيوجد فيها (١٥) مليونا من المسلمين منهم حوالي خمسة ملايين في البوسنة والهرسك ، ومليونان في أقليم كوسوفو ذو الأغلبية الألبانية ، كما يوجد مليونان في بلغاريا ، وأكثر من مليون من المسلمين في رومانيا .

- وفي بريطانيا وفرنسا يوجد حوالي ثلاثة ملايين من المسلمين .

- وفي كندا يوجد حوالي ثلاثة ملايين من المسلمين .

- وفي استراليا يوجد حوالي ثلاثين ألف مسلم .

- أما في جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق فيوجد ما يربو على ثمانين مليونا من المسلمين .

لماذا الخوف من الإسلام ؟

هناك أقليات مسلمة تنتشر بكثافة عالية في مناطق عديدة من العالم ، وتلاقي هذه الأقليات المسلمة أبشع الصور من المعاملة اللا إنسانية من دول الغرب والشرق على السواء ، ممن يحكمون هذه الأقليات .

وأحسب أن عدداً ضخماً من المسلمين لا يعرفون شيئا عن هذه الأقليات المسلمة المنتشرة في ربوع الدنيا والتي أشرنا إلى عدد بعضها آنفا ، ولولا أن مشكلة المسلمين في البوسنة والهرسك قد طفت على السطح لما حل بها من أهوال وكوارث لم تعرف البشرية لها مثيلا على يد الصرب والكروات لظلت مشكلة هذه الأقليات في طي النسيان .

هناك مسلمون في طاجستان نالوا من العذاب ألوانا على أيدي الروس ، وفي أبخازيا على أيدي الجورجيين ، وفي أذربيجان على يد الأرمن ، وفي مقدونيا على أيدي اليونانيين ، وفي المجر على أيدي المجريين ، وفي ألمانيا على أيدي النازيين الجدد ، وفي بلغاريا على أيدي البلغاريين ، ومهاجروا شمال أفريقيا في فرنسا وما يلاقونه من ويلات على أيدي اليمينيين المتطرفين ، وما يلاقيه المسلمون في بورما وتايلاند على أيدي البوذيين ، وفي الهند وكشمير على أيدي الهندوكيين ، وفي أثيوبيا على أيدي غير المسلمين ، وفي لبنان على أيدي المارونيين ، وفي فلسطين على أيدي اليهود ، وغير ذلك من مناطق العالم .

وهذه المعاملة غير الإنسانية للأقليات الإسلامية في هذه الدول وفي غيرها إنما مردها إلى الخوف والفزع مما يطلقون عليه (الصحوة الإسلامية) .

إنهم يخلطون عن عمد بين الأصولية الإسلامية وبين من يمارسون العنف تحت عباءة الدين في بعض البلاد الإسلامية وغيرها .

وفي هذا الخلط المتعمد خداع وتضليل ، ذلك أن الأصولية الحقة نابعة من جوهر الدين الإسلامي كما جاء به رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وطبقه في حياته ،

ومن بعده الخلفاء الراشدون ، إنها أصولية إسلامية تقوم على الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وهدفها تزكية النفوس وتطهير القلوب حتى يهتدي الناس إلى خالقهم ، ويعبدوه حق عبادته . كي تتحقق العناية من خلقهم (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

وإذا كانت الأصولية هكذا فما لهم وللعنف ؟ إن الأصولية الإسلامية تنبذ كل فكر هدام ، وترفض كل صور العنف وإكراه الناس على أمور دينهم . إنها تدعو إلى الحرية والتسامح والخير ، وترفض التعصب الديني وكل مظاهر التنطع والتشدد والغلو في الدين ، وتطلب من المسلم أن يكون قويا صلبا في الدفاع عن دينه ومقدساته والزود عن حرمات المسلمين أينما كانوا .

لقد وجد أعداء الإسلام الفرصة سانحة فانتهزوها حين رأوا ما يجري في إيران وفي غيرها من تحكم ودموية ، وفي تصدير هذه الممارسات إلى بلاد إسلامية أخرى . لقد عرف الأعداء هذا فاتخذوا منه حجة ليعلنوا حربهم العقائدية والعرقية ضد الأقليات المسلمة المنتشرة في أنحاء العالم .

وينبغي ألا ننسى أنه عبر قرون عديدة مضت ، كانت تصاحب أوربا صور مختلفة من الفزع والارتياب من الإسلام والمسلمين ، أعطتهم انطباعاً بعدم الأمان لهم ، وسبب هذا الانطباع ما قام به المسلمون عبر القرون من فتوحات لنشر دين الله في الأرض ، وما تبع ذلك من كسر شوكة اليهود والصليبيين حينا كبيرا من الدهر . ولما خابت مؤامراتهم وتحالفاتهم وجيوشهم في ايقاف المد الإسلامي ، خططوا للغزو الفكري لبلاد الإسلام وانطلق المنصرون والمستشرقون يعملون أيديهم وعقولهم في دس الأباطيل في سيرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وفي تاريخ المسلمين بقصد تشويه صورة الإسلام لدى بني جنسهم في بلادهم ، ولصرف العامة من المسلمين عن التمسك بتعاليم هذا الدين .

كل هذا : أعطى الدول الغربية والشرقية دافعاً إلى الزعم بأن المسلمين هم العدو الأول لهم . بعد أن تأكدوا من أن صرح الشيوعية قد تهدم وتفككت الدول التي كانت

تحمل لواءها ، وفي مقدمتها الاتحاد السوفيتي السابق وبدأنا نسمع بعض كتاب الغرب وساسته يقولون : إن الإسلام هو عدونا الأول .

والمدهش حقاً : أن هؤلاء يدركون الفرق بين الإسلام والسوفييت ، فالاتحاد السوفيتي - إبان سطوته وجبروته - كان يريد تدمير الغرب بشريا وحضاريا ، كما يدركون أنهم كانوا حريصين على تدمير الاتحاد السوفيتي بشريا وحضاريا أيضاً .

فما دخل المسلمين في هذه اللعبة الخطرة ؟ إن المسلمين الآن لم يشهروا سلاحاً ضد أوربا ، وليس لديهم تراسانات أسلحة كما عند الغرب والاتحاد السوفيتي ، ولا يعدو ما لديهم من سلاح أن يكون قطرة في محيط مما عند هؤلاء وأولئك .

وقوم هذا حالهم كيف يمكن أن يكونوا خطراً على أحد ؟ المسألة إذن حقد دفين تكون لديهم عبر القرون ، أذكته وسائل إعلامهم الغربية ، وأخذت من حين لآخر تذكى لهيبه بعد أن تداعت الشيوعية .

ولما كان لا بد أن يكون للصليبين عدو ، ولما كان عدوهم الأول قد هوى كعود الخشب الذي نخره السوس . وجه الإعلام الغربي أذهان الصليبيين في كل مكان إلى فكرة العدو المسلم ، وبدأنا نقرأ نقلا عن صحفهم وكتاباتهم عبارة (القنبلة الإسلامية) أو خطر (الصحوة الإسلامية) أو (الأصولية الإسلامية).

والواقع أن الإسلام إلى وقت قريب ، كان في نظر الغرب ستاراً حديدياً يخفي ما وراءه ، غير أن التنظيمات الدينية التي اتسمت بالمغالاة ، جسدت هذه الصورة عند هؤلاء الغربيين فانتهزوها ليعلنوا حربهم على المسلمين ، في حين أن المسلمين عبر القرون العديدة وحتى في عصر الازدهار الإسلامي كانوا دائماً يشعرون بالثقة والتفوق ، ولم يكن الغرب النصراني يشكل بالنسبة لهم أدنى مشكلة ، وكان اليهود والنصارى عبر القرون يعيشون آمنين في ظل الإسلام .

وظل الأمر هكذا إلى أن بدت السحب القاتمة في جو العلاقات بينهما حين بدأت العلاقات تتغير بين العالم الإسلامي والنصراني في القرن السادس عشر وبدا هذا واضحاً في القرن السابع عشر حيث أخذوا يرددون نغمة (التهديد الإسلامي) كما أخذوا

في التخطيط لاحتوائه وقلبه إلى عكس اتجاهه ومع أنهم تراجعوا عن الإحساس بالخطر من المسلمين لانحسار التفوق المطلق للعالم الإسلامي في العالم الغربي ، إلا أنهم أخذوا ينظرون إلى العالم الإسلامي باهتمام أكبر .

فمنذ نهاية القرن الثاني عشر ، أعد الغرب عدته لغزو العالم الإسلامي عسكريا وبدأت أساطيل أوربا تظهر في شرق البحر المتوسط ، وكلل هذا بغزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨م، وأعقبه تدخل بريطانيا ، ثم صار التدخل الأوربي بعد ذلك حالة متكررة طوال القرنين التاسع عشر والعشرين ، حيث تدخلت الاعتبارات الاستراتيجية والمصالح الاقتصادية ، وخلقت مواقف سياسية ساهمت في تبرير التدخل الأوربي .

وفي أعقاب الحربين العالميتين الأولى والثانية ، أعاد الغرب تخطيطه وتوزيع نفوذه في العالم العربي سياسياً وتبع ذلك استعراض أوربا لقواتها العسكرية ، الأمر الذي كان دائماً وما يزال يثير أزمة عدم الثقة لدى العالم العربي والإسلامي .

وها هم الآن : يصبون جام غضبهم على المسلمين في كل مكان يوجد فيه مسلمون . لأن المسلمين كما قالوا هم عدوهم الأول بعد زوال الشيوعية .

أصبح المسلمون الآن هم العدو الجديد ، الذي تتحد الإرادات من أجل محاصرته ومواجهته والعمل على تصفيته .

وليس أدل على ذلك مما قاله الرئيس الأمريكي الأسبق (نيكسون) في مقال نشر له في مجلة الشئون الخارجية عام ١٩٨٥ جاء فيه : «يجب على روسيا وأمريكا أن يعقدا تعاونا حاسماً لضرب الصحوة الإسلامية» .

ولم يكف نيكسون هذا المقال ، لينفث فيه عن حقده على الإسلام والمسلمين ، فنجده يصدر كتاباً بعنوان (الفرص السانحة) يعلن فيه أنه لم يبق للغرب عدو إلا الإسلام ، بل يعطي أيضاً تفاصيل عن الحقد الأمريكي الصليبي ضد المسلمين ، فبرغم اعتراف نيكسون بفضل الحضارة الإسلامية على الغرب ... فقد طالب بعقد تحالف مع روسيا الوريث القوي للاتحاد السوفيتي ومع الغرب لمنع المسلمين من إعادة بناء حضارتهم وقوتهم . وفي تحريض سافر على المسلمين يصفهم نيكسون بأنهم (هواة الدم)

ومن يتعامل معهم كالذي يعيش مع ثعابين سامة في خندق واحد ، ثم يتعمد الخلط بين الإرهابيين والأصوليين فيقول مؤكدا (إن الأصوليين هم أشد الناس عداوة للولايات المتحدة والغرب) .

إن هذا الكلام ولا شك ، توجه معاد للإسلام ، وانبعاث للروح الصليبية التي نادى بها البابا (أوربان الثاني) في القرن التاسع من كلير مونت بفرنسا في ٢٦ نوفمبر ١٠٩٥م ، وحدد يوم ١٥ أغسطس ١٠٩٦م لبدء تحرك أول حملة صليبية إلى الشرق ، وحيث استمرت الحروب بعد ذلك قرابة قرنين من الزمان قادها كبار ملوك أوربا ، منهم فردريك امبراطور المانيا ، وريتشارد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ، ولويس التاسع من ملوك فرنسا ، حتى انتهت تلك الحروب بانتصار المسلمين في عام ١٢٩٢م . ثم استمرت هذه الروح المعادية للإسلام عدة قرون بعد ذلك تمثلت في محاكم التفتيش التي جرت في أسبانيا والبرتغال ضد المسلمين عام ١٤٩٢م عقب انحسار المد الإسلامي عن هذه البلاد ، بعد أن سادها الإسلام وحكمها ثمانية قرون [١].

والحق أن العرب المسلمين كانت لهم فتوحات في أوربا عموما وفي شرقها على وجه الخصوص في القرن السابع الميلادي ، ويسجل التاريخ لهم تلك الهجمات على القسطنطينية فيما بين أعوام ٦٧٠-٧١٣م ، كما يسجل لهم الاستيلاء على جزيرة كريت عام ٨٢٧م . وهذه الفتوحات خلقت حالة من القلق تجاه القوة البحرية العربية .. وكان مقدم العرب على ساحل شمال أفريقيا أثناء النصف الثاني من القرن السابع ، مؤديا إلى فتح سريع لأسبانيا خلال عامين ، وواصل العرب إظهار وجودهم على السواحل الإيطالية والفرنسية ، وفي جزر غرب البحر المتوسط حيث أصبح هذا البحر بالفعل بدءا من القرن السابع شبه بحيرة عربية . ولم يكن العرب المسلمون حينما فتحوا بلدان أوربا برابرة ولا مخربين كما كان حال التتار والقبائل الجرمانية والفايلنج ، وإنما كانوا صناع حضارة وتقدم عظيمين في هذه البلاد في جميع المجالات العلمية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعسكرية وهذا باعتراف الأوربيين أنفسهم .

---

(١) انظر كتاب : من وراء ضياع البوسنة . لواء أركان حرب حسام سويلم ص٣.٢.

ففي الوقت الذي كانت فيه أوربا تغط في بحار من الجهل والتخلف ، أمكن للعرب الفاتحين أن يجلبوا معهم إلى هذه البلاد علوما ومعارف في الطب والهندسة والفلك والمعمار والرياضيات والكيمياء وعلوم البحار وفنون في الثقافة والأدب ، إلى غير ذلك من ألوان المعرفة التي لم يكن لشعوب أوربا أدنى إلمام بها ، وكانت سبيلهم إلى هذا التقدم العلمي ، الذي يتباهون به اليوم ، وهو الأمر الذي يعترف به مؤرخوهم وعلماؤهم حين قالوا : «إن الحضارة الغربية القائمة في العالم اليوم ما هي إلا نتاج فتات موائد الحضارة الإسلامية التي سادت أوربا قرابة ثمانية قرون»[1]

وبعد : فيا أخي المسلم ها هي بلاد البوسنة والهرسك آخر البوابات الإسلامية بقلب أوربا تستغيث ، والله مغيثها ، وتناضل والله ناصرها ، وما من مسلم إلا وعليه واجب إزاءها ، فلتعرف ما البوسنة والهرسك من خلال عرض موجز لماضي المسلمين فيها من خلال الصفحات التالية ، وبعد ذلك عليك أن تنظر أمام إيمانك ، وأنت تتركها تستغيث ولا مغيث ، هل تجد أمام الله تعالى من عذر ؟

(١) المرجع السابق . ص٤ ، ٥



ماضي المسلمين في أوربا
عرض تاريخي

في عصر الصحابة:

جمع الرسول الكريم برسالته شتات العرب ، فصاروا إخوانا متحابين ، أشداء على الكفار بعد أن كان بأسهم بينهم شديداً، ملوكا بعد أن كانوا لغيرهم عبيداً ، لقد ألف الله بينهم بهذا الدين الإسلامي :

(لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم)[1]

ولما انتقل الرسول إلى جوار ربه خلفه خلفاؤه الراشدون ، فأكملوا المسيرة وفتحوا البلاد ، ونشروا الدين في أقطار الأرض ، بالطول والعرض .

ولم ينته عصر الصحابة حتى وضع الإسلام قدمه في أوربا . فحاضر معاوية بن أبي سفيان (القسطنطينية) لأول مرة سنة ٣٤هـ ، ثم في سنة ٤٨هـ حيث حاصرها المسلمون في عهد معاوية أيضاً [2] وكان في الجيش عبد الله بن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري الذي توفى في مدة الحصار .

وتوالى حصار المسلمين للقسطنطينية ، ولم يتمكنوا من فتحها إلا في زمن السلطان المجاهد أبي الفتح محمد الثاني .

وحين لم يتمكن المسلمون من دخول أوربا من الشرق ، دخلوها من جانب الغرب، ففي عصر الصحابة أيضاً في سنة ٩٢ هـ غزا طارق بن زياد مولي «موسى بن نصير» الأندلس ففتحها واستمرت في أيدي المسلمين ثمانمائة عام أو يزيد .

---

(١) الأنفال : ٦٣

(٢) ورد هذا في كتاب (تاريخ الدولة العلية) لمحمد فريد بك .

وفي تلك السنة نفسها غزا المسلمون جزيرة (سردانية) من أكبر الجزر في بحر الروم ولكن لم يقر للمسلمين فيها قرار ، وإن كانوا قد غزوها بعد ذلك عدة مرات(١).

بعد عصر الصحابة :

وبعد أن انتهى عصر الصحابة ، سار الخلفاء والملوك على نهجهم في فتح البلاد ونشر الإسلام ، حيث فتحت جزيرة (صقلية) بكاملها سنة ٢١٣ هـ على يد قاضي القيروان عالم زمانه وفقيه أوانه (أسد بن الفرات) وبقيت صقلية بأيدي المسلمين فترة ، واهتدى أهلها وصاروا مسلمين ، وبنوا فيها المساجد حيث بلغ عددها في مدينة واحدة منها وهي مدينة (بلرم) أكثر من ثلاثمائة مسجد(٢) ودام ملك المسلمين في صقلية إلى سنة ٤٦٤ هـ ، وفي هذه السنة انتقلت إلى أيدي الكفار ، وبقي الإسلام فيها بعد ذلك مدة كبيرة . وقد ظهر من صقلية من أهل العلم عدد كبير .

ومن صقلية انتقل الإسلام مجاوزا البحر إلى أرض (فلورية) من بلاد إيطاليا ، حيث استولى المسلمون على عدة بلاد من بلادها مثل (ريو ، وبارة ، وكارنت) وقد دقوا أبواب (رومية) قاعدة ملك (إيطاليا) ومقر البابا ، وبنى أبو الغنائم الحسن بن على بن أبي الحسين الكلبي بمدينة (ريو) مسجداً كبيراً سنة ٣٤٠هـ.

ولكن هذه البلاد التي ذكرناها قد خلت بمرور الزمن من الإسلام والمسلمين .(وتلك الأيام نداولها بين الناس)(٣).

---

(١) ورد هذا في كتاب (الكامل) لابن الأثير .
(٢) (معجم البلدان) لياقوت الحموي
(٣) آل عمران : ١٤٠

الإسلام يدخل أوربا من الشرق

ومرت الأعوام إلى أن جاء السلطان (أورخان الأول) وفي عهده دخل المسلمون أوربا من الجانب الشرقي وفتحوا مدينة (كليبولي) الواقعة على (الدردنيل) وكان ذلك في عام ٧٥٨هـ. ومنذ ذلك الحين أخذ الإسلام ينتشر في أوربا ، ودخل المسلمون بالتدريج بلاد (بلغاريا واليونان والصرب والأرناؤوط والبوسنة والهرسك) وفتحت (القسطنطينية وبذلك صارت جميع بلاد (البلقان) بلادا للمسلمين على ما سيأتي .

ثم جاوز الإسلام نهر (طونه) وفتح المسلمون (بلاد المجر) حيث أدخلوا في قاعدة ملكهم (بودين وبشته) واستمر الفتح إلى أن قرع المسلمون أبواب (ويانة) مرات كثيرة. غير أن الأيام قد دالت بالمسلمين وانقلبت الأمور حتى لم يبق منهم في أوربا إلا بقايا في البوسنة والهرسك وبلاد الأرناؤوط وبلاد ماقدونيا وبلغاريا وتركيا الأوربية .

هذا : وقد وصف الرحالة الشهير بـ(أولياجلبي)[1] في رحلته للبلاد التي فتحها المسلمون في أوربا بأتم وصف ، وهو يتحدث عن الآثار الإسلامية في أوربا وعند وصفه لمدينة (بلجراد) وهي من بلاد الصرب يذكر أنه كان فيها مائتان وسبعة عشر مسجداً ، وثمان مدارس ، وتسع دور للحديث ، وسبع عشرة تكية للذكر ، ومائتا مكتب لتعليم الصبيان ، وسبعون مكتبا ، وليس فيها الآن من كل ما ذكره أولياجلبي إلا مسجد واحد يصلي فيه عدد قليل من التجار المسلمين أو مسافريهم ، وقس على هذه المدينة غيرها من المدن .

يقول الخانجي : ورأيت بعيني رأسي في مدينة سلانيك مساجد تهدم وأخرى يوضع عليها النواقيس والصلبان . فتصير بيوت كفر وقد كانت بيوت إيمان ، ثم يذكر هذه الأبيات من قصيدة صالح بن أبي شريف الرندي في رثاء الأندلس :

---

(١) يذكر محمد بن محمد المعروف بـ(الخانجي) في كتاب (الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء البوسنة) أن هذه الرحلة باللغة التركية وتقع في عشر مجلدات ، لم يصنف في العربية ولا التركية ولا الفارسية مثلها . هدية مجلة الأزهر . ذو الحجة ١٤١٢هـ ص ٢٥ وما بعدها .

تبكي الحنيفية البيضاءُ من أسف * كما بكى لفراق الإلف هيمانُ
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة * حتى المنابر تُرثى وهي عيدانُ
على ديار من الإسلام خالية * قد أقفرت ولها بالكفر عمرانُ
حيث المساجدُ قد أمست كنائس ما * بهن إلا نواقيسُ وصلبانُ
لمثل هذا يذوب القلب من كمد * إن كان في القلب إسلامٌ وإيمان

ثم يقول : أخي المسلم : أسلافنا بنوا ونحن هدمنا ، وسعوا ونحن كسلنا واعتنوا بالدين ونحن أهملنا ، نحن خلف سور لخيار أسلافنا ، ولو رجعنا إلى ما كانوا عليه لهبت رياحنا وسارت سفننا ، ليس علينا إلا العمل والرجوع إلى ديننا ، وأن أردنا الفلاح في غيره فقد استسمنا ذا ورم ونفخنا في غير ضرم، قال رسول الله ﷺ في رواية ابن عمر[1] (إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه شيء حتى ترجعوا إلى دينكم).

(١) بيع العينة أن يبيع الرجل شيئا من غيره بثمن مؤجل ويسلمه إلى المشتري ، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن نقد أقل من ذلك القدر .

العثمانيون والحملات الصليبية في البلقان

تجدر الإشارة إلى أن المسلمين قد وصلوا إلى بعض مناطق البلقان بعد أن فتحوا صقلية عام ٢١٢هـ. ثم انتشروا بدينهم وفتوحاتهم بشكل واسع مع الفتح العثماني[١]. وأن خروج الصليبين من عكا عام ٦٩٠ هـ-١٢٩١م لم يكن هو النهاية للحملات الصليبية التي دارت رحاها على أرض بلاد الشام .

ففي عام ٧٥٦هـ - ١٣٥٥م عبر العثمانيون مضيق الدردنيل لصد هجمات البلغار والصرب وبعد عامين قاد (سليمان بن أورخان) ثلاثين ألف مقاتل وتمكن من فتح عدة مدن أوربية مما دفع البابا (أوربان الخامس) إلى أن يستنفر ملوك أوربا خوفاً من أن يباغت العثمانيون بجيوشهم أرض البوسنة النصرانية وغيرها .

من أجل ذلك تم تحالف لمواجهة الزحف العثماني رئيسه (لايوش الأول) ملك المجر وأعضاؤه : (أورروش الخامس) ملك الصرب و(تفرتكو) ملك البوسنة ، وأميرين رومانيين.

وعلم العثمانيون المسلمون بتدبير هؤلاء القوم فأعدوا العدة لإحباط تحالفهم بهجوم ليلي خاطف في عام ٧٦٦هـ - ١٣٦٣م قادة البطل العثماني الكبير (الحاج إيل بك)[٢] وانتصر عليهم في هذه المعركة التي عرفت في المصادر العثمانية بإسم «صنديقية الصرب» وكان جيش المسلمين عشرة آلاف فقط بينما كان جيش التحالف الصليبي ما بين ٦٠ إلى ١٠٠ ألف جندي .

وظروف هذه المعركة أن أمير أمراء البلقان (لا لا شاهين بك) حين عرف بتحرك القوات الصليبية بهذا العدد الضخم من الجنود ، وعلم أنهم متوجهون إلى «أدرنه» عاصمة العثمانيين في ذلك الوقت ، أرسل إلى (مراد الأول) في الأناضول ، يطلب منه

---

(١) كتاب : محنة الأقليات المسلمة في العالم . محمد عبد الله السمان ص ٢٠٠ .

(٢) كان هذا القائد وزيراً في إمارة (قاراسي) المزامنة للإمارة العثمانية في الأناضول ثم انضمت هذه الإمارة إلى العثمانيين فدخل إيل بك في خدمتهم وأبلى بلاءً حسناً في الفتوحات الإسلامية في البلقان .

المدد ، وفي الوقت نفسه أرسل قوات إستكشافية بقيادة (إيل بك) وتحرك القائد العثماني لأداء ما كلف به ، وكانت المفاجأة حيث وجد أن الجيوش الصليبية أصبحت قريبة من أدرنة . إكتشف هذا ليلاً ورأي أن قوات العدد في حالة غفلة ، فوجدها فرصة متاحة فانتهزها وباغت هذه الجيوش في هذه اللحظة من الليل ، فأوقع فيهم الفزع والرعب ، فأخذوا يقتلون بعضهم بعضاً في الظلام ، ومن حاول منهم الهرب وقع في نهر مريج فيموت غرقاً ، وقد قتل بعض الأمراء في هذه المعركة ونجا (الايوش الأول) ملك المجر بصعوبة بالغة وبهذا النصر أمن الحكم العثماني الإسلامي مستقبله في البلقان، وتجدر الملاحظة إلى أن هذه المعركة هي الأولى التي يشترك فيها ملك البوسنة النصرانية ضد القوات العثمانية المسلمة [1].

(١) البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة . د/محمد حرب ص ٨٠٧

تحالف البوسنة والصرب ضد العثمانيين

من بين النظم العسكرية العثمانية كان يوجد تنظيم عسكري خاص اسمه (المغيرون) وهم فرقة عسكرية يتوارثها الأبناء عن الآباء ومهمتهم تخريب أراضي العدو وإضعافه بالإغارات الفجائية لإرهابه وكان لهذا التنظيم دور رائع في بث الرعب والفزع في قلوب ملوك وأمراء دول البلقان ونتيجة لهذا الرعب والفزع تم تحالف بين البوسنة والصرب ضد المسلمين العثمانيين وفي عام ٧٧٧هـ - ١٣٧٥م أدرك صقابلة الصرب والبوسنة أنهم في خطر حين شعروا بإقتراب الحدود العثمانية ، منهم فقام ملك الصرب (لازار نوفتش) بالتحالف مع القرمانيين في آسيا الصغرى ضد العثمانيين ، مع أنه كان قد خضع لهم ودفع الجزية ، وكان عليه أن يجدد معاهدة التابعية للعثمانيين ولكنه كان يكن العداء لهم ، فأتحد مع ملك البوسنة (تفرتكو) كما جمع حوله بعض أمراء الصرب الذين كانوا يرفضون الإعتراف به حتى ذلك الحين ، وكون هؤلاء جيشاً من البوسنة والصرب عدده (٣٠٠٠٠) ألف مقاتل تحت قيادتهما ، وكان من بين هذا العدد جنود من البلغار كما كان من بينهم (شيشمان) ملك بلغاريا .

في هذا الوقت كان الجيش العثماني يتقدم بعشرين ألف جندي ، واستطاع أن يستولى على البوسنة غير أن جيش التحالف النصراني الصليبي باغت الجيش العثمانيين في مكان يسمى (بلو شنيك) وكانت نتيجة المعركة في صالح الصليبين. واستشهد من المسلمين فيها خمسة عشر ألفا ، مما أعطى للصقالبة روحاً معنوية جديدة في البلقان وللسلاف أيضاً . وكان سبباً في الإتحاد السلافي للعناصر الصربية والبلغارية والبشناقية وفي التحاق بعض الأمراء والارناؤوط (الألبان) بهذا الاتحاد الذي كان هدفه طرد العثمانيين تماماً من البلقان[1].

---

(١) نفس المصدر ص ١٢

موقف السلطان العثماني من هذا التحالف

علم السلطان (مراد الأول) بأمر هذا التحالف ، فاتخذ لمواجهته خطة سياسية، وأخرى عكسرية ، وكانت الأولى عبارة عن إقامة تخابر سري سياسي ، كان سبباً في تحلل بعض الأمراء الألبان والصرب من هذا الحلف ، وانضمامهم إليه ، وتشير بعض الروايات التاريخية أنه عمل على خطف ملك الصرب (لازاز) واتفق سراً مع مجموعة من قواد الصرب أن يسلموه إليه ، هذا فيما يتعلق بالخطة السياسية .

أما الخطة العسكرية : فتتلخص في أنه أعطى وزيره الأعظم (جاندارلي على باشا) أمرا بالاستيلاء على بلغاريا دون أن يعطي الفرصة لاتحاد الجيوش البلغارية والصربية ، فاستولى هذا القائد على (طيرنوفا) عاصمة بلغاريا ، وهرب ملكها (شيشمان) وانسحب حتى نهر الطونة (الدانوب) ودخل قلعة (ني بولي) وأغلقها عليه ، فتوجه إليه السلطان مراد الأول وحاصره مما اضطره إلى أن يعلن انقياده لسلطة العثمانيين ، وتعهد بدفع الخراج وتسليم عدة قلاع من بينها قلعة (سلسترة) . ولكنه بمجرد عودة مراد بك تمرد ولم يوف بما وعد ، مما كان سببا في الوبال الذي حل ببلغاريا حيث استولى العثمانيون على مدن : سلستره ، وهيزار جراد ، وروسجوق ، وقلعة نيبولي ، وسلم شيشمان نفسه وزوجته دون قيد أو شرط ، وسيقا إلى مقر قيادة الجيش العثماني لعرضهما على السلطان مراد الأول .

وهكذا نجحت الضربة الأولى في خلخلة التحالف البلقاني المكون من الصرب وبلغاريا ورمانيا والبوسنة وقطاع من ألبانيا . وأصبح وسط بلغاريا كله تحت الحكم العثماني .

أما فيما يتعلق بشيشمان فقد عفا عنه السلطان العثماني ، وأعلن تبعيته للدولة العثمانية ، وأصبح واليا عثمانيا على بلغاريا ، وقدم أخته (تمارا) إلى السلطان مراد فتزوجها .

هذا : وكانت بداية الفتح العثماني لبلغاريا في عام ١٣٨٨م ، واكتمل فتحها عام

١٣٨٩م[1] . هذا فيما يتعلق ببلغاريا .

أما باقي عناصر هذا التحالف فمازالوا على تحالفهم ضد العثمانيين ، وقد أغراهم هزيمة العثمانيين الجزئية في بلوشنيك.

وها هم في عام ١٣٨٩م مازالوا يتحينون الفرصة للانقضاض على الجيش العثماني الذي يتوقعون هجومه في أية لحظة .

موقعة قوصوه الأولى ٧٩١هـ - ١٣٨٩م

عرفنا أن المتحالفين الصليبين كونوا جيشا ليكسروا به شوكة العثمانيين ، وكان الصرب على رأس هذا التحالف ، ومعهم البلغار والأولاخ والأرناؤوط (الألبان) والبولنديون والمجر ، و(تفرتكو) ملك البوسنة ، وأمير قوصوه (كوسوفا) ، وأمير أولاب وأحد أمراء شمال بلاد الأرناؤوط (ألبانيا) .

وكان الملك (لازار) ملك الصرب هو قائد جيش التحالف الصليبي ، أما جيش العثمانيين فكان بقيادة السلطان مراد ، وقد اشترك مع جيش العثمانيين الأمير البلغاري (قسطنطين) كما كان معه بعض أمراء الصرب ، بالاضافة إلى قوات مساعدة أرسلها المسلمون المستقلون في آسيا الصغرى (الأناضول) والمجاورون للعثمانيين .

وتجدر الإشارة إلى أن عدد جيش التحالف الصليبي في هذه الموقعة كان مائة ألف محارب وكان عدد الجيش العثماني ستين ألفا.

وفي ٢٧ أغسطس ١٣٨٩م التقى الجيشان في صحراء (قوصوه) وانتهت المعركة بهزيمة جيش الصرب والتحالف الصليبي ، الذي كان يريد وقف المد الإسلامي في أوربا وفي هذه المعركة قتل ملك الصرب (لازار).

---

(١) نفس المرجع : ص ١٤

غير أنه حدث شيء يعكر الصفو في هذه الموقعة ، وهو استشهاد القائد السلطان مراد الأول عقب هذه المعركة وبعد انتصاره فيها ، حيث طعنه جريح صربي بخنجر مسموم فمات السلطان بعد طعنه بساعتين . وهذا القاتل يدعي (ميلوش كابيلوفيتش) ويقال إنه أحد أصهار الملك الصربي (لازار) . وقد حاول القاتل الهرب إلا أنه قبض عليه وقتل .

وقد أقام له الصرب بعد ذلك تذكاراً حجريا في المكان الذي طعن فيه السلطان ، وآخر في المكان الذي قبض عليه فيه .

وقد دفن السلطان مراد الأول في نفس المكان الذي استشهد فيه ، ثم نقلت رفاته بعد ذلك إلى مدينة (بورصة) وكان عمره يوم استشهاده ثلاثا وستين سنة . استشهد بعد حكم دام تسعا وعشرين سنة ، قضاها مجاهداً في سبيل الله ، وقد مهد الطريق لأولاده وأحفاده بهذا النصر لإكمال الفتوحات العثمانية في رومانيا والأرناؤوط (ألبانيا) واليونان والبوسنة .

وأهم ما أسفرت عنه هذه المعركة أنها حرمت مملكة الصرب استقلالها تماماً طوال قوة الدول العثمانية [١].

بايزيد يجبر الصرب على الخضوع

جاء خير خلف لخير سلف وهو السلطان بايزيد الأول ليخلف والده على كرسي الحكم العثماني فواصل فتوحات والده في أوربا ، وكان بايزيد أشد شجاعة واقتحاما في سبيل إعلاء كلمة الله ، وكيف لا ؟ وقد صرح لوفد تجاري قدم عليه من إيطاليا ، أنه بعد أن يفتح المجر سوف يزحف إلى روما ويطعم حصانه العشب في مذبح القديس بطرس.

وهذا دليل على حماسة هذا السلطان العثماني الجديد الذي عاصر معظم المؤامرات

(١) نفس المصدر ص ١٥ - ١٧

الصليبية ضد الوجود الإسلامي في البلقان ، والتي حرضت عليها ودعت إليها البابوية.

لقد تمكن (بايزيد) من إخضاع الصرب والأفلاق لسلطان الدولة العثمانية ، حيث اعترف ملك صربيا (استيفان) بالسيادة الإسلامية العثمانية ، وتعهد بدفع الجزية سنويا ، وتقديم فرقة من الجنود تكون تحت إمرة بايزيد ، ووفى بعهده حيث شارك الجنود الصربيون مع القوات الاسلامية في موقعة (ني بولي) عام ١٣٩٤م أو ١٣٩٦ على اختلاف الروايات . ومعركة انقرة.(١)

وبيان ذلك أن منطقة شمال الصرب لم تكن قد فتحت بعد ، فوجه العثمانيون فرعا من جيوشهم إلى البوسنة ، بقيادة باشاييكيت حيث اغارت هذه القوة عليها ببسالة وغنمت من ذلك مغانم كثيرة ، وهذه أول مرة في التاريخ البوسنوي تقوم فيها مملكة البوسنة بدفع الخراج للدولة الإسلامية في عهد بايزيد الأول .

وفي نفس الوقت توجه فرع آخر من الجيش إلى الصرب الشمالية بقيادة (خوجه فيروز بك) فاستولى على (ويدين) أثناء توجهه إلى شمال الصرب ، ثم عبر نهر (الطونة) وأغار على داخل منطقة الأفلاق.

---

(١) مجلة المختار الإسلامي . دراسة في حلقات د. سوسن سويلم ص ٩٢

موقعة ني بو لي وانتصار العثمانيين
٧٩٨هـ - ١٣٩٦م

هذه الموقعة كانت على نهر الطونة ، بالقرب من قلعة ني بو لي ، وقد تمت أحداثها في ٢٥ سبتمبر ١٣٩٦م. وكانت بين الجيش العثماني بقيادة السلطان بايزيد الأول الملقب بلقب (بايزيد الصاعقة) وبين الجيوش الأوربية مجتمعة في شكل حملة صليبية ، لوقف اندفاع العثمانيين من اجتياح أوربا ، وهي الحملة الصليبية الرابعة . وقد اشترك في هذه الحملة الصليبية أهل البوسنة (البوشناق) بالاضافة إلى الدول الأوربية الكبرى وهي المجر ، فرنسا ، انجلترا ، بولندا . كما اشتركت فيها ممالك اسكتلندا ، وفاستيليا ، وأراجون ، وفرسان القديس يوحنا في رودس ، وكان (سيجسموند) ملك المجر هو قائد هذه الحملة .

وشاء الله أن يكتب النصر في هذه المعركة الحاسمة للعثمانين نتيجة لحسن تدبير القائد بايزيد ، الذي باغتهم في وقت لم يكونوا يتوقعونه ، حيث كانت السرعة التي وصل فيها جيشه لمداهمتهم عاملاً مفاجئا لهم . مما أوقع في صفوفهم الرعب ، فأخذ يدمر بشكل قاطع وحاسم ، فرق الجيش المجري أقوى جيوش هذا التحالف ، وفرت جنود هذه الجيوش عبر نهر الطونة (الدانوب) وأثناء فرارها فوجئت بتصدي قوات المغيرين المسلمين لها .

وأخذت هذه القوات تعمل فيهم السيوف ، وفي هذه الموقعة الحاسمة في تاريخ المسلمين وتاريخ أوربا ، وقع في أيدي العثمانيين أعداد هائلة من الأسرى الصليبين وفي مقدمتهم كثير من الأمراء الفرنسيين وقادتهم ، وقد أرسلوا إلى العاصمة العثمانية آنذاك وهي (بورصة) حيث أطلق سراحهم فيما بعد ، بعد أن دفعوا فدية كبيرة. (١)

---

(١) البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة . دكتور محمد حرب ص ١٧ - ١٩

وعادت الحرب فتجددت مع المجر عام ٨٣٢هـ - ١٤٢٨م . وبعد معارك عنيفة كان النصر فيها إلى جانب العثمانيين ، تم عقد معاهدة أصبحت - بمقتضاها - كل البلاد الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الدانوب تابعة للدولة العثمانية ، وأصبح نهر الدانوب هو الحد الفاصل بين الدولة العثمانية وبلاد المجر ، وتبع ذلك عقد معاهدة مع ملك الصرب (جورج برنكوفيتش) كان من جملة شروطها أن يقطع علاقاته مع المجر ، وأن يقدم فرقة لمساعدة العثمانيين وقت الحرب .

السلطان مراد الثاني

جاء السلطان مراد الثاني ، وأخذ هذا الموقف لصالحه ، فأكمل فتح بلاد ألبانيا (الأرناؤوط) و(الفلاخ - رومانيا) واضطر أمير الفلاخ واسمه (دره قول - الشيطان) أن يقر بسيادة الدولة العثمانية ، غير أنه ما لبث أن تحالف مع ملك المجر ، فحاربهما السلطان مراد الثاني ، وانتصر عليهما واجتاح بلاد المجر عام ٨٤٢هـ - ١٤٣٨م.

وهكذا استمر الصراع على أرض أوربا ، وجرت معارك ضارية على أرض (ترنسلفانيا - النمسا) و(هومان ستاذ - رومانيا) وفي النهاية أمكن عقد صلح لمدة عشر سنوات بين العثمانيين والمجر عام ٨٤٨هـ - ١٤٤٤م إلا أنهم سرعان ما نقضوا معاهدتهم مع العثمانيين ، حين أصدر الكردينال (سيزاريني) فتوى أحل فيها ملك المجر من التزاماته بحجة (عدم رعاية الذمة مع المسلمين) .

وهنا أسرع السلطان مراد الثاني لحرب جيش المجر ، الذي كان قد وصل إلى (فارنا) على شاطيء البحر الأسود ، وانتصر مراد على جيش المجر ، وقتل ملكهم (لادسلاس) ، كما قتل الكردينال (سيزاريني) وتمزق جيش المجر ، وأسرع السلطان مراد الثاني بعد هذا النصر فسار بجيشه إلى البانيا ، للقضاء على التمرد الذي قاده أميرها (اسكندر بك) وأمكنه القضاء على الفتنة .

وكان أمير المجر (هوينياد) قد جهز جيشا من ٢٤ ألف مقاتل للانتقام من هزيمة (فارنا) فتوجه إليه السلطان بجيشه ، ودارت معركة في (قوصوة - للمرة الثانية) وانتصر المسلمون فيها انتصارا حاسماً في عام ٨٥٢هـ - ١٤٤٨م [١]

هذا ويلاحظ أن ملك البوسنة (تيفرتكو الثاني) بعد أن شعر باقتراب الخطر العثماني منه - خاصة بعد انتصار العثمانيين في (سمندره) اقترح من نفسه على السلطان مراد الثاني أن يزيد الخراج المفروض عليه لكي ينقذ موقفه ، وزاد الخراج بالفعل من عشرين ألف دوقة ذهبا إلى خمسة وعشرين ألفا[٢]

(١) المسلمون في البوسنة والهرسك . بسام العسلي ص ٢٢ ، ٢٣
(٢) البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة . دكتور محمد حرب ص ١٩

السلطان محمد الفاتح

٨٣٣ - ٨٨٦هـ ، ١٤٢٩ - ١٤٨١م

وفتح البوسنة

جاء بعد ذلك (أبو المعالي محمد خان بن مراد المعروف بالفاتح) ، فبدأ جهاده بفتح عاصمة الروم القسطنطينية عام ٨٥٧هـ - ١٤٥٣م).

وكانت بلاد الصرب قد تمردت من جديد ، بتحريض من المجر ، فتوجه إليها في سنة ٨٦٤هـ - ١٤٦٠م . وقضى على هذا التمرد قضاءاً كاملاً وبذلك فقدت الصرب استقلالها نهائيا .

وعلم السلطان الفاتح أن أمير الفلاخ (دره قول) قد ارتكب فظائع مع المسلمين واعتدى على تجارهم في بلاده ، فأعد جيشا ذهب به لتأديبه ، فأسرع أمير الفلاخ وأرسل وفدا عرض على السلطان الالتزام بمعاهدة سنة ١٣٩٣م - والتي كانت قد أبرمت مع السلطان بايزيد - فقبل السلطان العرض ، وعاد بجيوشه .

غير أن (دره قول) كان يخادع السلطان الفاتح ، لاكتساب الوقت حتى يكمل استعداداته ، وفي الوقت ذاته تحالف مع المجر لشن الحرب ، وعلم السلطان الفاتح بهذا فأرسل يستطلع الأمر من خلال مندوبين له . فما كان من (دره قول) إلا أن قبض على المندوبين وقتلهما بصورة وحشية ، حيث وضعهما على عامود محدد (خازوق) من الخشب ، ثم أغار بعد ذلك على بلاد بلغاريا التابعة للدولة العثمانية ، وعاث فيها فساداً ، وأخذ منها ٢٥٠٠٠ ألفا من الأسرى المسلمين . فأرسل إليه السلطان الفاتح يدعوه إلى الطاعة ، وإخلاء سبيل الأسرى ، فلما مثل الرسل أمامه أمرهم برفع عمائمهم لتعظيمه فرفضوا فما كان منه إلا أن أمر بأن تثبت عمائمهم فوق رؤوسهم بمسامير من حديد ، وعلم السلطان الفاتح بهذا فجهز جيشا من مائة وخمسين

ألف مقاتل ، وسار بهذا الجيش ، ووصل إلى عاصمة الفلاخ - رومانيا (بخارست) فهزم أمير الفلاخ (دره قول) ومزق جيوشه ، فهرب (دره قول) ولجأ إلى ملك المجر ، فعمل السلطان الفاتح على عزله ، وعين مكانه أخاه (راؤول) الذي كان قد نشأ في رعاية السلطان . وضمت بلاد الفلاخ (رومانيا) إلى الدولة العثمانية . وكان مما أثار غضب السلطان عندما وصل إلى ضواحي (بخارست) انتشار جثث الأسرى الذين جاء بهم أمير الفلاخ من بلغاريا وقتلهم بمن فيهم النساء والأطفال [1].

وكان فتح عاصمة الروم إيذانا بوصول الجالية الإسلامية إلى طريق التجارة بين البحر الأبيض والأحمر ، كما أن فتح بلاد الصرب والمورة كان سببا في اضطراب عظيم للنصرانية الأوربية ، مما دفع البابوية إلى القيام بالدعاية لحرب صليبية تمنع التدافع العثماني من التقدم في أوربا ، ونجحت البابوية في إقامة علاقات سرية مع البنادقة وكان أكثر من استجاب لهذا النداء ملك البوسنة ثم دوق الهرسك (سانت ساباس).

كما تم طلب المساعدات من ماثياس ملك المجر وجمهورية البندقية ، ومن اسكندر الأرناؤوط ، وأرسل ملك البوسنة رسلا إلى روما ، يطلب من البابا قوات مساعدة لصد العثمانيين . كل ذلك كان يحدث سراً . إلا أن السلطان محمد الفاتح كان له جهاز استخبارات على أعلى درجات التنظيم ، ومن خلاله كان يتابع بدقة استعدادات العدو . فقرر تسوية مسألة هذه الدول الصغيرة بشكل حاسم ، حتى يتمكن من إتمام فتوحاته في البلقان غير أن حرب الأفلاق التي كانت أوائل ١٤٦٢م حالت دون التطبيق الفوري لهذا القرار . وكان الفاتح قد أرسل قبل هذه الحرب إلى ملك البوسنة (ستيفان توماشافيتش) رسلا يطلبون منه الخراج الذي تأخر عن دفعه، فقبض على الرسل وأودعهم السجن ، وبهذا أصبح العداء بين العثمانيين والبوسنة صريحاً .

استعد السلطان محمد الفاتح للحملة على البوسنة بعد أن فتح جزيرة (ميدلي) وقضى على شر الأفلاق ، وكان عدد جيش الفاتح لفتح البوسنة مائة وخمسين ألفا.

---

(١) المسلمون في البوسنة والهرسك . بسام العسلي ص ٢٤ ، ٢٥

وتوجه إلى البوسنة في مايو ١٤٦٢ أو ١٤٦٣م على اختلاف الروايات ، واستولى على قلعة (ياي تشا) عاصمة مملكة البوسنة ، فلم تجد المدن الهامة الأخرى في هذه المملكة مفرا من أن تسلم مفاتيحها للسلطان ، ثم تلتها بقية المدن بعد مقاومة بسيطة.

وقد لجأ آخر ملوك البوسنة إلى قلعة (كلوتز) غير أنه استسلم في آخر الأمر ، فتم إعدامه هو وابنه ، لأنه أودع رسل الفاتح السجن ، وكان دوره قويا في تحريض الصليبيين ضد العثمانيين ، حيث كان من أشد المعادين للإسلام وللعثمانيين في أوربا.

وهكذا تم للسلطان الفاتح في هذه الحملة فتح كل بلاد البوسنة بكاملها ، واستولى على أكثر من (٣٠٠) من القلاع والاستحكامات العسكرية ، وأصبحت البوسنة ولاية عثمانية .

ومنذ ذلك التاريخ اهتدى أهالي البوسنة (البوشناق) إلى الإسلام في زمن قليل بعد أن أعلن السلطان الفاتح أن (لا إكراه في الدين) .

وبهذا الإعلان شعر البوغو ميليون [1] بالارتياح من اضطهاد الكنيسة الشرقية والغربية . حيث لم يكونوا مقتنعين بالنصرانية بمذهبيها الكاثوليكي والأرثوذكسي وظلوا كشعب بوشناقي في البوسنة ، محافظين على تقاليدهم القبلية . ووقفوا موقف الحياد من النزاعات الدينية بين الصرب والكروات . وكونوا كنيسة مستقلة ، وكانت ديانتهم في كل مظاهرها وعقائدها قريبة من الإسلام . مما أثار حقد البابا وملوك المجر، فحاولوا إرغام البوشناق على ترك مذهبهم البوغومولي واعتناق المذهب الكاثوليكي، إلا أن هؤلاء كانوا يرفضون مبدأ النزاع النصراني بين الروح والمادة ، كما يرفضون أكثر ما نقله النصارى عن العهد القديم ، وتقديس البشر وعبادة الصليب والتعميد ، وينتقدون التنظيم الكنسي وتزيين الكنائس ، كما كانوا يرون في النصرانية السائدة ديانة شرك ويريدون الرجوع بها إلى أصلها الصحيح ، ولهذا كانوا يمتنعون عن عبادة

(١) مذهب أهل البوسنة والهرسك في النصرانية قبل إسلامهم .

الصور ، ولا يعترفون بألوهية المسيح .

ولهذا عاش البوشناق في البوسنة عهداً جديداً ، فشيدوا المدن لأول مرة على الطابع الإسلامي ، وأهمها سرايفو ، أو بشناق سراي ، أو بوسنة سراي . وهذا الأخير هو الاسم الذي أطلقه السلطان الفاتح عليها ، نسبة إلى السراي الذي بناه ليكون مقراً للحكومة على نهر البوسنة .

ولولى أن السلطان الفاتح أذن للكاثوليك من خارج الدولة العثمانية بالقدوم لتعمير الأراضي المهجورة ، لما كان في بلاد البوشناق غير المسلمين .

ونتيجة للفتح العثماني لبلاد البوسنة وقع تحت التهديد العثماني كل من مستعمرات جمهورية البندقية ، على سواحل الأدرياتيكي ، وإيطاليا . وتولدت أيضا الحرب العثمانية - البندقية ، عند قيام التحالف المجري البندقي .

ومنذ عام ١٤٥٣م وفي خلال عشر سنوات من هذا التاريخ استطاع السلطان محمد الفاتح أن يقضي على عشر دول هي[١]:

(١) الامبراطورية البيزنطية ١٤٥٣م.

(٢) دوقية آثر - جنوة الأنزية ١٤٥٦م.

(٣) دوقية أثينا الإيطالية ١٤٥٨م.

(٤) مملكة الصرب ١٤٥٩م .

(٥) المورة ١٤٥٩م.

(٦) امبراطورية طرابزون الرومية ١٤٦١م.

(٧) إمارة جاندار أوغلو التركية ١٤٦١ - ١٤٦٢م.

(٨) إمارة الأفلاق ١٤٦٢م.

---

(١) البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة . دكتور محمد حرب . ص ٢٢ ، ٢٣ ، وانظر - دكتور على الكتاني في كتابه : المسلمون في أوربا وأمريكا -جـ ص ١١٧ - ١١٩.

(٩) دوقية جنوة مديللي ١٤٦٢م.

(١٠) مملكة البوسنة ١٤٦٣م.

أما فيما يتعلق بالهرسك فقد تم فتحها في عام ١٤٨٣م أي بعد فتح البوسنة بعشرين عاما[١]

السلطان سليمان القانوني
٩٠٠- ٩٧٢هـ، ١٤٩٥- ١٥٦٦م

تجدر الإشارة إلى أن ملك المجر (متياس كرفن) أراد انتزاع البوسنة من العثمانيين سنة ٨٦٩هـ - ١٤٦٤م فانتصر عليه العثمانيون ومزقوا جيشه . وطبق على البوسنة النظام الإداري السائد في سائر الولايات العثمانية ، ودخل في جيش الانكشارية ثلاثون ألفا من شبابها ، وأسلم أغلب أشراف أهلها ، غير أن المجر أصرت على عنادها ومقاومتها للدولة العثمانية ، وكان السلطان في ذلك الوقت هو (السلطان سليمان القانوني) . فأرسل هذه السلطان سفيراً إلى ملك المجر عام ١٥٢١م يطلب منه الالتزام بمعاهدات الصلح المعقودة مع الدولة العثمانية ، فما كان منه إلا أن أمر بقتل السفير.

فجهز السلطان جيشا ، واجتاح به بلاد الصرب ، وفتح العاصمة (بلغراد) وكان ذلك يوم الجمعة ٢٥ من رمضان . فانتهز السلطان القانوني هذه المصادفة ، فدخل إحدى الكنائس ، وأقام فيها صلاة الجمعة ، وأمر بتحويلها إلى مسجد ، فكان ذلك أول مسجد في بلغراد .

وخرج جنود المجر من بلاد الصرب ، وتوقفت الجيوش العثمانية عن الحرب على هذه الجبهة ، لانشغالها بالحرب على جبهات أخرى .

---

(١) المختار من الجوهر الأسني للخانجي . هدية مجلة الأزهر ص ٣٥ ذي الحجة ١٤١٢هـ .

وفي عام ٩٣٢هـ - ١٥٢٦م عاد السلطان سليمان بجيشه البالغ مائة ألف مقاتل وثلاثمائة سفينة لنقل الجنود عبر نهر الدانوب ، وانضم إلى هذا الجيش الحاميات العثمانية ، التي كانت مقيمة في بلاد الصرب (بلغراد) . وتم الوصول إلى (وادي موهاج - أوموهاكس) حيث دارت معركة عنيفة وقاسية انتهت بقتل (لويس) ملك المجر وتمزيق جيشه ، وأرسل أهالي عاصمة المجر (بودا) مفاتيح مدينتهم إلى السلطان سليمان ، فتوجه بجيشه إلى العاصمة المجرية ودخلها سلما ، وجمع كبار رجال المدينة ، واستشارهم في تعيين أمير ترانسلفانيا (جان زابولي) ملكا عليهم فوافقوا ، وبذلك أصبحت بلاد المجر تابعة لحماية الدولة العثمانية[1].

النمسا تطمع في بلاد المجر

تجدر الإشارة إلى أن النمسا ظلت بعيدة عن الصراع حتى تلك الفترة ، غير أن ملكها (فرديناند - أخو شارلكان) طمع في ضم بلاد المجر لملكه ، فجهز جيشاً وتوجه إلى (جانزابولي) ملك المجر ، وانتصر عليه ، فأرسل ملك المجر ليخبر السلطان سليمان العثماني بما حدث ، فقاد السلطان جيشا قوامه (٢٥٠٠٠٠) ألفا وثلاثمائة مدفع ، وسار بهذا الجيش العثماني في عام ٩٣٦ هـ - ١٥٢٩م إلى أن وصل (موهاج) وانضم إليه (جان زابولي) وسار معه إلى (بودا) وعلم ملك النمسا بهذا ، فما كان منه إلا أن هرب إلى عاصمة بلاده (ڤيينا) وانسحبت الحاميات النمساوية من بلاد المجر ثم سار السلطان العثماني سليمان القانوني مع زابولي إلى (ڤيينا) وحاصرها وقصفها بالمدافع وفتح عدداً من الثغرات في أسوارها ، غير أنه لم يتمكن من اقتحامها عام ٩٣٧ هـ - ١٥٣١م فقرر رفع الحصار والعودة إلى عاصمته ، وعاد (جان زابولي) إلى بودا.

(١) المسلمون في البوسنة والهرسك . ص ٢٥ ، ٢٦

وحاول ملك النمسا أن يستولي على المجر مرة أخرى ، ويحتل بودا بعد انسحاب العثمانيين ، إلا أنه وجد (جان زابولي) يواجهه بالحاميات العثمانية ، وحين علم السلطان سليمان بذلك قاد جيشه وعاد لفتح (ڤيينا) مجددا.

ولكنه علم أن (شارلكان - أخو فرديناند) قد أعد قوات ضخمة للدفاع عن (ڤيينا) ولما كان فصل الشتاء قد اقترب . لذلك فقد قرر السلطان سليمان عدم التعرض لعاصمة النمسا في هذه الظروف ، واكتفى بإزالة الخطر الذي كان يهدد بلاد المجر .

وحين أحس ملك النمسا بأنه عاجز عن محاربة العثمانيين ، قرر الصلح معهم واعترف لهم ببلاد المجر ، وتنازل عن (مدينة كورون ومدينة غران) الواقعة شرق ڤيينا وتم توقيع معاهدة الصلح في ٢٨ من ذي القعدة عام ٩٣٩ هـ - يونيو ١٥٣٣م .

وبهذا صارت الدولة العثمانية مركز الثقل في أوربا ، ونتيجة لذلك تم التحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا ، ضد شارلكان امبراطور الغرب وملك أسبانيا عام ٩٤٢ هـ - ١٥٣٦م.

وقد أراد السلطان سليمان من وراء هذا كله أن يرد على الفظائع التي أرتكبها شارلكان ضد مسلمي الأندلس بعد أن تم إخراج المسلمين من غرناطة عام ٨٩٧ هـ - ١٤٩١م .

بينما كان هدف ملك فرنسا (فرانسوا الأول) من وراء التحالف مع العثمانيين ، هو الانتصار بالقوات العثمانية وأساطيلهم ضد عدوه (شارلكان) .

وتجدر الملاحظة إلى أن المهادنة مع النمسا وفرنسا ، قد ضمنت الاستقرار المطلوب لبلاد الصرب والبلغار والألبان والرومان ، وأصبح باستطاعة أهالي هذه البلاد أن يتعرفوا على الإسلام والمسلمين ، من خلال تعاملهم معهم ، على أساس الشريعة الإسلامية حتى ولو بقي الحكم والإدارة في أيدي ملوكهم .

غير أن هذا الاستقرار - الذي أشرنا إليه - لم يكن ثابتا بسبب عوامل التحريض المتوافرة ضد المسلمين . وبسبب تغير الظروف . ففي عام ٩٤٧هـ - ١٥٤٠م مات (جان

زابولي) أمير المجر ، ولم يكن له إلا ولد لا يزيد عمره عن شهر ، فقامت زوجته بممارسة حق الوصاية على ابنها .

وهنا طمع ملك النمسا في المجر مرة أخرى ، فجهز جيشا سار به إلى (بيست) المقابلة لمدينة (بودا) على نهر الدانوب ، واستولى عليها ، وعلى عدد من القلاع القريبة .

وعلم السلطان سليمان بذلك فقاد جيشه قاصدا بلاد المجر ، وحين علم النمساويون بذلك رفعوا الحصار عن (بودا) فدخلها العثمانيون في احتفال كبير ، وأمر السلطان سليمان بتحويل بلاد المجر إلى ولاية عثمانية ، وحول أكبر كنائسها إلى مسجد جامع وتعهد إلى أرملة (زابولي) بتنصيب ابنها على عرش المجر عندما يبلغ الرشد .

كما استقبل السلطان سليمان أثناء وجوده في بودا ، سفارة نمساوية جاءت لعقد صلح مع الدولة العثمانية ، فاشترط عليهم السلطان - لكي يتم الصلح - أن تنسحب القوات النمساوية من كل القلاع والمدن المجرية التي احتلتها ، فرفض النمساويون هذه الشروط ، وظلت حالة الحرب قائمة ، ودارت معارك كثيرة بين الطرفين كان النصر فيها للمسلمين .

وظل الأمر هكذا إلى أن تم عقد هدنة عام ٩٥٤هـ - ١٥٤٧م لمدة خمس سنوات ثم جددت لمدة ثماني سنوات ، ومع هذا بقيت الاشتباكات بين النمسا والعثمانيين مستمرة .

والمهم في ذلك كله أن الدولة العثمانية قد أفادت من قدرتها لإقامة التوازن على الساحة الأوربية ، كوضع الحماية على بولونيا عام ٩٨٣ هـ - ١٥٧٥م لتكون إحدى القوى المضادة للنمسا وأسبانيا ، إذا استمرت النمسا في تنظيم التحالفات ، وتوجيه الحروب ضد الدولة العثمانية .

وكما حدث في سنة ١٠٠٤هـ - ١٥٩٥م . عندما اجتاحت قوات النمسا بلاد المجر، وهزمت واليها الذي هرب من بودا . كما قتلت والي البوسنة والهرسك (حسن

باشا) فتوجه الصدر الأعظم (رئيس الوزراء سنان باشا) واسترد القلاع والمدن التي احتلها النمساويون ، فما كان من ملك النمسا (رودلف الثاني) إلا أن نظم تحالفا مع العثمانيين ضد ألمانيا والفلاخ والبغدان وترانسلفانيا ، فقاد (سنان باشا) الجيش العثماني ودخل مدينة (بوخارست) عاصمة الفلاخ وأخضع قوات التحالف .

وفي السنة التالية : ١٠٠٥هـ - ١٥٩٦م . قاد السلطان العثماني محمد الثالث الجيش العثماني ، وفتح عدداً من القلاع ، ودمر جيوش المجر والنمسا تدميرا كاملاً، في معركة حاسمة قرب (موهاج) ضد التحالف الصليبي .

غير أن الأمر لم يحسم بعد واستمرت الحرب سجالا ، وكانت بلاد المجر هي أرض النزاع ، في الوقت الذي كان فيه أهل هذه البلاد بلاد المجر - يفضلون حماية المسلمين لهم ، فهم في نظرهم أفضل م حماية النمساويين الذين كانوا يسيؤن معاملتهم . وهذا هو الذي دفع أهالي المجر على انتخاب الأمير (بوسكاي) ملكا عليهم عام ١٠١٤هـ ١٦٠٥م. ووافقت الدولة العثمانية على ذلك ، وأرسلت له جيشا لدعمه ضد النمسا، مما حمل النمسا على إبرام صلح مع المجر ، في مقابل إعادة إقليم ترانسلفانيا إلى ألمانيا بالاضافة إلى شروط أخرى ، ووافق العثمانيون على هذا الصلح الذي حددت مدته مع العثمانيين بعشرين سنة [١].

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧ - ٢٩

معركة سان جوتار وبداية الصراع
١٠٧٥هـ - ١٦٦٤م

دأبت النمسا على استفزاز المسلمين بهدف استنزاف قدرتهم على أرض أوربا ، ففي سنة ١٠٧٤ هـ - ١٦٦٣م . اضطر الصدر الأعظم (كوبريل أحمد باشا) أن يجهز جيشا بقيادته ليضع به حدا لهذه الاستفزازات النمساوية ، وعبر بالجيش الإسلامي نهر الدانوب متجها نحو قلعة (نوهزل) شرق ڤيينا ، وكانت هذه القلعة حصينة لم يتمكن أحد من قبل احتلالها وتم له اقتحامها بعد حصار دام ستة أسابيع ، وكان نبأ اقتحام هذه القلعة كالصاعقة في كل أنحاء أوربا . وبخاصة عند امبراطور النمسا (ليوبولد الأول ١٦٤٠م - ١٧٠٥م) الذي علم بذلك ، وعلم أيضا أن قوات المسلمين قد اجتاحت إقليمي (مورافيا وسيليزيا) فطلب المساعدة من البابا اسكندر السابع ، ومن ملك فرنسا لوس الرابع عشر فأرسل له ملك فرنسا ستة آلاف من الجنود ، بالإضافة إلى أربعة وعشرين ألفا من حلفائه الألمان ، وانضم الجيش النمساوي لهذه القوات ، وتقابلوا مع العثمانيين المسلمين في معركة (سان جوتار) وهو اسم كنيسة كانت قريبة من المعركة ، وكان ذلك في عام ١٠٧٥هـ - ١٦٦٤م . وبعد عشرة أيام من القتال العنيف ، أمكن الوصول إلى صلح وافقت فيه الدولة العثمانية على سحب قواتها من (ترانسلفانيا) وتعيين (أبافي) حاكما عليها تحت سيادة الدولة العثمانية ، وتقسيم بلاد المجر بين النمسا والعثمانيين ، يكون للنمسا ثلاث ولايات ، وللعثمانيين أربع ولايات ، على أن يبقى حصن (توفيغراد) وحصن (نوهزل) تابعين للعثمانيين المسلمين.

التحالف المقدس وبداية التحول على أرض أوربا

ثم حدث بعد ذلك ، أن طلب زعماء الولايات المجرية التابعة للنمسا الحماية العثمانية لهم ، وذلك بسبب اضطهاد امبراطور النمسا الكاثوليكي للبروتستانيين حيث كان يقتل من كان يميل لا عتناق البروتستانتية ، فتوجه الجيش العثماني إلى بلاد النمسا وبعد اشتباكات عدة وصل المسلمون إلى (ڤيينا) وحاصروها في عام ١٠٩٥هـ - ١٦٨٣م . لمدة شهرين ، وبعدها تم استيلاؤهم على كافة القلاع الأمامية ، وتمكنوا من تدمير أسوارها بالمدافع وألغام البارود.

غير أن البابا حرض ملك بولونيا (سوبيسكي) ومنتجني (ساكس) و (بافاريا) فأسرعا بجيشيهما لإنقاذ عاصمة النمسا التي أوشكت على السقوط في أيدي المسلمين. وبعد معركة قاسية رفع المسلمون الحصار وعادوا إلى قواعدهم .

وهنا عملت النمسا على إيجاد ما أطلق عليه (التحالف المقدس) الذي ضم بولونيا والبندقية والروسيا ، علاوة على البابا ، ورهبنة مالطا (الاسبتارية) .

فكان ذلك - مع الأسف - بداية التحولات الحاسمة في الصراع على أرض أوربا صحيح أن الدولة العثمانية قد ضمنت الأمن والاستقرار ، لما أصبح يعرف باسم أوربا الوسطى ، أو (بلاد البلقان) لما قامت به من مجابهات للدول الأوربية ، المتاخمة لتلك البلاد فوق أراضيها .

إلا أن (تعاظم قدرة الامبراطورية الروسية) كان عاملاً جديداً ألقى بثقله في ميزان الصراع السياسي والديني والمسلح .

وبيان ذلك : أن روسيا كانت قد وضعت لنفسها سياسة واضحة شرعت - بمقتضاها - في التوسع بالتدريج ، وهذا التوسع كان على حساب جاراتها من الدول (السويد وبولونيا والدولة العثمانية).

برز هذا التوسع منذ أيام (بطرس الأكبر ١٠٨٣ - ١١٣٨هـ - ١٦٧٢ - ١٧٢٥م)

الذي تحالف مع النمسا - بخاصة) لاستنزاف قدرات العثمانيين من خلال الحروب معهم على جبهتين متباعدتين : جبهة روسيا ، وجبهة النمسا وأوربا الوسطى .

وتنفيذا لسياسة التوسع طرحت روسيا شعار (تحرير الأخوة السلاف)[1] وشعار (حماية الأرثوذكسية) . وتهدف روسيا من وراء ذلك استثارة شعوب البلقان ، وتحريضها ضد الدولة العثمانية الإسلامية.

إخضاع المسلمين في آسيا الوسطى نقطة البداية فيما عرف باسم الرجل المريض

بدأت روسيا تكشف عن وجهها للمسلمين ، وتعمل على تحقيق ما عجز غيرها عن تحقيقه ، فكانت نقطة البداية أن أخضعوا المسلمين في آسيا الوسطى (تتار القرم) ووصلوا إلى المياه الدافئة (البحر الأسود) وقاد بطرس جيشه عام ١١٠٧هـ - ١٦٩٥م. وحاصر مدينة (أزاق) ثم رفع حصاره عنها ، لما لقيه من مقاومة الحاميات الإسلامية .

وفي العام نفسه كانت قوات النمسا تخوض حربا شرسة على بلاد المجر ، بقيادة الأمير (أوجين دوساڤوا) . واستطاع اجتياح البوسنة والهرسك ، ولم يكتف بطرس بهذا . بل انتهزوا فرصة انشغال الجيوش العثمانية بحرب النمسا ، وعاد فهاجم مدينة (أزاق) واستولى عليها .

وهنا توسطت فرنسا لإجراء مفاوضات بين الجانبين في عام ١١١٠هـ - ١٦٩٩م فتم عقد (معاهدة كارلوفتس) وهي المدينة الكرواتية الواقعة على نهر الدانوب إلى الجنوب الغربي من زغرب . ووقع على هذه المعاهدة كل من : الدولة العثمانية ، والنمسا ، والروسيا ، والبندقية ، وبولونيا .

١- ما أشبه هذا الموقف بما تتخذه روسيا الآن في نهاية القرن العشرين من المسلمين في البوسنة والهرسك حيث تحبط كل محاولة ترى فيها مساندة للمسلمين هناك .

ومما يدعو للأسى أن الدولة العثمانية بمقتضى هذه المعاهدة ، قد تخلت عن بلاد المجر بأجمعها وإقليم ترانسلفانيا للنمسا ، وتنازلت لروسيا عن مدينة (أزاق) وأعادت مدينة (كامينك) وإقليمي (بودوليا وأوكرانيا) لمملكة بولونيا ، وعقدت اتفاقية هدنة مع النمسا لمدة خمس وعشرين سنة .

وهكذا كانت معاهدة (كارلوفتس) هي البداية لما أصبح يعرف باسم (الرجل المريض) أو (المسألة الشرقية) . التي تتلخص في تمزيق الدولة العثمانية الإسلامية . واقتسام بلادها وأقاليمها .

صحيح أن وصول أطراف هذه المعاهدة إلى هذا الهدف كان يتطلب وقتا طويلا ، لأنه إلى هذا الوقت ومع هذه الظروف القاسية ، كان لدى الدولة العثمانية من القوة ما يكفي للمحافظة على وجودها . ودليل ذلك أن قيصر روسيا (بطرس الأكبر) عندما عاد لمهاجمة الدولة العثمانية ، اصطدم بالجيش العثماني ، وعدده مائتا ألف مقاتل ، واستطاع هذا الجيش تطويق بطرس الأكبر وجيشه ، فاضطر قيصر روسيا لأن يفدي نفسه وجيشه بفدية كبيرة ، وأن يوقع على معاهدة (فلكزن) في عام ١١٢٣هـ - ١٧١١م تلك التي تعهد فيها بالجلاء عن مدينة (أزاق) وعدم التدخل في شئون القوقاز.

معاهدة (بساروڤيتش)

في عام ١١٢٩هـ - ١٧١٦م - جددت النمسا حربها مع القوات الإسلامية ، حيث قاد الأمير (أوجين) الجيش النمساوي ليستولي على بلاد الصرب ، وتقابل مع القوات الإسلامية في معركة (بتروادين - أو غروس واردين) شمال بلاد الصرب - وعلى خط مستقيم شمال بلغراد .

وانتصر أوجين على العثمانيين في هذه المعركة ، ثم استولى على طمشوار ، ومدينة بلغراد كما استولى على قسم كبير من بلاد الصرب ، وانتهت هذه المعركة

بمعاهدة (بساروڤيتش) وهي مدينة تقع جنوب بلغراد .

وقد نصت هذه المعاهدة على تنازل العثمانيين للنمسا ، عن طمشوار ، ومدينة بلغراد وما احتلته من بلاد الصرب .

وانتهزت روسيا هذه المعاهدة ، فعدلت معاهدتها السابقة مع الدولة العثمانية بحيث تسمح الدولة العثمانية للحجاج الروس بالتوجه إلى بيت المقدس ، وغيره من الأماكن والأديرة المقدسة عند الأرثوذكسيين ، بدون دفع رسوم أو ضرائب خلال مدة إقامتهم في بلاد المسلمين ، بما في ذلك رسوم جوازات السفر .

معاهدة بلغراد

١١٥٢هـ - ١٧٣٩م

وفي عام ١١٤٩هـ - ١٧٣٦م . تجددت الحرب بين الروسيا والنمسا من جهة والدولة العثمانية من جهة ثانية . حيث هاجمت روسيا بلاد القرم واحتلت مدينة (آزاق) . وفي الوقت نفسه قامت القوات النمساوية باجتياح أقاليم ولايات البوسنة والهرسك والصرب والفلاخ .

غير أن قوات العثمانيين تمكنت من إيقاف تقدم الروس ، ودمرت الجيش النمساوي ، وهنا طلبت النمسا أن تتوسط فرنسا للصلح ، وتم التوسط وأمكن الوصول إلى (معاهدة بلغراد) ١١٥٢هـ - ١٧٣٩م والتي تعد انتصارا سياسيا للدولة العثمانية ، نتيجة لانتصارهم العسكري ، حيث نصت على انسحاب قوات النمسا من بلغراد ، وبلاد الصرب والفلاخ ، وتدمير قلاع مدينة آزاق التي احتلتها القوات الروسية.

الامبراطورة الروسية كاترينا الثانية والمشروع اليوناني

حاولت روسيا بعد ذلك إشعال نار الثورة في اليونان ، ووعدت اليونانيين بالدعم تحت شعار (حماية الأرثوذكسيين) وأرسلت سفنها إلى بلاد اليونان ولكن العثمانيين

تمكنوا من إخماد الفتنة عام ١١٨٤هـ - ١٧٧٠ م فاستمرت روسيا في التحريض وأرسلت جواسيسها إلى بلاد اليونان وإلى ولايتي الفلاخ والبغدان (رومانيا) لإثارة النصارى ضد حكم المسلمين .[١]

وفي سنة ١٢٠١هـ - ١٧٨٧م قامت قيصرة روسيا (الامبراطورة كاترينا الثانية) بجولة في البلاد الجنوبية وبلاد القرم ، ونظمت احتفالات ورفعت شعار (الطريق إلى بيزنطة) وكان واضحاً أن هذه الامبراطورة تعد لشن حملة صليبية جديدة ضد المسلمين العثمانيين ، ولم تلبث الأمور أن برزت علنا عندما تحالفت هذه الامبراطورة الروسية مع النمسا ، حيث عقدت اتفاقا سريا مع (جوزيف الثاني) امبراطور النمسا بخصوص البوسنة ، ويقضي هذا الاتفاق بتطبيق الخطة المعروفة باسم (المشروع اليوناني) والخاصة بتقسيم الدولة العثمانية .

وينص هذا الاتفاق على إقامة دولة أرثوذكسية مستقلة مركبة من الأفلاق والبغدان ويسارابيا وتسمى (داتشيا) ، وتقتطع روسيا طوال الساحل الواقع بين قلعة (أوزو) ونهري بوج والدنيبر ، وتحصل النمسا على أراضي (دالماتشيا) التابعة للبنادقة ، بالإضافة إلى الصرب والبوسنة والهرسك ، على أن تعوض الدولة البندقية بمنحها شبه جزيرة المورة وجزيرة كريت ، وجزيرة قبرص .

كما نص هذا الاتفاق على أنه في حالة الاستيلاء على استانبول (القسطنطينية) ستنشيء الامبراطورية البيزنطية دولة مستقلة تماما ، ويكون حاكمها حفيد كاترينا الثانية (قسطنطين) . ولذلك أخذت الامبراطورة تعلم ولدها اللغة الرومية اليونانية وعهدت بتربيته إلى مربيات يونانيات. [٢]

لقد بات واضحاً دور روسيا في تحالفها مع النمسا ، في إعلان حرب صليبية جديدة ضد المسلمين العثمانيين ، من خلال هذا الاتفاق السري الذي تضمن لائحة من الطلبات التعجيزية والمثيرة ، والتي رفضتها الدولة العثمانية - والتي تذكرنا بحكاية الذئب والحمل - فأعلنت كل منهما الحرب على العثمانيين .

---

(١) نفس المرجع : ص٣٢ - ٣٤

(٢) البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة ص ٦١.

وهنا قامت القوات الروسية بالاستيلاء على مدينة (أوزي) بينما انطلقت القوات النمساوية محاولة الاستيلاء على مدينة (بلغراد) فصدتها القوات العثمانية ، ونجحت في هزيمتها .

فأعادت القيادة الروسية والنمساوية تنظيم قواتهما المشتركة ، وهاجما مدينة (بندر عباس) وتم لهما الاستيلاء عليها في عام ١٢٠٤هـ - ١٧٨٩م . كما احتلا معظم بلاد الفلاخ والبغدان (رومانيا) وبسارابيا وبلاد الصرب بما في ذلك بلغراد .

وخوفا من تحالف الدولة العثمانية مع الثورة الفرنسية [١]، اضطرت النمسا للجلاء عن المناطق التي قامت باحتلالها . بينما تابعت روسيا الحرب وحدها ، وتمكن القائد (سوفوروف) من الاستيلاء على مدينة إسماعيل ، حيث ارتكبت القوات الروسية في هذه المدينة أبشع الأعمال من قتل وفتك وسبي حتى للنساء ، والشيوخ والأطفال .

وهنا تدخلت بروسيا وانجلترا وهولندا لدى الطرفين المتحاربين ، لإبرام صلح - بهدف توجيه كل الجهود ضد الثورة الفرنسية - وتم عقد معاهدة (ياش - أورياسي) في عام ١٢٠٦هـ - ١٧٩٢م.

وقد نصت هذه المعاهدة على استيلاء روسيا على القرم - بصورة نهائية - وعلى بسارابيا ، والبلاد الواقعة بين نهري (بوغ ودنيستر) بحيث يكون نهر الدنيستر هو خط الحدود الفاصل بين الدولة الروسية والدولة العثمانية.

(١) تفجرت هذه الثورة في تلك السنة بموجب معاهدة ستووا . أو .ز شتوي) ١٢٠٥هـ - ١٧٩١م.

دور روسيا في تمرد الصرب على الدولة العثمانية
١٢٢٠هـ - ١٨٠٥م

إن الذي لا جدال فيه أن روسيا القيصرية ، لم تكن صادقة في طرحها لشعار (تحرير الأخوة الأسلاف) من حكم العثمانيين المسلمين ، مثل الصرب والأفلاق والبغدان (رومانيا). كما لم تكن صادقة في طرحها لشعار (حماية الارثوزكسية) كمثل دعمها لليونان والبلغار وغيرهما من الشعوب . وإنما كان هدفها الذي أوضحته الأحداث هو تدمير الدولة العثمانية ، والاستيلاء على بلادها.(١)

وقد ظهر هذا واضحاً في تمرد بلاد الصرب وثورتهم عام ١٢٢٠هـ - ١٨٠٥م . وكان قائد هذا التمرد الصربي (بازواند أوغلو) وقد قام الصربيون في هذا التمرد بمذابح وحشية ضد المسلمين - ويعزي قيام الحركة القومية الصربية إلى هذه الحادثة وكان الرأس المدبر لهذه الحركة قاطع طريق هو (تسيرني) وراعي خنازير هو (جورج بتروفيتش) ويعرف بين الأتراك باسم (فارا يوركي) وهذا الأخير طلب المساعدة من النمساويين ثم من روسيا ، على اعتبار أن الروس سلافيون . وتوسعت هذه الحركة واستفحل أمرها .

فقام والي البوسنة (أبو بكر باشا) بتسوية المسألة ، بناء على أوامر من الدولة العثمانية ، وقبض على رجال التمرد ، وأعدمهم رسميا ، وهدأت الأمور ، إلا أن روسيا قامت بتحريض سكان الجبل الأسود على التمرد ضد العثمانيين ، وحقق الثوار بعد ذلك انتصارا ، حيث احتلوا مدينة (سمندرة) وشكلوا لجنة ثورية دعت كل الصرب لحمل السلاح ضد الدولة العثمانية .

ولما كان العثمانيون يواجهون التمرد الذي استفحل خطره من جهة ، والذي تناصره القوى الأوربية الخارجية من جهة أخرى ، لذا فقد اضطروا لعقد صلح مع

---

(١) المسلمون في البوسنة والهرسك ص ٣٤ ، ٣٥

(فارايوركي) راعي الخنازير ، غير أن هذا الأخير واصل مقاومته المدعومة ، فاستولى على قلعة بلغراد ، وأدار مذبحة بشعة للمسلمين بها . مما أدى إلى أرتفاع معنويات الصرب ، فأعلنوا أنهم سيحاربون المسلمين حتى تظفر بلاد الصرب (صربستان) باستقلالها عن الدولة العثمانية.[1]

معاهدة بوخارست
١٢٢٧هـ - ١٨١٢م

تدخلت روسيا في ثورة بلاد الصرب بصورة سافرة ، فبدون إعلان حرب أرسلت قواتها إلى الأفلاق والبغدان ، وساندتها انجلترا ، فأرسلت أسطولها لتهديد الدولة العثمانية ، غير أن العثمانيين قد تمكنوا من تحصين دفاعاتهم في البوسفورد والدردنيل ، فاضطرت البحرية الانجليزية إلى الانسحاب - فوجهت القوات العثمانية جيوشها نحو بلاد الصرب لمقاومة الروس الذي نجحوا في سنة ١٨٠٩م في احتلال مدن اسماعيل وسلستره وروستجق ونيقو بوليس .

واستمرت الحرب بين الطرفين دون حسم ، حتى جاء عام ١٢٢٧هـ ١٨١٢م فاضطرت روسيا لعقد معاهدة (بوخارست) التي اعترفت فيها بأن تبقى ولايتي (الأفلاق والبغدان) تحت حكم العثمانيين ، وأن ترجع الصرب إلى طاعة الدولة العثمانية . كما احتفظت روسيا بإقليم بسارابيا وأحد مصبات الدانوب .

واعتبر الصربيون أن روسيا قد خانتهم وغدرت بهم ، بعد أن قدموا ما قدموه لها من التضحيات والأموال ، واستمروا في مقاومة العثمانيين الذين استطاعوا القضاء على ثورة الصرب ، وهرب قادتها إلى النمسا والمجر عدا (ميلوش أوبرينوفتش) الذي تظاهر بالخضوع للدولة العثمانية ، ثم غدر بها ، وأعلن الثورة عليها عام

(١) البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة ص ٦٢.

١٢٣٠هـ - ١٨١٥م وبعد سنتين من القتال اضطر ميلوش للخضوع للدولة العثمانية ، التي وافقت على منح الصرب استقلالا ذاتياً في ١٠ ربيع الأول ١٢٤٧هـ - ٢٩ أغسطس ١٨٣١م مع البقاء تحت رعاية الدولة ، وتشكيل مجلس من أثنى عشر عضوا ينتخبهم المواطنون ، وهؤلاء ينتخبون الحاكم العام ، وتم تعيين (مرعشلي باشا) واليا على الصرب ، وأعطيت له تعليمات شديدة بأن يعامل الصربيين بالرفق واللين . ثم عين (ميلوش أوبرينوفتش) رئيسا لمجلس الصرب عام ١٢٣٢هـ - ١٨١٧م وهو مجلس يشبه مجلس النواب .

ولكي يبرهن (ميلوش) على ولائه للدولة العثمانية ، اغتنم فرصة تسلل الصربي (قرة جورج) إلى بلاد الصرب في طريقه إلى اليونان للتحريض على الثورة ، وكان هذا الأخير ينافسه على الرياسة كما كان من أكبر زعماء الثورة في الصرب ، ولما فشلت الثورة لجأ إلى قيصر روسيا فأكرمه ومنحه رتبة (جنرال) ووسام (سانت أن) . اغتنم ميلوش فرصة تسلل هذا المنافس إلى بلاده فقبض عليه وقتله ، وأرسل رأسه إلى الأستانة)[1]

(١) المسلمون في البوسنة والهرسك ص ٣٦

شعار (القومية) سلاح الغرب في القضاء على الدولة العثمانية

لم تكن روسيا وحدها حريصة على تمزيق الدولة العثمانية من الداخل تحت شعار حماية الأرثوزكسية وتحرير الأخوة السلاف .

وإنما كان الغرب حليفها في هذا العداء ، متخذا شعار (القومية) سلاحا له لتحقيق الهدف ذاته . يتضح ذلك من تكاتف كل منهما على إيجاد الجمعيات والتنظيمات السرية ، داخل الولايات العثمانية ، وكانت مراكز هذه التنظيمات في كل من موسكو وڤيينا ، ومن أمثلة هذه التنظيمات السرية ، جمعية (هيتيري) التي أشعلت الحرب الصليبية ضد الحكم العثماني الإسلامي في اليونان عام ١٢٣٧هـ - ١٨٢٢م . ولكن الدولة العثمانية بالتعاون مع القوات المصرية (إبراهيم باشا) قد استطاعت أن تقضي على هذه الثورة عندما تدخلت انجلترا وفرنسا وروسيا (وهي الدول العظمى) فأرسلت أساطيلها لتقضي على الاسطول الغثماني المصري في مياه (نافاران) عام ١٢٤٣هـ - ١٨٢٧م.

وكشرت هذه الدول عن أنيابها ، وأخذت في اقتطاع الدولة العثمانية من أطرافها فبدأت فرنسا في احتلال المغرب العربي بدءاً من الجزائر عام ١٢٤٦هـ - ١٨٣٠م ، بينما تابعت روسيا حروبها ضد العثمانيين على أرض أوربا .

ولما كان المجال هنا لا يسمح باستقصاء تلك الحروب المتتالية ، بما في ذلك حرب القرم عام ١٨٥٠هـ - ١٨٥٥م وما حدث بين تلك الحروب من معاهدات ، كان كل منها يزيد من ضعف الدولة العثمانية. لما كان ذلك كذلك فإن علينا أن نتجاوز ذلك لنصل إلى الفصل الأخير والحزين من تلك الحروب التي كانت نتيجتها أن خرج المسلمون من البلقان .

ففي عام ١٢٧٩هـ - ١٨٦٢م . تمكن العثمانيون المسلمون من القضاء على ثورة الصرب والجبل الأسود ، ولكن الدول التي أعطت لنفسها حق الوصاية على الدولة

العثمانية – بحجة رعاية النصرانيين – وهم (انجلترا ، وفرنسا ، وروسيا ، وبروسيا ، والنمسا) . أعدت مذكرة خاصة ببلاد الصرب ، وقدمتها إلى الدولة العثمانية ، تقول هذه المذكرة :

(بمقتضى المعاهدات السابقة ، ومعاهدة باريس الأخيرة المؤرخة بتاريخ ٣٠ مارس ١٨٥٦م . تكون جميع بلاد الصرب مستقلة ، تحت سيادة الباب العالي ، ويكون للدولة حق في وضع حامية في ست قلاع بما فيها قلعة مدينة بلجراد عاصمة الصرب – على ألا يسكن المسلمون خارج هذه الحصون.

وينبغي هنا أن نتنبه إلى أن هذا الشرط وهو : عدم سكني المسلمين بين الصرب لم يكن مطلقاً من مطالب الصربيين . ومهما يكن من الأمر فقد منح الصرب – بمقتضى هذه المذكرة – استقلالا إداريا .

وانتهزت النمسا فرصة هذا الاستقلال ، فأخذت تحرض أهالي البوسنة والهرسك على الثورة لتتمكن من ضم هذين الإقليمين إليها[1] وكذلك اشترك معها غيرها من الدول العظمى في هذا التحريض حتى اشتعلت نار العصيان في تلك البلاد . على نحو ما سنبينه من خلال تمرد الهرسك .

الهرسك تتمرد
في عام ١٢٩٢هـ - ١٨٧٥م

يلاحظ أن فرنسا كانت قد فقدت شوكتها القديمة ، بعد الحرب الألمانية الفرنسية عام ١٨٧٠م ، في الوقت الذي بدأت فيه انجلترا تهتم بما وراء البحار ، بنفس القدر القديم ، ونظراً لما كان يوجد بين الدول الأوربية من خلافات كثيرة ، فإن هذه الدول لكي تزيل هذه الاختلافات ، وتحقق منافع مشتركة ، لذلك كانت تعقد المؤتمرات فيما

(١) نفس المرجع ص ٣٦ ، ٣٧

بينها ، ويشترك فيها أبرز الشخصيات الأوربية في ذلك الوقت ، كالأمير (بسمارك) رئيس وزراء المانيا ، والكونت اندراشي رئيس وزراء النمسا ، والأمير جورتشاكوف رئيس وزراء روسيا وهؤلاء هم الذين اشتركوا في مؤتمر (وايختار) في النمسا عام ١٨٧٥م وطرحوا فيه أهم وأخطر مسائل العصر السياسية ، وهي (المسألة الشرقية) أو (الرجل المريض).

وفي هذا المؤتمر قدم رئيس وزراء روسيا جورتشاكوف ، اقتراحا بهذا الشأن نتج عن مناقشته أن اتخذ المؤتمر قراراً وهو : عدم التدخل - من جانب دول المؤتمرين - في حركات التمرد المحتمل قيامها ، والتي يمكن أن تقوم بها العناصر النصرانية في داخل الدولة العثمانية .

ومعنى هذا : أن روسيا كانت عازمة على أن تقوم بتحريض العناصر النصرانية في داخل الدولة العثمانية ، وتدفعها إلى تمردات ضخمة ومتعددة في أوربا الشرقية التابعة للعثمانيين (إقليم الروملي العثماني) . لأنها كانت تدرك أنه في حالة قيام تمردات متعددة في هذه البلاد ، فإن الحكومة العثمانية - بظروفها الحرجة في ذلك الوقت - ستقف عاجزة أمام هذه التمردات المنظمة ، ولن تجد تأييدا أو مساعدة من الدول الغربية ، خاصة النمسا التي يعيش في إطار حدودها العديد من السلافيين ، وكانت إيطاليا تهدف أيضا إلى ضم البوسنة والهرسك إليها .

وبناء عليه : فقد قامت في روسيا جمعيات سلافية ، بهدف حث النصارى التابعين للإدارة العثمانية ، في كل من البوسنة والهرسك والجبل الأسود والصرب وبلغاريا على التمرد كما أشرنا إلى ذلك ، ولما كانت هذه الجمعيات السلافية تتمتع بحماية روسيا فقد زادت من فعالياتها في هذا المجال في ذلك الوقت . وبالفعل فإن روسيا قد قامت بإمداد المتمردين النصارى ، داخل الدولة العثمانية بالمال والسلاح والمهمات سراً.

وفي ضوء هذه الظروف المتاحة استعدت إمارتا الصرب والجبل الأسود لأداء دور دموي . هذا فيما يتعلق بدور روسيا في التمرد على العثمانيين .

أما فيما يتعلق بدور النمسا فقد قام امبراطورها بمقابلة وفد من نصارى البوسنة والهرسك - وهي منطقة عثمانية - وأعطاهم وعدا بمساعدتهم في حالة تمردهم ضد الإدارة المسلمة .

ونتيجة لهذا كله . حدث تمرد الهرسك الشهير الذي شغل جنود الدولة العثمانية كثيرا ، نظراً لأنه حدث في منطقة جبلية ، ولا ستمرار المدد الذي كان يصل إلى عناصره من الخارج ، وفي ١٣ أبريل - ٧ ربيع الأول من هذا العام عبر حدود الجبل الأسود حوالي ٣٦٠ شخصاً من نصارى قضاء نوسين ، التابع لسنجق الهرسك في ولاية البوسنة ، ولجأ هؤلاء إلى أمير نيقولا في الجبل الأسود ، وقدموا له شكوى ضد الإدارة العثمانية في بلادهم الهرسك[1] . وتقول هذه الشكوى : إن رسم (الأغنام) و(بدل الجهادية) يثقلان النصارى ، ويؤثران في أحوالهم المادية ، وأنهم يشكون من ظلم جنود الضبطية ، وأنهم يطالبون بتخفيف الضرائب عنهم ، وأن يكون جنود الضبطية من المحليين لا من العثمانيين .

فأخذ الأمير نيقولا هذه المطالب ، وقدمها إلى السفير الروسي في استانبول - وهو مشهور بمؤامراته - الذي أبلغها بدوره إلى الباب العالي ، فوعد الباب العالي بالنظر في هذه الطلبات ، وسمح لهم بالعودة إلى الهرسك . فعادوا وهم يشعرون بأنهم وجدوا لطلباتهم صدى سياسيا ، فأخذوا في الطغيان وتحريض ذويهم في الهرسك على التمرد ضد الدولة العثمانية ، وأخذوا ينفذون أول حركاتهم الدموية .

ففي يوم السبت ٥ يونيو - أول جمادي الأولى من هذه السنة ، قاموا بالاستيلاء على قافلة ، وقتلوا عدداً من الجنود كانوا فيها ، كما خطفوا المدير العثماني لقضاء نوسين . وتبع ذلك مصادمات عسكرية ، بين العثمانيين والمتمردين من نصارى الهرسك ، الذين كانت تتدفق عليهم المساعدات العسكرية من الخارج ، وأدى ذلك إلى هزائم القوات الرسمية العثمانية المحلية ، التي كان جنودها في البوسنة والهرسك قليلي العدد.

---

(١) يلاحظ أن هذه الحركة السياسية أدت إلى تمرد الهرسك بعد ذلك .

وزاد حجم الخطر لهؤلاء المتردين المدعومين من الخارج ، فامتد من (موستار) عاصمة سنجق الهرسك ، إلى أن وصل إلى الحدود النمساوية . وخشي الصدر الأعظم (أسعد باشا) من تدهور الموقف أو من تدخل الجبل الأسود وتدخل روسيا ، فأصدر أمره إلى المشير (درويش باشا) وإلى البوسنة في ذلك الوقت . وبأن يتخذ من النصح وسيلة لإنهاء التمرد ، ولما لم يجد النصح ، طالب المشير بإصدار أمر بالسماح له باستخدام القوة ، وجاءه الأمر ، وبدأت حرب طويلة ، واستغل المتمردون الوقت الذي ضاع في المراسلات بين البوسنة والهرسك واستانبول ، حتى وافقت الأخيرة على استخدام القوة ، فاستكملوا أسلحتهم وأقاموا المتاريس في الطرقات ، واستولوا على أهم النقاط العسكرية (الاستراتيجية) وزاد خطرهم ، لدرجة أنهم حاصروا قصبة (ترابين) في جنوب غرب الهرسك ، ولم يفطن الباب العالي لخطورة الأمر إلا بعد ورود أنباء هذا الحصار ، وهنا وجه قوة من ٤٢٠٠ جندي إلى الهرسك .

ويلاحظ أن عدد سكان البوسنة والهرسك في ذلك الوقت كان مليونا ومائتي ألف نسمة منهم ٥١٥ ألفا من الأرثوذكس ، ٦٨٥ ألفا من المسلمين ، وماذا يفعل هذا العدد من الجنود العثمانيين أمام هذا التمرد النصراني في البوسنة والهرسك ، والذي كان يتدفق عليه المدد المالي والعسكري ، كما كان يتدفق عليه المتطوعون النصارى بأعداد كبيرة ، من الصرب والجبل الأسود بشكل خاص . مما أدى إلى استفحال أمره بشكل سريع ومتلاحق .

وبينما كان يحدث هذا في الهرسك ، إذا بنصارى البوسنة يقومون بتمرد آخر ضد الدولة العثمانية في ١٦ أغسطس - ١٤ من رجب في العام نفسه .

ومع أن الصرب والجبل الأسود قد أعلنتا رسميا وقوفهما على الحياد ، إلا أنهما لم يتوقفا عن إمداد نصارى البوسنة والهرسك بكل ما يلزم للتمرد . وأسهما في تنظيم تدفق المعونات العسكرية والمتطوعين من جميع أنحاء أوربا للوقوف مع نصارى هذه البلاد ضد الحكم العثماني .

هذا : وتجدر الإشارة إلى أن روسيا - وهي الضلع المتين وراء هذا التمرد - أخذت

تلعب دوراً إعلاميا في الدعاية لهذه المسألة من خلال المطبوعات الأوربية ، وأكبر دليل على ذلك : أنه في الوقت الذي كان فيه المسلمون من أهل البوسنة والهرسك يذبحون وكانت الغلبة لنصارى هذه البلاد ، من خلال التأييد والدعم الشاملين من أوربا ، كانت تظهر مقالات في صحف أوربا تقول : إن الشرق الأوربي لن يستطيع الصمود أكثر من ذلك ، أمام الظلم الإسلامي والعثماني في هذه المنطقة من العالم.[١]

ومع أن الدولة العثمانية أخذت تسوق الجنود من الروملي والأناضول إلى البوسنة والهرسك ، لوقف هذا الخطر ، إلا أن التمرد قد استمر.[٢]

وفي هذه الظروف الحرجة اتصلت النمسا بكلٍ من (روسيا وألمانيا وانجلترا وفرنسا) واتفقوا على توجيه مذكرة [٣] للدولة العثمانية تقول :

«إن الدول ترغب في تشكيل لجنة من أهالي الهرسك يكون نصفها من (المسيحين) والآخر من المسلمين لحكم البلاد» ووافق السلطان عبد الحميد الثاني على ما جاء في هذ المذكرة ، وأصدر عفوا عاما عن كل من اشترك في هذا التمرد ، غير أن أهالي البوسنة والهرسك أصروا على جلاء القوات العثمانية عن بلادهم ، وأن يكون ثلث الأراضي للنصرانيين ، وأن تدفع الحكومة العثمانية تعويضا لهم عما تهدم من البيوت والكنائس أثناء الحرب . حدث هذا في الوقت الذي كانت فيه روسيا والنمسا تحرضان القوى التابعة لهما على تقديم مثل هذه الشروط .

ومن أجل ذلك استمر التوتر ، وانتقل إلى (بلغاريا) مقر جمعيات (نصرة الإخوة السلاف) والتي كانت توزع المال والسلاح سرا على النصارى وتحرضهم على العصيان وطلب الاستقلال .

وساعد على إشعال هذا التوتر ، ما أشيع من أن العثمانيين ينوون إعطاء أراضي البلغار لعائلات من الجركس . كانوا قد هربوا من حكم روسيا في القرم فأنزلتهم الدولة العثمانية في بلغاريا .

وعلى إثر ذلك وقعت بعض حركات التمرد ، وتم للقوات العثمانية إخمادها .

(١) يلاحظ أن هذه النغمة تستخدم في نهاية القرن العشرين فيما يدور في البوسنة الآن .
(٢) البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة ص ٦٤ ، ٦٥
(٣) اسم هذه المذكرة (لائحة الكونت اندراسي) وزير خارجية النمسا آنذاك .

بلغاريا تعلن الثورة على العثمانيين
في عام ١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م

أصبح الجو مهيئا لبلغاريا لكي تعلن الثورة . ففي عام ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦م . عقد فيها مؤتمر ، حضره مندوبون عن اللجان المركزية في ڤيينا وبخارست عاصمة رومانيا التي بقيت تحت السيادة العثمانية.

وفي هذا المؤتمر تقرر إعلان الثورة في بلغاريا ، وأعلنت روسيا فيه أنها على استعداد لدعم الثوار بالجيوش إذا انتصر العثمانيون عليهم ، وأنها ستدفع لهم قيمة ما يدمر من مساكنهم ومزروعاتهم وممتلكاتهم بسبب ثورتهم ، وأن تبدأ الثورة بذبح المسلمين ، وأن تشعل النار في مائة موضع في مدينة (أدرنة) وفي ستين في مدينة (فيليبه) ثم يتم الهجوم على مدينة (بازارجق) بثلاثة آلاف مقاتل ، وبعد مرور خمسة عشر يوماً من المؤتمر .

وفي أول مايو عام ١٨٧٦م اشتعلت نار الثورة في بلغاريا ، ووقعت عدة مذابح في المدن والقرى ، راح ضحيتها كثير من المسلمين العزل .

ولم يجد الوالي العثماني على تلك البلاد مفراً من أن يرسل إلى (الأستانة) يطلب الجيوش لعدم كفاية القوات الموجودة تحت قيادته، وإلى أن يأتيه المدد وزع كثيرا من الأسلحة على المسلمين للدفاع عن أنفسهم .

وجاء ت الجيوش العثمانية ، وتمكنت من إحباط الثورة البلغارية بسرعة ، مما أثار ثائرة الدول الصليبية ، فقامت بتحريض الرأي العام في بلادها ضد ما أسموه بـ (البرابرة المسلمين) ، وأرسلت المذكرات للدولة العثمانية ، في الوقت الذي قامت فيه روسيا بتحريض الصرب والجبل الأسود على إعلان الحرب على العثمانيين ، واشتعلت هذه الحرب في يوليو ١٨٧٦م وأخمدتها القوات العثمانية[1] . ومن خلال السطور التالية يتضح ما حدث في هذه الحرب .

---

(١) المسلمون في البوسنة والهرسك ص ٣٨ ، ٣٩ .

روسيا تحرض الصرب والجبل الأسود على إعلان الحرب مرة أخرى

إن دخول الصرب والجل الأسود الحرب ضد الدولة العثمانية ، وهما إمارتان خاضعتان لإدارتها - يعني تمردهما من الوجهة القانونية ، وهو تمرد تلاه إعلان الحرب على العثمانيين في يوم الأحد ٢٦ يوليو ١٨٧٦م .

حدث هذا بعد أن تتابعت سلسلة العصيان في أوربا الشرقية ضد العثمانيين بدأت بعصيان الهرسك - الذي أشرنا إليه - والذي أيدته أوربا فعليا ودعائيا ، ثم بعصيان البوسنة وبلغاريا والجبل الأسود والصرب - على نحو ما تقدم - وهذه الحرب التي أعلنها كل من الصرب والجبل الأسود في هذا التاريخ ، ليست إلا نتيجة طبيعية لعصيان نصارى الهرسك ، الذي تزايد يوما بعد يوم ، وهذا وذاك كان نتيجة طبيعية للسياسة الروسية التي انتهجتها في إثارة الجنس السلافي ضد الدولة العثمانية في كل بلاد البلقان . حيث نجحت روسيا في أن تجعل من البوسنة والهرسك أول فتيل يشتعل .

وفي ذلك الوقت قام الصدر الأعظم العثماني (رشدي باشا المترجم) بإرسال برقيتين : الأولى إلى الأمير (ميلان) أمير بلغاريا ، والثانية إلى الأمير (نيقولا) أمير الجبل الأسود ، يسألهما في لهجة شديدة عن السبب فيما يقومان به من تعبئة عامة .

وكانت إجابتهما بلهجة جعلت الصدر الأعظم يسكت عن المتابعة في البداية ، لقد قال الأمير (ميلان) في إجابته أنه سيرسل مندوبا عنه إلى استانبول ليعرض على الحكومة فيها إيضاحات للموقف . غير أنه لم يوف بما وعد ولم يرسل أحدا ، وإنما أرسل بعد مرور أربعة عشر يوما من جوابه انذارا للحكومة العثمانية اشتكى فيه من تعدى القوات غير النظامية على قرى الحدود في إمارته . كما اشتكى أمير إمارة الصرب من تجاوزات القوات غير النظامية ، ولكي يوضع حد لهذه التجاوزات ، طالب

بأن تحتل القوات الصربية البوسنة والهرسك ، وأن أمير الجبل الأسود يريد أن يحتل جزءا من سنجق الهرسك . قال هذا في الوقت الذي كانت فيه قوات الجبل الأسود قد بدأت - قبل يوم من هذا الرد - في الهجوم على الجنود العثمانيين ، وأخذ جيش الصرب يعبر نهر مورافان في يوم هذا الرد .

كانت القوات العثمانية في كل بلاد البلقان تبلغ مائة ألف ، فأرسلت الدولة العثمانية المشير (أحمد مختار باشا) قائد الهرسك إلى جهة الجبل الأسود ، وكان قائد قوات البلقان العثمانية هو (عبد الكريم نادر باشا) .

أما القوات الصربية فقد كان يقودها الجنرال الروسي المشهور (تشرنايف) ويسميه الروس (فاتح طشقند) .

واشتعلت الحرب بين القوات العثمانية وبين قوات الصرب ، والجبل الأسود والمدعومة من روسيا وكل دول أوربا . وكان النصر للعثمانيين المسلمين وأصبح الطريق مفتوحا أمام العثمانيين إلى بلغراد . وقد أدى هذا الانتصار إلى اضطراب روسيا -حامية الشعوب السلافية في أوربا الشرقية في هذا الوقت - فقامت بتوجيه إنذار شديد اللهجة إلى الباب العالي ، تطلب فيه الوقف الفوري لإطلاق النار خلال ثمان وأربعين ساعة ، وعقد هدنة بين الطرفين . وتحت ضغط الظروف التي كانت تعيشها الدولة العثمانية ، وشعورها بعداء الرأي العام الأوربي لها ، قبلت هذا الإنذار.[1] وقررت عقد مؤتمر دولي في الأستانة . للنظر في شئون النصارى في الدولة العثمانية.

---

(١) البوسنة والهرسك ص ٦٨ ، ٦٩

مؤتمر الأستانة ١٨٧٦م

هذا المؤتمر الذي قررت الدولة العثمانية عقده في الأستانة ، ضم وفود أوربا حيث حضره مندوبون عن ألمانيا وفرنسا وإيطاليا والمجر والنمسا وروسيا وانجلترا ، وكان في يوم ٢٣ ديسمبر عام ١٨٧٦م ، واستغرق تسع جلسات على مدى تسعة وعشرين يوما ، وهي المدة التي استغرقها المؤتمر منذ بدأ إلى أن انقض .

وفي يوم انعقاد المؤتمر ، أعلنت الدولة العثمانية القانون الأساسي الذي تضمن المساواة بين جميع رعايا الدولة ، بغض النظر عن دياناتهم ومذاهبهم .

غير أن ممثلي الدول العظمى في هذا المؤتمر ، أصروا على تقديم طلباتهم ، وفي مقدمتها : تقسيم بلاد البلغار إلى ولايتين يكون ولاتها من النصارى ، الأجانب أو التابعين للدولة ، وأن تشكل قوة للأمن من النصارى يكون ضباطها من النصارى والمسلمين تعينهم الدولة ، وأن تتنازل الدولة العثمانية عن بعض الأراضي للصرب والجبل الأسود ، وأن تعطي هذه الامتيازات أيضا للبوسنة والهرسك ، وأن تشكل لجنة دولية لمدة سنة لمراقبة تنفيذ الاصلاحات ، وإذا لم تقبل الدولة العثمانية بذلك أجبرتها الدول الأوربية ، وكان رد الدولة العثمانية على ذلك ، أنها أعلنت عن استعدادها لتشكيل مجالس نيابية في البوسنة والهرسك وبلغاريا ، يكون انتخابهم لمدة عام فقط، ويكون نصف أعضاء هذه المجالس من المسلمين ، والنصف الآخر من النصارى .

أما فيما يتعلق بطلبهم تشكيل (لجان دولية) فقد رفضته الدولة العثمانية بإصرار لأن ذلك يدل على عدم ثقة تلك الدول بوعود الدولة المسلمة .

كما أصرت على عدم إعطاء الصرب والجبل الأسود شيئا من أراضيها . وهنا غضب مندوبو الدول الأوربية من موقف التشدد والرفض من جانب الدولة العثمانية ، فلم يكن هذا الموقف منتظرا ، خاصة بعد اعتلاء السلطان (عبد الحميد الثاني) العرش حديثا . وانسحبوا من المؤتمر ، وعادوا إلى بلادهم ، دون أن يقابلوا سلطان الدولة العثمانية ، تعبيراً عن غضبهم من أن الدولة لم ترضخ لكلامهم . وكان ذلك

الانسحاب بمثابة تهديد وإعلان حرب من جانب هذه الدول العظمى ضد الدولة العثمانية. [1]

ولكي تجهض الدولة العثمانية ما سوف تقوم به هذه الدول التي انسحبت من مؤتمر الاستانة من تحريض خارجي ، سارعت بإبرام صلح مع إمارة (الصرب) بشرط أن ينسحب الجيش العثماني منها ، وبشرط ألا تبني الصرب قلاعاً جديدة ، وأن يرفع العلم العثماني على تلك القلاع إلى جانب العلم الصربي .

كما أخذت في إجراء اتصالات مع (الجبل الأسود) . وفي نفس الوقت كانت تقوم بحشد قواتها العسكرية لمواجهة احتمال التدخل العسكري الروسي ، الذي بات واضحاً آنذاك .

أما روسيا القيصرية فقد قامت بإرسال مذكرة إلى الدول العظمى ، لتحديد موقفها بعد أن رفضت الدولة العثمانية مقترحاتهم في مؤتمر الأستانة .

وهنا أرسلت الدولة العثمانية مذكرة لتلك الدول ، بررت فيها حسن نيتها في صلحها مع حكومة الصرب ، وأنها تبذل جهدها في الاتفاق مع الجبل الأسود ، مع أن في ذلك بعض الخسارة عليها ، لأن الجبل الأسود من الممالك العثمانية ، وأن الباب العالي إنما يفعل ذلك لينهي الخلاف في المستقبل ، كما وضحت لهذه الدول العظمى أنها أخذت فعلا في إجراء الإصلاحات التي وعدت بها بالطريقة التي تراها . لا بالطريقة التي يريدونها هم . وأن الدولة العثمانية مستعدة لأن تضع عساكرها في حالة السلم متى فعلت روسيا ذلك ، وأن المراد من حشد عساكرها إنما هو لمجرد الدفاع. وأنها ترجو ألا تصر روسيا وحدها على الظن بأن رعايا الدولة العلية من النصارى معرضون للخطر ، الذي يوجب غزو بلادها . فقد ثبت عند دول أوربا أن الاختلال الذي حدث في بعض الولايات وكدر أحوالها ، إنما نشأ عن إغواء المغوين من الخارج ، فالدولة العلية غير مسئولة عنه ولا مطالبة به ، ولا حق لدولة روسيا في تعلق صرف عساكرها على حدوث الاختلال والاضطراب .

---

(١) انظر كتاب : تاريخ الدولة العلية العثمانية . محمد فريد بك . تحقيق الدكتور إحسان حقي الطبعة الثانية بيروت - ١٩٨٣م ص ٦١٥ - ٦١٧

وانظر : المسلمون في البوسنة والهرسك ص ٣٩ ، والبوسنة والهرسك ص٧٠ ، ٧١

كان هذا هو الموقف بعد مؤتمر الأستانة . غير أنه قد وضح من خلال هذه الأحداث أن مسألة التدخل في شئون الصرب والبلغار من جانب الدول الكبرى ، لم تكن إلا ذريعة لوضع الدولة العثمانية أمام أحد أمرين : إما الاستسلام ، وإما الحرب ، وهما أمران أحلاهما مر ، ولم يكن من المتوقع في مثل تلك الظروف أن تعلن الدولة العثمانية استسلامها ، خاصة بعد أن عرفت أن كل استسلام يجر إلى استسلام أخطر[1] وأكبر .

مذكرة لندن ١٨٧٧م
ودور روسيا في إخراج المسلمين من أوربا

أخذت الأحداث تتوالى ، ولاح في الأفق أن فصلا محزنا في تاريخ المسلمين في أوربا أصبح وشيكا ، حين وضعت روسيا أساس إخراج المسلمين من تلك البلاد وقضت على وجودهم السياسي في كل دول أوربا .

بدأ هذا الفصل المحزن في تاريخ المسلمين ، حين اتفقت الدول الأوربية العظمى على توجيه مذكرة (بروتوكول) إلى الدولة العثمانية ، وهي مذكرة لندن ، وذلك في ٣١ مايو ١٨٧٧م . ولن نتعرض هنا لكل ما جاء بهذه المذكرة ، ولا للرد التفصيلي الذي أرسلته الدولة العثمانية لتلك الدول ، وإنما نذكر تلخيصا لفقرة من الرد على هذه المذكرة ، التي كانت بمثابة استفزاز للدولة المسلمة .

وملخص هذا الرد : أن الدولة العثمانية ترى إنه من الغريب أن تذكر هذه الدول في مذكرة لندن أن من مصلحتها المشتركة أن تجري الدولة العثمانية الإصلاح في البوسنة والهرسك والبلغار ، وأن تبادر بإجرائه دون إمهال - كما تم الاتفاق عليه في مؤتمر الأستانة - وأن شرف الباب العالي ومصلحته يقضيان بالاستمرار في هذا الإصلاح .

(١) المسلمون في البوسنة والهرسك ص ٤١ ، ٤٢

فـالبـاب العـالي لا يقـبل الإصـلاح المخصـوص بالولايات الثـلاث المذكـورة ، ومن مصلحته والواجب عليه ، أن يقضي حقوق رعيته من النصارى ، ولكنه لا يوافق على قـصـر الإصـلاح على النصـارى فـقط ، بل يجب أن يكون شـامـلاً لجـمـيع سكان هذه الممالك المتصفين بالولاء والطاعة للدولة العلية ، حتى يكونوا بمنزلة جسم واحد وعلى هذا :

فالباب العالي يرى من حقه دفع الأوهام التي تثيرها عبارات المذكرة ، التي توحي بقصر الإصلاح على النصارى في الولايات المذكورة ، ويعترض على عدم المبالاة – من جـانب هذه الدول – ببـاقي رعـيتـه من المسلمين وغـيـرهم ، وهو مـا يفـهم من فـحـوى عبارات المذكرة . وقصد الباب العالي اليوم هو إحداث تنظيمات مخصوصة ، يحصل بها لجميع رعاياها التأمين على حقوقهم ومنافعهم المعنوية والمادية على التساوي من دون فرق ، والدولة العلية ترى من موجبات شرفها ، أن تحافظ على القانون الأساسي – الذي سبق الاتفاق عليه – وذلك أفضل ضمان وعهد ، أما إذا رأت نفسها مضطرة إلى دفع ما يراد به إبقاء العداوة بين رعاياها ، وحملهم على عدم الثقة بها ، فليست ملزمة بتنفيذ ما نص عليه البروتوكول من قصد الإصلاح . وكيف تكون الدولة العلية ملزمة بهذا . ونص البروتوكول يقول : إن قصد الدول – الدول العظمى – أن تراقب بواسطة سفرائها وعمالها في الولايات الطريقة التي تنجز بها وعود الدولة العثمانية ويقول أيضا : إذا كان هذا الأمل يخيب مرة أخرى فإن الدول تحتفظ لنفسها أن تتخذ بالاتفاق الوسائل التي تراها أفضل وأجدى لتأمين منافع النصارى واستتباب السلم عموما . فهذا يوجب على الدولة العلية أن تقيم الحجة عليه ، وتنكره أشد الأنكار فالدولة العثمانية من حيث كونها مستقلة ، لا تقبل أن تكون تحت مراقبة الدول منفردة ، أو مجتمعة ، لأنها لما كانت علاقاتها مع الدول المتحابة مبينة على الحقوق المعارفة بين الأمم ، وعلى المعاهدات ، لم يكن لها أن تعترف أن سفراء الدول وعمالها الذين وظيفتهم الدفاع عن مصالح رعاياهم ، يكون لهم حق المراقبة على وجه رسمي . فهذا أمر مهين لها ، ولم يعهد له نظير لدى سائر الدول .

أما ما جاء في البروتوكول (مذكرة لندن) من أن الدول إذا رأت الإصلاح غير

منجز ، يكون لها أن تستخدم الوسائل الفعالة لإنجازه : فإن الدولة العلية ترى في ذلك إجحافاً بشرفها وحقوقها ، وتخويفا من شأنه أن يجرد أفعالها التي تأتيها عن قناعة ورضى ، وسببا يزيد في ارباكها في الحاضر والمستقبل .

كان هذا ملخصاً لفقرة من الرد العثماني على ما جاء في مذكرة لندن .

وواضح منه أن الدولة العثمانية رفضت بشمم مذكرة لندن . ولم يكن أمامها إلا خيار الحرب ، الذي أصبح حتميا ولا مفر منه ، وجاء دور روسيا لتلعب لعبتها، حيث استعدت للحرب ، وعقدت مع رومانيا معاهدة سرية في ١٦ إبريل ١٨٧٧م ، وبمقتضى هذه المعاهدة السرية وضعت رومانيا جميع مخازنها ومؤنها وذخائرها تحت تصرف الروسيا .

وفي يوم ٢٣ إبريل ١٨٧٧م . اجتازت القوات الروسية حدود رومانيا ، متجهة إلى بلاد الدولة العثمانية التي يفصلها نهر الدانوب عن رومانيا . فاحتجت الدولة العثمانية ضد هذا التحالف الروسي الروماني ، نظراً لأن رومانيا ظلت تابعة اسميا حتى ذلك الحين للدولة العثمانية .

وفي اليوم التالي أبلغت روسيا رسميا ، سفير الدولة العثمانية في (سانت بيتر سبورغ) إعلان الحرب . فأصدرت الدولة العثمانية أوامرها إلى جميع قادة الجيوش بملاقاة العدو ، وأصدر شيخ الإسلام فتوى بوجوب القتال على كل مسلم .

وفي هذا الجو وقفت كل دول أوربا ضد الدولة العثمانية ، أما رومانيا فقد وضعت جيشها وعدده ستون ألفا تحت تصرف القيادة الروسية .

واشتعل القتال على ضفاف نهر الدانوب ، وانتقل إلى جبال البلقان ، واحتلت القوات الروسية مدينة (ترنوه) كما احتلت مضايق البلقان المتصلة بمضيق شيبكا الشهير[١] ، كما استولت على مدينة (نيقوبوليس) وحاولت الاستيلاء على مدينة

(١) في بلغاريا وفي منتصف المسافة بين البحر الأسود ومدينة صوفيا .

(بلفنه) ولكن القوات العثمانية تمكنت من إحباط الهجوم أول مرة (يوم ٢٠ يوليو) وفي المرة الثانية (يوم ٣٠ يوليو).

واستمرت المعارك حول هذه المدينة حتى يوم (١٠ ديسمبر) حيث تمكنت القوات الروسية - الرومانية ، من الاستيلاء عليها ، بعد أن تعرضت الحامية العثمانية للفناء تقريبا ، وكان عددها خمسين ألفا ، بينما كان عدد القوات الروسية يزيد على (١٥٠) ألفا . حدث هذا في الوقت الذي كانت فيه الأعمال القتالية تدور في الأناضول ، وتمكنت القوات العثمانية من تحقيق انتصارات كبيرة فيها ، غير أن القوات الروسية قد تمكنت من الاستيلاء على مدينة (قارس) في (١٨ نوفمبر) بعد حصار طويل ، بعد أن تعرض القوات العثمانية للفناء تقريبا .

وفي هذه الأثناء ، أعلنت الصرب الحرب الدولة العثمانية (في ١٤ ديسمبر ١٨٧٧م) وأرسلت قواتها لتحارب إلى جانب روسيا ، مما زاد الموقف سوءاً .

وفي هذا الجو المتدهور ، لجأت القوات العثمانية إلى الدول الأوربية ، الست الموقعة على اتفاق باريس (١٨٥٦م) كي تتوسط لإيقاف الحرب ، خاصة وأن هذه الدول كانت قد تعهدت في هذه الاتفاقية بالتدخل ، إذا ما وقع نزاع بين روسيا والعثمانيين ، بل إن هذه الدول كانت تفرض وساطتها في كل مرة ، يكون فيها الموقف العسكري في الحرب إلى جانب الدولة العثمانية .

ولكن هذه الدول تجاهلت طلب الدولة العثمانية ، وأصبح واضحاً أنها تنتظر الهزيمة الكاملة للدولة العثمانية .

وأخذت الأعمال القتالية بين الجانبين تدور بضراوة ، وبذلت القوات العثمانية من الأعمال البطولية بمثل ما اشتهرت به عبر تاريخها المجيد ، ولكن كانت موازين القوى غير متكافئة ، وكان لابد من وضع نهاية لهذه الحرب ، بعد أن طرقت الجيوش الروسية أبواب العاصمة الإسلامية (الأستانة) . وبعد أن تعرض المسلمون في بلاد الصرب والبلغار ، إلى ما لا يمكن وصفه من أنواع الإيذاء والعدوان ، فما أن علمت جيوش هذه البلاد التي نظمتها روسيا باقتراب الجيوش الروسية ، حتى مارست أعمالها

الوحشية ضد المسلمين ، مما أظهر وجه الحقد الصليبي بصورة سافرة ، ونتيجة لهذه الوحشية ، هربت جموع كثيرة من المسلمين تزيد على مائة وخمسين ألفا ، خوفا مما كانوا يتعرضون له من القتل والسلب والاعتداء والمهانة ، وتركوا أملاكهم وأمتعتهم قاصدين مقر الخلافة الإسلامية ، حتى امتلأت بهم شوارع الآستانة مما أعجز الحكومة - في ظل الحرب - عن تأمين احتياجاتهم في ذاك الشتاء القارس ، وهنا تشكلت جمعيات قامت بجمع أموال كافية من الممالك الإسلامية لمساعدتهم ، وفي هذا الجو انتشر مرض (التيفوس) وأخذ يفتك بالكثيرين منهم .

وفي هذه الظروف القاسية ، لم تجد الدولة العثمانية إلا أن تطلب الصلح ، لتعيد توزيع هؤلاء الفارين على الولايات . وهكذا حققت روسيا هدفها ، وهو إرغام المسلمين على الهجرة من جميع البلاد التي تريد فصلها عن حكم المسلمين .

وبدأت الاتصالات لعقد هدنة بين الدولة العثمانية ودولة الروسيا ، مع مطلع العام الجديد (١٨٧٨م) وفي يوم ٣١ يناير أعلن عن اتفاق للهدنة ، وبدأت المفاوضات لتحويل الهدنة إلى معاهدة صلح .

غير أن النمسا طلبت من انجلترا عقد مؤتمر يضم الدول الموقعة على معاهدة باريس (١٨٥٦م) بهدف أن هذه الدول - وخاصة النمسا وبريطانيا - تريد المشاركة في أسلاب الحرب ومغانمها ، وألا يتركوا روسيا وحدها لكي تجني الثمار .

وبهدف استثارة الرأي العام الأوربي ، أشيع أن روسيا قد احتلت (الآستانة) وعلى الرغم من تكذيب هذه الإشاعة رسمياً ، إلا أن انحلترا أصدرت أمرها إلى أسطولها بالتوجه إلى الآستانة - بحجة حماية رعاياها - وهكذا بدأت الحكومة الإنجليزية تصعيد التوتر ضد روسيا ، واتخذت تدابير الحرب في إطار إظهار للقوة وأخذت تضغط على الدولة العثمانية حتى تنازلت لها عن جزيرة قبرص ، بموجب معاهدة تم توقيعها في ٤ يونيو ١٨٧٨م ، وتم التصديق عليها في ١ يوليو من نفس العام .

نعود فنقول : اتفقت الدولة العثمانية وروسيا ، على أن تجري مفاوضات الصلح

بينهما، في بلدة (سانت استيفانوس على بحر مرمرة) وبدأت هذه المفاوضات في ٢٤ فبراير ١٨٧٨م وبعد عدة مناقشات ، قدم (الجنرال اغناتوف) المفاوض الروسي مشروع المعاهدة ، وطلب أن يتم التصديق عليه فورا ، من أجل أن يقدم المعاهدة ، هدية لقيصر روسيا ، يوم عيد ميلاده الذي كان في يوم ٣ مارس من نفس العام . وهذه السرعة التي تم فيها توقيع المعاهدة ، لم تعط العثمانيين فرصة التدقيق في موادها التسع والعشرين .

وهذه المواد التي تضمنتها تلك المعاهدة (معاهدة سانت استيفانوس) عالجت أوضاع جميع الدول التي كانت خاضة للدولة العثمانية في (رومانيا والمجر والصرب والجبل الأسود والبوسنة والهرسك وبلغاريا) وحددت حدودها وعلاقاتها بروسيا وبالدولة العثمانية ، وكانت كلها لمصلحة روسيا .

ولا بأس من أن نقف عند المادة الحادية عشرة من هذه المعاهدة لندرك مدى البلاء الذي حل بالعثمانيين : هذه المادة كما نقلناها مترجمة تقول :

(إن المسلمين وغيرهم من أصحاب الأملاك ، إذا أرادوا الإقامة في خارج الإمارة لهم أن يحفظوا أملاكهم ويؤجروها أو يفوضوا أمر إدارتها إلى من يريدونه ، ثم إن مأمور الدولة العلية ومأمور الصقابلة - البلغار والصرب - يجتمعان تحت نظارة مأمور الروسيا ، ويفصلون المسائل المتعلقة بتصرف الأملاك ، وفي منافع مسلمي الصقالية ، وذلك يكون في ظرف سنتين . والأملاك الأميرية - أملاك الدولة - وأملاك الأوقاف يصير تعيين أمرها : إما بالبيع ، وإما باستعمالها على الوجه الذي يكون فيه النفع الزائد لجهة الباب العالي ، ويصير تعيين ذلك بمعرفة لجان مخصوصة ومحددة بالسنتين المذكورتين . والأراضي التي تبقى بدون صاحب عند انقضاء السنتين يصير طرحها في المزاد ، ويؤخذ ثمنها ، ويدفع إلى أيتام وأرامل المصابين في الأحوال الأخيرة من المسلمين والنصارى).[1]

(١) نفس المرجع ص ٤٦ - ٤٨

وهكذا حل الفصل المحزن في تاريخ المسلمين في أوربا ، حين وضعت روسيا أساس إخراجهم منها ، حيث قضت على وجودهم السياسيي ولم يبق للدولة العثمانية في أوربا إلا أربع قطع لا يمكن الوصول إلى ثلاثة منها إلا عبر البحر وهي :

مدينة الأستانة وضواحيها ، ومدينة سالونيك ، والحيت ، وهي جزيرة قريبة منها وبلاد بيروس ، وجزء من ألبانيا (الأرناؤوط) أما الرابعة : فكانت عبارة عن إقليمي البوسنة والهرسك .

أما باقي أملاك الدولة العثمانية ، فقد أخذت الصرب منه جزءا ، والجبل الأسود جزءاً آخر . وما تبقى تشكلت منه إمارة مستقلة أطلق عليها (إمارة البلغار) وتمتد من نهر الدانوب حتى البحر الأسود شرقا ، وبحر الأرخبيل جنوبا ، وتحيط بمدينة الأستانة من جميع جهاتها البرية .

وزيادة على ذلك : فقد اشترطت بقاء القوات الروسية لمدة سنتين ، للمحافظة على الأمن . وضمت روسيا إليها - في آسيا - قلاع قارس وباطوم وبايزيد حتى حدود أرضروم.

واعترفت الدولة العثمانية باستقلال كل من الصرب ، والجبل الأسود ، ورومانيا وتنازلت لمملكة رومانيا عن إقليم (الدبروجة) مقابل مسلخ إقليم بسارابيا من رومانيا ، وضمها إلى روسيا لتنظيم حدودها ، حتى يكون كل من نهري البروث والدانوب - من نقطة اتصال نهر بروث معه حتى البحر الأسود فاصلا بين رومانيا والروسيا .

والعجيب أنهم لم يراعوا في هذا التقسيم ، صالح الشعوب والأمم التي تم سلخها عن الدولة العثمانية ولا حدودها ، بل أضافوا إلى إمارة البلغار ، بلاد كثيرة أغلب سكانها من الروم والصرب ، كما أضافوا إلى الصرب والجبل الأسود بلاداً بها كثير من الألبان (الأرناؤوط) والمسلمين.

ويلاحظ أن كثيراً من أهالي هذه البلاد ، قد أظهروا تذمرهم من هذه التقسيمات وعارضتها الدول الأوربية - وبخاصة انجلترا والنمسا - فقد كانت انجلترا تريد

تعديلها لتظهر أمام مستعمراتها - وبخاصة الهند - أنها تملك قدرة أكبر من قدرة الروسيا ، التي تهدد تلك المستعمرات .

أما النمسا فكانت ترغب في الحصول من الغنيمة على إقليم البوسنة والهرسك لتتمكن بعد ذلك من الاستيلاء على ميناء (سالونيك) لحاجتها للموانيء البحرية فلم يكن لها من ميناء على البحر سوى ميناء تريستا ، الذي تدعي إيطاليا أن لها الحق قبل غيرها في الحصول عليه .

وكانت ألمانيا قد عرضت على النمسا احتلال البوسنة والهرسك ، بموافقة ضمنية من روسيا ، غير أن النمسا رفضت هذا الإحتلال ما لم توافق عليه جميع الدول ، بما في ذلك الدولة العثمانية حتى تتجنب المتاعب في المستقبل .

معاهدة برلين آخر صفحة سوداء للعثمانيين في البلقان

١٢٩٥هـ - ١٨٧٨م

في يوم السابع من مارس عام ١٨٧٨م ، عادت النمسا وطلبت عقد مؤتمر دولي في مدينة (برلين) وتحت رئاسة الأمير (بسمارك) رئيس وزراء ألمانيا ، الذي كان يدعم النمسا ، ويشجعها على احتلال البوسنة والهرسك .

غير أن انجلترا اشترطت لعقد هذا المؤتمر ، أن يعاد النظر فيما تضمنته معاهدة (سانت استيفانوس) من بنود . وعارضت روسيا هذا الشرط . وهنا بدأ التوتر على طريق الحرب بني هاتين الدولتين .

وأخذ هذا التوتر في التصاعد ، عندما نقلت انجلترا عددا من الألوية إلى جزيرة مالطا ، في الوقت الذي كانت فيه روسيا مشغولة بالقضاء على مسلمي البلغار الذين

أخذوا في الانقضاض على ما يقع تحت أيديهم من الجنود الروس ، وفي الدفاع عن أنفسهم ، ضد عدوان النصارى البلغار . وفي هذه الأثناء كان المجاهدون المسلمون يلجئون إلى الجبال كي لا يتمكن الجنود الروس من الوصول إليهم .

وقد شملت هذه الحركات الثورية ، كل إنحاء بلاد البلغار ، وحتى ضواحي صوفيا وحدود الصرب . وبعد جهود مكثفة أعلن أنه قد تم الاتفاق بين روسيا وانجلترا على التعديلات الضرورية على معاهدة (سانت استيفانوس) وكان ذلك في ٣٠ مايو ١٨٧٨م.

وبهذا أصبح الجو مهيأ لعقد (مؤتمر برلين) واجتمع مندوبو الدول الآتية : (ألمانيا والنمسا وانجلترا وفرنسا وإيطاليا والروسيا وهنغاريا وبوهيميا) مع مندوبي (الدولة العثمانية) في ٢٠ جمادى الآخرة - ١٣ يونيو من هذا العام ، ورأس المؤتمر (بسمارك) رئيس وزراء ألمانيا .

وعقدوا عشرين جلسة على مدي (٣١) يوما ، وكتبوا (معاهدة برلين) التي تكونت من (٦٤) مادة ، وتم التوقيع عليها في يوم السبت ١٣ من يوليو من نفس العام .

وقد نصت المعاهدة : على استقلال الصرب ، والجبل الأسود ، وبلغاريا ، ورومانيا ، وفي هذه المعاهدة جاء النص على أن تبقى ولاية (البوسنة والهرسك) تحت الحكم العثماني على أن تحتلها وتديرها دولة النمسا والمجر .

ومعنى هذا : ضياع البوسنة والهرسك من مجموعة الولايات العثمانية .

وفي عام ١٩٠٨م وفي الخامس من أكتوبر ، وقع (فرانسوا جوزيف) امبراطور النمسا بيانا أعلن فيه إلحاق البوسنة والهرسك ببلاده . مع أن النمسا كانت تحتل البوسنة والهرسك منذ معاهدة برلين .

وفي اليوم نفسه ، أعلن (فرديناند) أمير بلغاريا ووالي ولاية الروملي نفسه ملكا وبلاده مملكة ، وتلقب بلقب (قيصر البلغار) .

هذا : وقد تم التصديق على بيان الامبراطور النمساوي بمقتضى معاهدة عقدت في استانبول ، نصت إلى إلحاق البوسنة والهرسك بالنمسا ، وكان هذا في ٢٦ فبراير ١٩٠٩م

وفي هذا الوقت كانت (جمعية الاتحاد والترقي) هي القابضة على زمام الحكم في الدولة العثمانية ، بعد أن أسقطت هذه الجمعية (السلطان عبد الحميد الثاني) عن عرش الحكم العثماني . ومن أجل ذلك حدثت احتجاجات شعبية في استانبول تندد بإلحاق البوسنة والهرسك بالنمسا ، وترددت شائعات تقول : إن حكومة الاتحاد والترقي باعت البوسنة والهرسك للكفار[1].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا : أن نصوص معاهدة برلين كانت - في معظم الحالات - شبيهة بمعاهدة (سانت ستيفانوس). غير أنها كانت أكثر تفصيلا وأشد إجحافا وظلما بحقوق الدولة العثمانية والمسلمين . ويكفي أن نشير - كدليل على ذلك - إلى أن هذه الدول قد نصت فيها على فرض تعويضات على العثمانيين ، وتصفية أملاكهم وأوقافهم خلال عامين ، بالإضافة إلي ما فرضته روسيا على الدولة العثمانية من غرامات لتغطية نفقات الحرب .

ومما يدعو للأسف أن هذه الدول - من خلال بنود هذه المعاهدة - قد وقعت موقف الخصم والحكم في أن واحد . فأباحت لنفسها حق إخراج المسلمين من البلقان ، لأنهم يرفضون الخضوع لغير المسلمين . كما استباحت لنفسها انتهاك حق ولاية المسلمين لأنفسهم ، وفرضت نفسها وصية على الدولة العثمانية الإسلامية .

وأخيراً : فإن (معاهدة برلين) كانت الصفحة السوداء الأخيرة على أرض بلاد البلقان بالنسبة للدولة العثمانية ، فشكلت بما تضمنته من بنود صفحة محزنة في قصة علاقة المسلمين بالغرب الصليبي .

وإذا كانت (امبراطورية عموم الروسيا) و (بريطانيا العظمى) قد مارستا خلال

---

(١) البوسنة والهرسك ص ٧٢ ، ٧٣

هذه الحقبة ، أشرس أنواع الحروب ضد الشعوب الإسلامية ، وتمكنت من القضاء على الوجـود السـيـاسي الإسـلامي في أوربا بمعـاهدة برلين ١٨٧٨م - كـمـثل مـا فـعله الصليبيون عندما أخرجوا المسلمين من الأندلس ومن غرناطة عام ١٤٩١م - لئن كانوا قد تمكنوا من ذلك في هذه الحقبة ، فأين هم الآن على الساحة الدولية ؟.

لقد زالت امبراطورية بريطانيا ، وتمزقت ، كما زالت امبراطورية الروسيا[1] وهوت كما يهوى عود الخشب الذي نخره السوس .

أما المسلمون : فـمازالوا باقين إلى يومنا هذا ، وإلى أن تقوم السـاعة ، يرفـعون راية الحق مـجاهدين بقدر طاقتـهم ، والله ناصرهم (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

(١) المسلمون في البوسنة والهرسك ص ٥١ ، ٥٢

مدة الحكم الإسلامي في أوربا الشرقية

ولا يفوتنا - ونحن نطوي هذه الحقبة من صفحات الحكم الإسلامي في أوربا الشرقية ، بحلوها ومرها - أن نذكر هنا مدة هذا الحكم في هذه البلاد على النحو التالي :

لقد ظل الحكم العثماني الإسلامي في البوسنة والهرسك :	٤١٥ سنة
وفي بلاد الصرب (صربيا) :	٣٨٠ سنة
وفي بلاد الجبل الأسود :	٤٢٠ سنة
وفي قوصوه (كوسوفا) :	٤٣٠ سنة
وفي مقدونيا :	٥٤٧ سنة

حادثة سرايیفو اشعلت الحرب العالمية الأولى

لا يفوتنا أن نشير إلى أنه في يوم الأحد ٢٨ من يونيو ١٩١٤م وقعت حادثة في (سرايیفو) أطلق عليها الصرب (جناية سرايیفو).

وظروف هذه الحادثة أن بلاد البلقان كانت قد خرجت من نطاق الحكم العثماني - كما أشرنا - وتهيأ الجو لظهور فكرة (الصرب الكبرى) وهو مبدأ قومي متعصب يهدف إلى إقامة امبراطورية للصرب ، تقوم على مبدأ إحياء (امبراطورية دوشان الصربية).

وكان القوميون الصرب يحقدون على النمسا ، التي حالت دون تكوين دولتهم الكبرى التي يحلمون بها . فانتهزوا فرصة زيارة ولي عهد النمسا (فرانسوا فرديناند)

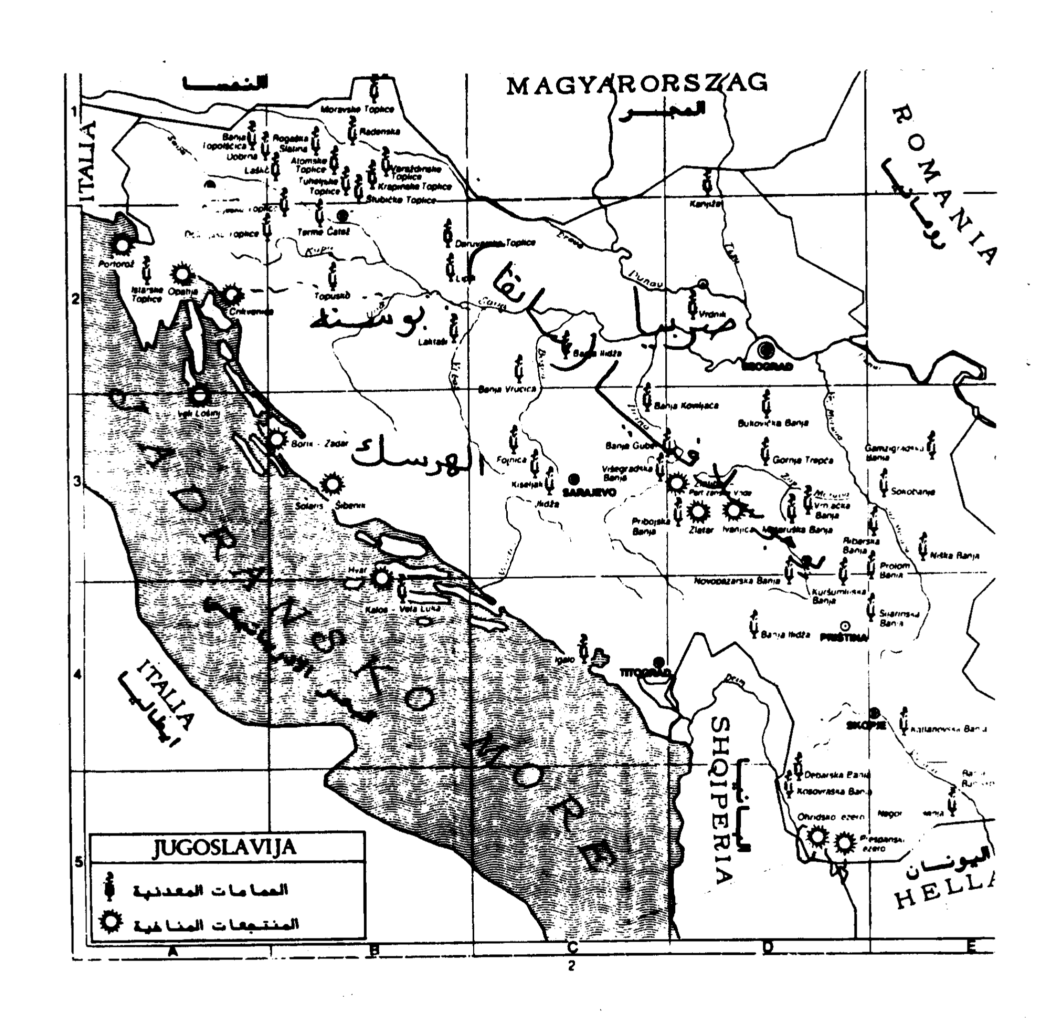
إلى سرايـيـفـو ، والقـوا عليـه قنبلة ، ولكنهـا لم تصبـه وأصابت آخرين غيـره ، فـدبر المتآمرون الصرب طريقة أخرى لقتله ، حين انتهزوا فرصة خروج ولي العهد في نفس اليـــوم من دائرة بلدية المدينة لزيارة المصـــابين في حـــادثة القنبلة ، وأثناء ذهابه إلى المستـشفى ، قام طالب صربي في المدرسة الثانوية ، كان عضو جمعيـة اليد السوداء الصربية ، ويدعى (جافير يللو برينسيب) بإطلاق الرصاص عليه فقتله وزوجته .

وهذه الحـادثة اشـعلت الحـرب العـالميـة الأولى ، التي اشـتـرك فـيـهـا ثلاثون دولة وأحالت العالم إلى جحيم .[1]

(١) انظر : البوسنة والهرسك ص ٧٣ ، ٧٤
وانظر المسلمون في أوربا وأمريكا . على الكتاني جـ١ . ص ١٢٠.

الفصل الثاني

(فصل محزن في تاريخ المسلمين)



خريطة موضح عليها موقع البوسنه والهرسك

قيام دولة يوغسلافيا عام ١٩٢٩م

ظهرت يوغسلافيا كدولة ضمن التقسيم السياسي لأوربا ، في عام ١٩٢٩م، وذلك بعد استقلالها عام ١٩١٨م .

وبرغم أنها تقع في وسط أوربا ، إلا أنها تعتبر من دول أوربا الشرقية ، ويحدها من الشرق : رومانيا وبلغاريا . ومن الشمال : المجر والنمسا . وفي الجنوب : يقع إقيم مقدونيا المستقل ، ثم اليونان وألبانيا ، وفي الغرب : يوجد بحر الأدرياتيكي بجزره العديدة المتناثرة ، وهو يفصل يوغسلافيا عن إيطاليا ، وكان شاطيء الأدرياتيكي الممتد من أقصى الشمال إلى الجنوب يسمى شاطىء (ألماتيا) .

وهذا الموقع الاستراتيجي الممتاز ليوغسلافيا ، جعلها دولة فاصلة بين بلدان أوربا الشرقية والغربية ، كما جعلها قريبة من البحر المتوسط ، الذي، يفصل أوربا عن أفريقيا ، وذلك من خلال سواحلها الطويلة على الأدرياتيكي ، ولذا فهي تتمتع بطبيعة تضاريس غنية ، تشمل جبال الألب الدينارية ، وسهول نهر سافا ونهر مورافا ، وفروع الدانوب ونهر فارادار . وأبرز موانيها على الأدرياتيكي ميناء (سبلت) وميناء (ربيكسا) .

وتبلغ مساحتها (٢٥٥٨٠٤) كيلو مترا مربعاً ، وكان عدد سكانها وقت استقلالها (٢٠) مليون نسمة ، أما اليوم فقد وصلوا إلى (٢٥) مليونا .

وعاصمتها الاتحادية (بلجراد) وهي في الجزء الشمالي منها عند ملتقى أنهار سافا ومورافا وفروع الدانوب ونهر تيزا القادم من المجر .

هذا : وبيوغسلافيا ثروات طبيعية ، حيث تختزن ثروات كبيرة معدنية وبترولية بجانب إمكاناتها الزراعية والحيوانية الواسعة ، كما أصبح لها قدرات صناعية كثيرة ومتنوعة ، وقد حققت - في أنحاء كثيرة منها - نهضة عمرانية كبيرة . كما أمكنها - بفضل الطاقات البشرية - إقامت مزارع خصبة ، ومراع واسعة ، وغابات شاسعة ومناطق وجزر سياحية عديدة .

ومن أهم محاصيلها : القمح والقطن والدخان (الطباق) والزيتون والفاكهة ومن أهم معادنها : الحديد والبوكسيت والرصاص . ومن أهم صناعاتها : الحديد والألومنيوم والرصاص والسجائر والأخشاب والورق والسكر والسجاد ، إلى جانب الصناعات الميكانيكية والإليكترونية وتكرير البترول .

أما فيما يتعلق بالأديان السائدة في يوغسلافيا فهي : الإسلام ، والأرثوذكسية الشرقية ، والكاثوليكية الرومانية .

هذا وتجدر الإشارة إلى أن يوغسلافيا كانت تحت الحكم الشيوعي السابق للرئيس (جوزيف بروزتيتو) تتكون من ست جمهوريات هي (صربيا - كرواتيا - سلوفينيا - البوسنة والهرسك - مقدونيا - الجبل الأسود)

وكانت صربيا تضم منطقتين تتمتعان بالحكم الذاتي هما : كوزوفو التي يسكنها أغلبية البانية مسلمة ، وفوجفودينا التي يسكنها أغلبية مجرية .

وسوف نتناول هذه الأقاليم بما يلقي الضوء عليها .

أما فيما يتعلق بإقليم الصرب : فيبلغ عدد سكانه - بدون إقليمي كوسوفو وفوجفودينا - (٨٫٧٥٤) مليون نسمة ، ويعتبر هذا الإقليم أكبر القوميات والجمهوريات اليوغسلافية ، حيث يمثل (٤٢٪) من مساحة يوغسلافيا ، وعاصمته بلجراد ، وينتمي شعب هذا الإقليم إلى العرق السلافي ، ويدين بالأرثوذكسية ويشترك مع جمهورية صربيا في هذه الأصول ، جمهورية الجبل الأسود ، وصرب فوجفودينا ، وصرب البوسنة ، وصرب مقدونيا ، ويتحدث سكانه اللغة الصرب - كرواتيه - وكما سبق - فقد شهدت تلك المنطقة من أوربا تاريخا طويلا من الصراعات الدامية ، والحروب القاسية ، لأهمية موقعها الاستراتيجي في البلقان من أوربا، حيث تنازعتها أيدي القياصرة والأباطرة والملوك والسلاطين . ومازالت - كما نشاهد - مطمعا للكثيرين ، ومصدر خوف على استقرار أوربا وأمنها ، وذلك لتعدد القوميات والأديان فيها .

وكان يطلق على هذا الجزء من العالم قديما (صربيا) حيث بدأ ظهور الصرب

كجماعات مدنية منظمة ، في أواخر القرن الثالث الميلادي ، في إمارات متناثرة يحكمها أمراء.[1]

وفي نهاية القرن التاسع الميلادي ، وقعت بعض مقاطعاتها تحت سيطرة الدولة البيزنطية ، وبدخول أمراء الصرب في النصرانية عام ٨٧٥ م خضعت تلك المناطق لسيطرة البلغار والبيزنطيين ، حيث استمر خضوع الصرب لنفوذ البلغار ، حوالي خمسة قرون . وفي القرن الرابع عشر الميلادي ، تمكنوا من التمرد واستقلوا عن بلغاريا.

وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر بلغت الصرب ذروة قوتها ، حيث تمكن زعيمها (إيستن الحادي عشر) من غزو كل من مقدونيا وألبانيا وأبيريا وتسالي ، وتم تتويجه امبراطورا قيصرا على كل من الصرب واليونان عام ١٣٤٦م . غير أن هذه الامبراطورية سرعان ما تفككت وانهارت بعد موته بسبب تنازع خلفائه .

ثم دخلت بعد ذلك صربيا الوسطى تحت سيطرة العثمانيين عقب هزيمة الصرب في معركة (كوزوفو) عام ١٣٨٩م . وفي القرن التالي مباشرة استكمل العثمانيون سيطرتهم على كل مقاطعات الصرب ، وكانت معظم منطقة البلقان - كما سبقت الإشارة إليه - من نصيب الامبراطورية العثمانية ، عندما اقتسمت المنطقة بين القوى العظمى في النظام الأوربي القديم ما قبل الرأسمالي ، (مثل المملكة النمساوية - المجرية ، الامبراطورية العثمانية) .

وكما سبق . حاول الصربيون مقاومة الحكم العثماني عدة مرات ، ولكنهم فشلوا في ذلك ، وهرب الكثير من المتمردين إلى المجر والنمسا وروسيا ، واستمرت هذه المحاولات التي استهدفت استقلال الصرب تتكرر ، خاصة في أوائل القرن التاسع عشر.

---

(١) من وراء ضباع البوسنة ص١٧-١٩

وقد أدى تمرد الشعوب البلقانية ضد الحكم العثماني - يساندها في هذا التمرد الدول الأوربية العظمى وخاصة بريطانيا - إلى قيام دولتي الصرب والجبل الأسود . ثم أصبحت بلاد الصرب بعد ذلك بمثابة النواة التي تبلور حولها ما يعرف بيوغسلافيا الحديثة . وذلك عبر تحرير جميع الصرب ، الذين يعيشون خارج حدود صربيا الصغرى بما في ذلك الصرب المسلمون المقيمون في البوسنة ، وأيضا الكروات السلوفونيون الذين جرى ضمهم في سباق التوسع النمساوي - المجري .

وترجع سلسلة المآسي التي تعرضت لها منطقة البلقان والشرق الأوسط - في جانب منها - إلى ما جرى في ثمانينات القرن التاسع عشر ، حينما نجح بعض رجال الأعمال الألمان ، في الحصول على موافقة الخليفة العثماني في عام ١٨٨٩م لبناء خط حديدي من برلين عبر استانبول إلى الأناضول ، وبعد عشر سنوات من هذا الاتفاق -الذي باركه القيصر الألماني عند زيارته لاستانبول في نفس العام - مضت الخطوات العملية لتنفيذ هذا الخط ، الذي يمتد من برلين إلى استانبول حتى يصل إلى بغداد . وكان ذلك إيذانا بفتح أبواب البلقان والشرق الأوسط أمام المنتجات الألمانية ، واعتبر خط السكة الحديد المرتقب بمثابة جسر يربط عمق أوربا الصناعية بعمق القارة الأسيوية.

غير أن بريطانيا اعتبرت طموح ألمانيا تهديداً خطيراً لمصالحها ، في الشرق الأوسط والهند ، وهنا توصل راسمو السياسة البريطانية إلى خطة تقطع الطريق على الطموح الألماني ، ألا وهي دولة صربيا التي يرشحها موقعها الجغرافي لقطع الطريق على ألمانيا . والتي اعتبرها اللورد البريطاني ر.ج. لامان (حارسة البوابة الشرقية) حيث كان يعمل مستشارا للجيش الصربي ، أثناء الحروب الصربية - العثمانية عام ١٩١٧م - وله كتاب (الصرب حراس البوابة) - ومن هنا فقد كان لبريطانيا دور رئيسي في إشعال حروب البلقان لإفشال خط سكة حديد برلين - بغداد ، وإحباط الطموحات الألمانية في الشرق الأوسط ، لتحتفظ بمصالحها البريطانية في المنطقة الممتدة من العالم العربي إلى الهند .

وهكذا كانت صربيا عاملا هاما بالنسبة لبريطانيا ، حيث اعتبرتها إحدى ركائز

مخططها في حصار ألمانيا ، وظلت تعد في نظر الاستراتيجية البريطانية (حارس بوابتها إلى عالم الشرق) .

وبعد ضعف الدولة العثمانية ، ومغادرة العثمانيين لمناطق البلقان عام ١٩١٢م -١٩١٣م ، كانت الصرب قد تحالفت مع روسيا ، وفقاً لمعاهدة سرية بينهما عام ١٩١٢م ثم تعرضت صربيا بعد ذلك لهجوم من جانب النمسا وبلغاريا معاً ، وقاومت مقاومة عنيفة عام ١٩١٥م ، إلى أن أعلنت استقلالها بكل مقاطعاتها عام ١٩١٨م .

وكانت الحرب العالمية الأولى فرصة مناسبة ، لتحقيق هدف توحيد أقاليم ما عرف بيوغسلافيا بعد ذلك . إلا أن الصرب في هذه الفترة وبعد رحيل العثمانيين لم تهدأ بل عملت على توسيع أراضيها ، فضاعفت تقريبا من مساحتها على حساب باقي الأقاليم ، خاصة البوسنة والهرسك وكرواتيا ، وفي عام ١٩٢٩م اتخذت لنفسها - كما قلنا - اسم يوغسلافيا ، وهذا الاسم كان يطلق على قبائل تلك المنطقة في القرن الخامس قبل الميلاد .

ولم يرض الانفصاليون الصرب عن توحيد أقاليم يوغسلافيا ، في مملكة واحدة تحت حكم الملك الصربي (الكسندر الأول) بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، فقاموا باغتياله عام ١٩٣٤م . أثناء زيارته لمدينة مرسيليا الفرنسية . فخلفه (بطرس كارديوردفيتش) وكان ذلك عشية وقوع الحرب العالمية الثانية .

وعندما نشبت هذه الحرب ، أحتل الألمان النازيون يوغسلافيا عام ١٩٤١م. واستمرت تحت الحكم النازي حتى تحررت في عام ١٩٤٥م . وأعلن استقلالها كجمهورية شعبية فيدرالية عام ١٩٤٦م[١] . هذا فيما يتعلق بإقليم الصرب .

أما فيما يتعلق بإقليم كرواتيا : فإن الكروات يسكنون المناطق الشمالية من يوغسلافيا - ومنذ القدم كانوا يكونون مع الصرب مجموعة واحدة إلا أنهم انقسموا طائفيا عن الصرب الأرثوذكسي ، ليكونوا طائفة الكروات الكاثوليك وهم يقطنون

---

(١) من وراء ضياع البوسنة ص١٧ - ٢١

الأجزاء العليا من وادي نهر دراف ، ونهر الساف ، والتي عرفت بعد ذلك بجمهورية كرواتيا ضمن الاتحاد اليوغسلافي السابق .

وعدد سكان هذا الإقليم (٥ر٦٦٧) مليون نسمة ، منهم (٦٠٠ ألف نسمة) أقلية صربية بنسبة (١٢٪) من السكان ، يتركزون في إقليم كرايينا في الجنوب الغربي وسلافونيا قرب الحدود مع جمهورية صربيا ، وهي التي قاومت الاتجاه الاستقلالي لكرواتيا ، وتشكل المناطق الصربية - ومعظمها ريفي - من ٢٥٪ إلى ٣٠٪ من مساحة كرواتيا وعاصمتها (زغرب).

وتعتبر كرواتيا من أكثر جمهوريات يوغسلافيا نموا وتقدماً صناعياً واقتصادياً وقد نشأ العداء بين الكروات والصرب في القرن التاسع ، عندما تحول الكروات إلى الكاثوليكية ، حيث كان - ولا يزال - الصرب يدينون بالأرثوذوكسية ، بينما يعد شعب كرواتيا أكثر التصاقاً وارتباطاً بالامبراطورية الرومانية .

وقد خضعت كرواتيا تحت نظام الحكم الملكي لمن حولها من دول كبرى ، خاصة ألمانيا والمجر ، وظلت الأخيرة تسيطر عليها قرابة ثمانية قرون ، تحت تاج القديس(اتسن) إلا أن كرواتيا احتفظت باستقلال شكلي ، يتمثل في رفع علمها الخاص ومجلسها التشريعي ، وفي عام ١٥٢٦م وقع جزء كبير منها تحت سيطرة الدولة العثمانية ، وفي عام ١٨٠٥م أخضع نابليون امبراطور فرنسا مناطق كرواتيا وسلوفينيا لإمرته ، ثم خسرها في عام ١٨١٣م.

وفي عام ١٨٤٨م . ومع هيمنة الروح الكاثوليكية ، انضمت كرواتيا إلى المجر. حيث حكمتها أسرة هابسبورج الكاثوليكية . وعندما قام نظام الحكم المزدوج النمسا - المجر عام ١٨٦٦م حصل الكروات على نوع من الحكم الذاتي وحق استخدام لغتهم الكرواتية .

ثم انضمت كرواتيا إلى الصرب وسلوفينيا ، وكونوا دولة مستقلة عام ١٩١٨م عرفت بعد ذلك باسم يوغسلافيا في عام ١٩٢٩م . وبدأت الاضطرابات تسود كرواتيا نظراً لرغبة الكروات في الاحتفاظ بهويتهم القومية ، وشكلوا لذلك حزب الفلاحين بقيادة (ايستن راديتش).

وفي السادس من يناير ١٩٢٩م أوقف الملك الكسندر العمل بالدستور ، وأعلن الحكم الديكتاتوري ، إلا أن الاضطرابات استمرت حتى قتل هو وزوجته عام ١٩٣٤م وقبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ، حصل الكروات على مطلبهم في الحكم الذاتي لقسم كبير من أراضيهم .

وفي الفترة من عام ١٩٤٢ إلى ١٩٤٥م . وضعت كرواتيا تحت سيطرة النازيين الألمان ، والفاشيت الطليان . حتى تحررت بعد الحرب . وأصبحت إحدى جمهوريات يوغسلافيا[١] كان هذا فيما يتعلق بإقليم كروايتا .

أما فيما يتعلق بالبوسنة والهرسك : فهي إحدى جمهوريات يوغسلافيا الاتحادية السابقة . قبل تفككها عام ١٩٨٩م . وهي في وسط يوغسلافيا ومساحتها ٥١١٢٩ كيلو مترا ويقطنها حوالي (٤٢٩ر٥ مليون) نسمة . معظمهم من المسلمين ، وعاصمتها (سرايبفوا).

والبوسنة بلاد واسعة تقع في الشمالي الغربي من شبه جزيرة البلقان . وهي من دول أوربا الشرقية . وقد سميت (البوسنة) باسم نهر يجري فيها . ويحدها الآن من الجانب الشمالي :(نهر صاوة) ومن الجانب الشرقي (نهر درينا) ومن الجانب الغربي: (بلاد دلماسيا) . ومن الجانب الجنوبي : (الهرسك).

وقد كانت حدودها في الزمان السابق في اصطلاح الترك أوسع مما ذكرنا حتى نهاية القرن ١٩.

أما الهرسك : فتقع في الجهة الجنوبية من البوسنة ، وتلحق بها ، ويحد الهرسك من الجانب الشرقي والجنوبي (بلاد الجبل الأسود) ومن الجانب الغربي بلاد (دالماسيا) وإذا أطلق اسم البوسنة شمل بلاد الهرسك أيضاً.

وأكثر بلادها جبلية والسهول فيها قليلة ، وأنهارها كثيرة جداً ، ينفجر في كل

---

(١) نفس المصدر ص ٢١ ، ٢٢

جهة من جهاتها عيون الماء العذب ، وزرعها يسقى بالأمطار ، وفيها فواكه كثيرة متنوعة ، وهواؤها صحي صيفا وشتاء ، وعندما يأتي الشتاء تغطي أرضها الثلوج البيضاء.[1]

هذا : والمسلمون في تلك البلاد يتكلمون اللغة (الإسلاوية) كجيرانهم من أبناء جنسهم (الصرب) و (الكروات) وغيرهم ، ولغتهم غير بعيدة من اللغة الروسية لأن أصلها واحد ، وهي اللغة الأسلاوية القديمة ، وللمسلمين هناك ألفاظ كثيرة تركية وعربية دخلت إليهم بدخول الإسلام .

أما كتابتهم : فلهم - كما لغيرهم من أبناء جنسهم - كتابتان : كتابة بالحروف اللاتينية ، وكتابة مأخوذة من الحروف اليونانية القديمة . وللمسلمين خاصة كتابة بالحروف العربية اصطلحوا فيها على اصطلاحات توافق لغتهم ، وهذه الكتابة قديمة بينهم ، وضعها قدماء علمائهم ، ولكن لم تكن منتشرة ، كما انتشرت في الأزمنة الأخيرة ، ولها فوائد جمة ، منها :

أن الولد يتقن الكتابة العربية وحروفها ، فيسهل عليه بعد ذلك تعلم قراءة القرآن ولغته ، ومن هذه الفوائد ، نشر كتب الفقه والعقائد وغير ذلك بها ، وقد جرى على ذلك مسلمو تلك البلاد . فطبعوا في (مطبعة المسلمين) الخاصة بهم كتبا كثيرة متعلقة بمسائل الدين .

ومذهب المسلمين في البوسنة والهرسك : هو مذهب أبي حنيفة - رضي الله عنه في الفروع ، ولا يوجد فيهم من انتسب إلى مذهب غيره ، وأما مذهبهم في الأصول فمذهب أبي منصور الماتريدي - رحمه الله تعالى .

والمسلمون في تلك البلاد يسعون لحفظ القرآن ، فنجد كثيراً من أولادهم الصغار - على بعدهم من اللغة العربية ، وصعوبة منالها عليهم ، وعدم اعتيادهم على مخارج حروفها - حافظين للقرآن الكريم .[2]

(١) المختار من الجوهر الأسنى ص ٢٩
(٢) نفس المصدر : ص ٤٧ ، ٤٨

وأما خصال المسلمين في تلك البلاد : فمن خصالهم : الحب لسائر المسلمين حبا بالغاً ، واعتقادهم أن كل مسلم - وإن نأت به البلاد - أخ لهم ، وهذا هو قانون الإسلام : (إنما المؤمنون إخوة) ، وقال ﷺ فيما صح عنه : (المسلم أخو المسلم ...) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد .

هذا : ولكل جمعية - أين كانت ومتى كانت - رابطة ، ورابطة المسلمين هي الرابطة الإسلامية وحدها ، فلا يعرف الإسلام قومية ولا عصبية جاهلية ، وكل جمعية إذا ضاعت روابطها فالهلاك مصيرها . والمسلم - إذا لم يستمر على الإسلام - فوجوده وعدمه سواء . وقد نهى رسول الله ﷺ عن الدعوة إلى العصبية . ففي الحديث الصحيح الذي أخرجه أبو داود في (السنن) عن جبير بن مطعم عن رسول الله ﷺ : (ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية) .

ومن خصالهم : سلامة عقائدهم من الخرافات والأمور الجاهلية ، وقد رأينا كثيراً من المسلمين في البلاد الإسلامية المحضة غلبت عليهم الخرافات ، ويظنون فيمن خالفها أنه ملحد وزنديق .

ومن خصالهم : احتفاظهم بعادات المسلمين في الزي وغيره ، وإقامة الفرق بينهم وبين الكفار ، فلذلك تجد أكثرهم يلبسون العمائم ، ومن لم يكن متعمما فليلبس الطربوش ، ونساؤهم محتجبات محتشمات ، إلا التي اتبعت الشيطان ، وانجرت وراء المفسدين ، وقد وجد بينهم قوم من مبتغى الفساد ، ومقلدي أعداء الدين ، فسعوا إلى العمل على هدم هذه العادات الإسلامية ، وأعانهم بعض الجهال المنتسبين إلى العلم ، ولكن الله تعالى رد كيدهم في نحورهم وهو القوي العزيز.[1]

وأما فيما يتعلق بالمحاصيل : فأبرز محاصيلها : القمح والذرة ، وفي المرتفعات والغابات يمارس السكان الرعي وقطع الأخشاب ، وتختزن أراضي البوسنة معادن

---

(١) نفس المصدر : ص ٤٥ ، ٤٦

متنوعة منها : الحديد والفضة والرصاص والفحم .. ، وعلى رأس الصناعات المتواجدة في البوسنة والهرسك ، الحديد والصلب والتعدين والنسيج والورق والأخشاب والمواد الغذائية وبخاصة الألبان واللحوم .

هذا : واسم البوسنة أو (بوسنيا) مأخوذ من أحد فروع نهر (الساف) حين استقرت على ضفتيه في القرن السابع الميلادي ، قبائل اعتبرت في عداد السلافيين وضمتهم إمارة خاصة بهم ، وقد اقتطعت بلغاريا جزءاً من أراضي البوسنة الشرقية ووضعت الجزء الباقي تحت حمايتها ، إلى أن استقلت البوسنة كولاية يحكمها أمير تحت وصاية ملك المجر ، ثم حصلت بعد ذلك على استقلال كامل في القرن الرابع عشر على يد (اتسين الثاني كوترومانيش) الذي خلفه ابن أخيه وأعلن نفسه ملكا على البوسنة والصرب ، ثم تدهورت الأوضاع بعد ذلك ، نتيجة للصراعات الداخلية إلى أن فتحها السلطان العثماني محمد الثاني عام ١٤٦٣م.

هذا فيما يتعلق بالبوسنة والهرسك .

أما فيما يتعلق بجمهورية الجبل الأسود : فيبلغ عدد سكانها (٨٠٠ ألف) نسمة يشكل المسلمون منهم (٢٣٫٣٪) . وعاصمتها : تيتو جراد . ويدين سكانها بالأرثوذكسية وتشترك مع الصرب بدرجات مختلفة في التأثر بالثقافة والحضارة البيزنطية .

وفيما يتعلق بجمهورية سلوفينيا : فهي تقع في الشمال الغربي من يوغسلافيا وعدد سكانها (٢٫١١٥ مليون) نسمة ، وعاصمتها : لوبليانا . ويعتبر شعبها أكثر التصاقا بالامبراطورية الرومانية أو الجرمانية ، ويدين سكانها بالكاثوليكية ، واللغة السلوفينية أصلية فيها ، وهي جمهورية صغيرة ، لها حدود مع النمسا وإيطاليا والمجر ، وتسعى لتوثيق روابطها مع دول غرب أوربا ، وتعد أكثر الجمهوريات تماسكا وانسجاما في نسيجها الاجتماعي والقومي .

وفيما يتعلق بإقليم فوجفودينا : فيقع في الشمال على الحدود مع المجر ، واجمالي عدد سكانه (٢٫١٥ مليون) نسمة ، أغلبيته مجرية ، ويشكل الصرب ثلث سكانه ، وكان يتمتع في زمن تيتو بالحكم الذاتي ، ولكن الصرب فرضوا سيطرتهم عليه بعد تفكك يوغسلافيا.[1]

(٢) انظر : من وراء ضياع البوسنة ص ٢٣ - ٢٥

الفصل الثالث

حاضر المسلمين في البوسنة والهرسك

البوسنة والهرسك منذ قيام يوغسلافيا إلى الآن

بعد هذا التعريف الموجز بدولة يوغسلافيا وجمهورياتها. نعود فنذكر أن دولة النمسا - المجر، قد استولت على بلاد البوسنة والهرسك . وأن الدولة العثمانية قد انسحبت منها ، وأن أعداداً كبيرة من المسلمين أصبحوا - لأول مرة - تحت حكم غيرهم ، مما دفع الكثيرين منهم إلى الهجرة إلى الأناضول والبلاد الأخرى التي يحكمها العثمانيون . كما سبق ذكره .

والحق أن الحكم النمساوي ، كان قد بلغ من القسوة بالمسلمين حدا لا يمكن تصوره من تشريد واضطهاد ومحاولة التنصير من جانب الكاثوليك ، مما دفع مرة أخرى بأعداد كبيرة من المسلمين إلى الهجرة إلى تركيا .

وفي عام ١٩٠٠م . ثار المسلمون على النمساويين بزعامة رئيسهم (علي فهمي جابيج) وانضم الصرب الأرثوذكس إليهم في حروبهم ، ضد الاضطهاد الكاثوليكي النمساوي ، ونجح المسلمون في الحصول على الحكم الذاتي في الأمور الدينية ، في ١٥ أبريل عام ١٩٠٩م . وبعد الحرب العالمية الأولى - التي انهزمت فيها دولة النمسا والمجر : تأسست الدولة اليوغوسلافية لأول مرة ، والتي جمعت السلاف الصقالبة الجنوبيين ، وفرح المسلمون لهذا الحدث ، الذي خلصهم من الاستعمار النمساوي غير أنه بعد قيام يوغسلافيا غدر الأرثوذكس بالمسلمين ، فصادروا جميع أراضيهم عام ١٩١٨وأعطوها لفلاحيهم . مما أدى إلى إفقار المسلمين وتأخيرهم ، بعد أن كانوا في تقدم .(١)

ويذكر الدكتور محمد حرب - نقلا عن : الدكتور علي الكتاني(٢) قوله :

ولنأخذ مدينة بلغراد كمثال لما حدث للمسلمين في يوغسلافيا ، فلقد فتحها

(١) نفس المصدر : ص ٧٥

(٢) المسلمون في أوربا وأمريكا جـ١ ص ١٢٠ ، ١٢٨.

العثمانيون عام ١٤٥٢ ميلادية .. واحتلها النمساويون عام ١٧١٨م ... ثم استرجعها العثمانيون عام ١٧٣٨م .. ثم فقدوها للمرة الأخيرة عام ١٨٣٠م .. فيكون الحكم العثماني الإسلامي قد دام فيها ٣٥٨ سنة .

وكانت بلغراد في القرن السابع عشر ، مدينة إسلامية زاهرة ، وعندما زارها الرحالة التركي (أوليا شلبي) عام ١٦٠٠م .. كان سكانها مائة ألف نسمة ، ثلاثة أرباعهم مسلمون . وكان بالمدينة (٢٧٠) مسجداً ، تقام في (٢٣) منها صلاة الجمعة. وبها (١٧) تكية ، و(٨) مدارس ثانوية إسلامية ، و(٩) دور للحديث ، و(٢٧٠) من الكتاتيب القرآنية.

وبعد أن انحسر الحكم الإسلامي عن المدينة ، قضى النصارى على المدارس والكتاتيب والمساجد كلها ، الواحدة تلو الأخرى ، وبخاصة بعد أن هاجر عنها سكانها المسلمون فمثلا : هدم مسجد رئيس أفندي ، وأنشيء مكانه ملز لسباق الخيول ، وبنى المسرح المركزي على أنقاض مسجد ثرية . والبرلمان اليوغوسلافي نفسه هو في الحقيقة مسجد «بشار» الذي كان أجمل وأكبر مسجد في بلغراد . وفندق «بالاس» بني على أرض مسجد وهلم جرا ... والمسجد الوحيد الذي نجا من الهدم بأعجوبة بقي لكونه أول مسجد بناه المسلمون في بلغراد ، فأعطته الحكومة لمديرية الآثار . ولم يسترجعه المسلمون إلا عام ١٩٦٢م ... واسم هذا المسجد (جامع بايراقلي). وقد بنى عام ١٥٢١م ، وحوله النصارى إلى كتدرائية عام ١٧١٨م عندما احتلوا بلغراد ، ولكن استرجعه المسلمون عام ١٧٣٨م.

ويلاحظ أن البوسنة والهرسك قد قسمتا بين ولايتي صربيا وكرواتيا ، بين الحربين العالميتين الأولى والثانية .

كما يلاحظ أنه بعد رحيل القوات النمساوية المجرية ، تم قيام المملكة الصربية الكرواتية السلوفانية عام ١٩١٨م . في أعقاب الحرب العالمية الأولى . ونادوا ببطرس الأول الصربي ملكا عليها . وهذه المملكة الجديدة ضمت البوسنة والهرسك ، وأخذت الحكومة الجديدة تمارس تصفية المسلمين جسدياً.[١]

---

(١) البوسنة والهرسك ص ٧٦ ، ٧٧

نتائج الحرب العالمية الأولى :

هذا : وتجدر الإشارة إلى أن الحرب العالمية الأولى قد انتهت في نوفمبر عام ١٩١٨م بتوقيع اتفاقية (فرساي) - وكما قلنا آنفا - إنه كان من نتائجها ظهور مملكة (الصرب والكروات والسلوفيين) لتحل محل (صربيا) ثم سميت بعد ذلك بـ (يوغسلافيا).

كما كان من نتائجها : أن حلت القومية التركية (الطورانية) محل القومية العثمانية ، على الرغم من استمرار وجود السلطان (محمد السادس) من عام ١٩١٨م إلى عام ١٩٢٢م) . وفي هذه الأثناء برزت الولايات المتحدة على المسرح العالمي وتشكلت (عصبة الأمم) .

أما في تركيا : فقد بدأ نجم (مصطفى كمال أتاتورك) يتصاعد ، وصار له السيطرة الفعلية على البلاد ، فصدر دستور ١٩٢٠م . ليغير اسم البلاد ليصير (تركيا) ، ونقلت العاصمة من (استانبول) إلى (أنقرة) وتولى أتاتورك رئاسة المجلس التنفيذي والقوات الغير نظامية ، التي أخمدت ثورة أخيرة للقوات العثمانية ، وهزمت القوات اليونانية التي هاجمت تركيا ، ووصلت إلى أنقره .

وبدأ اعتراف الدول الأوربية بحكومة أتاتورك يتوالى ، وعقدت معاهدات صلح مع الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٢١م ، انتهت باتفاقية (لوزان) في عام ١٩٢٣م والتي بموجبها تم حل الدولة العثمانية وعزل آخر سلاطينها ونفيه إلى جزيرة مالطا وألغيت الخلافة العثمانية نهائياً في ٢٩ أكتوبر عام ١٩٢٣م. وأعلن أتاتورك أول رئيس لجمهورية تركيا ، وصدر أول دستور جمهوري في أبريل عام ١٩٢٤م .[1]

---

(١) من وراء ضياع البوسنة ص ٤٥.

الأقليات المسلمة وحرب التطهير في البوسنة والهرسك

بعد أن رحلت القوات النمساوية المجرية ، تلاها قيام المملكة الصربية الكرواتية السلوفانية في عام ١٩١٨م . حيث توج الملك (الكسندر الأول) ملكا عليها من عام ١٩٢١ إلى عام ١٩٣٤م وكانت هذه المملكة تضم البوسنة والهرسك .

وهذه الحكومة الجديدة أخذت تمارس - في أعقاب الحرب - حلقة جديدة من التصفيات الجسدية ضدي مسلمي البوسنة والهرسك ، والذين كانوا قد أسسوا في عام ١٩١٩م .(الحزب الإسلامي اليوغسلافي) بزعامة الدكتور (محمد سباهو) الذي ترأس عدة حكومات يوغسلافية بين الحربين .

والحق أن المسلمين في عهد الكسندر الأول قد لاقوا من العذاب والويلات والمذابح ألوانا.حيث أخذت الضغوط تزداد عليهم . ولنضرب أمثلة من هذه الويلات . منها :

ما ذكرته (جريدة الحياة الدولية) عام ١٩٩٢م. تقول : انه حين قتل محافظ سابق هو (يوشكو بو شكو فيتش) في ١٩٢٤/١١/٧م على مقربة من مدينة (كولاشين) ادعت الحكومة أن المسلمين هم الذين قتلوه ، وعلى أثر ذلك نفذت مذبحة لأهل قرية (شاهو فيتش) ، وتلتها بمذبحة لأهالي قرية (بافينو يوليه) وبلغ عدد القتلى من النساء والأطفال أكثر من (٦٠٠) ضحية . مما اضطر سكان القريتين إلى الهجرة فرارا من الموت ، وعددهم (١٢٠) أسرة ، وأبيدت أسر أربعمائة شخص[١]

وامتدت المذابح بعد ذلك ، حيث أحرق الصربيون (٢٧) قرية مسلمة في البوسنة، وقتلوا عشرات الآلاف من النساء والشيوخ والأطفال ، مما أدى إلى هروب ثلاثة آلاف مسلم من البوسنة فرارا من الموت . كل هذا بهدف ترحيل أكبر عدد من

---

(١) البوسنة والهرسك ص ٧٨

المسلمين إلى تركيا . ونتيجة لذلك أصبح نصيب المسلمين في شمال البوسنة يمثل ٣٠٪ فقط بعد أن كان ٣٩٪ عام ١٩٢٩م.

وقد أدت ديكتاتورية الملك الكسندر ، إلى القضاء على ما كان يعرف بـ(الحركة الإسلامية اليوغسلافية) والتي كانت تحظى بـ(٢٤) مقعداً في البرلمان . وكانت تناضل من أجل الاعتراف بالكيان الإقليمي والثقافي لشعب البوسنة . وفي عام ١٩٣١م فقد الشعب المسلم في البوسنة استقلاله الذاتي ، وفي عشية الحرب العالمية الثانية ، رفض الصرب والكروات الاعتراف بالهوية الإسلامية لسكانها[١]

وفي الفترة ما بين الحربين : الأولى والثانية . انشغلت الدول الأوربية بهموم كثيرة أهمها . محاولة استيعاب مستعمراتها فيما وراء البحار ، ومواجهة ظهور الشيوعية وبروزها في روسيا وانتشارها خارجها ، كذلك الأزمة الاقتصادية العالمية ، التي أشعلها الرأسماليون اليهود ، أصحاب المصارف أمثال : روتشيلد وروكفلر . في الفترة من عام ١٩٢٩ حتى ١٩٣٥م . وجنوا من ورائها مكاسب ضخمة ، كانت من أسباب نشوب الحرب العالمية الثانية . والتي كان من أسبابها أيضاً : ردود فعل (ألمانيا) نتيجة القيود الشديدة التي فرضتها عليها معاهدة (فرساي) حيث بدأ يظهر فيها الحزب النازي بقيادة (هتلر) . في ذات الوقت الذي ظهرت فيه الفاشية بقيادة (موسوليني) في إيطاليا ، والتي اعتنقتها أسبانيا واليونان وبلغاريا .

وما أن انسحبت ألمانيا واليابان من عصبة الأمم ، وسعى هتلر لوحدة الدول والمناطق الناطقة بالألمانية ، حتى تصدع النظام الأوربي . كل هذا كان سببا في نشوب الحرب العالمية الثانية ، وقيام مجموعة دول (المحور) : التي تضم ألمانيا وإيطاليا واليابان . في مواجهة الحلفاء : (بريطانيا وفرنسا ثم روسيا والولايات المتحدة) وكانت تركيا على الحياد .

وانتهت هذه المواجهة بهزيمة دول المحور ، وانتحار هتلر ، واستسلام اليابان ، بعد

(١) من وراء ضياع البوسنة ص ٤٦

أن قصفتها الولايات التحدة بقنبلتين نوويتين . وسقوط الفاشية في إيطاليا ، وإعدام موسوليني ، ثم تقسيم أوربا إلى مجموعة دول شيوعية في شرقها ، ومجموعة دول أوربا الغربية ، بل تقسيم ألمانيا ذاتها إلى شرقية (شيوعية) وغربية ، كذلك انقسمت (كوريا) إلى قسمين : شيوعي في الشمال ، ورأسمالي في الجنوب ، وانضمت الصين إلى المعسكر الشيوعي ، عدا (فرموزا) التي دخلت تحت الحماية الأمريكية .

كما سقطت (عصبة الأمم) ، وقامت على أنقاضها (هيئة الأمم المتحدة) وقد ضمت مجموعة دول أوربا الشيوعية : يوغوسلافيا وألبانيا ورومانيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا والمجر . وهؤلاء شكلوا مع الاتحاد السوفيتي الكوميكسون) .

وبدأ عصر القوتين العظميين : الولايات المتحدة ، على رأس المعسكر الغربي والاتحاد السوفيتي ، على رأس المعسكر الشيوعي . وهو العصر الذي عرف باسم عصر الحرب الباردة ، التي تخللتها بعض المواجهات الساخنة في دول خارج حدودها .

ونتيجة للاحتلال النازي ، دفعت شعوب يوغوسلافيا ثمنا غاليا تمثل في مليون وسبعمائة ألف قتيل يمثلون ١١٪ من مجموع السكان ، مات عدد كبير منهم من التعذيب في معسكرات الاعتقال ، التي أقامها الألمان ، وحلفاؤهم الإيطاليون ، على أرض يوغوسلافيا . أي ثلاثة أضعاف الذين ماتوا في يوغوسلافيا أثناء الحرب العالمية الأولى ، هذا بالاضافة إلى تدمير (٨٥٠ر٠٠٠) منزل.

ونتيجة لأعمال المقاومة الشرسة التي أبدتها قوات (تيتو) ، كانت يوغوسلافيا تشكل أصعب شوكة في حلق هتلر ، والتي عمقت إلى حد ما من الوحدة الوطنية بين أبناء الجمهوريات الست في يوغوسلافيا .

وعندما انتهت الحرب ، واقتسمت الدول الكبرى المنتصرة مناطق السيطرة والنفوذ في العالم ، رفض تيتو تقسيم يوغسلافيا ، بين روسيا والدول الغربية ، وهدد باستمرار المقاومة ، فعدلت الدول الكبرى عن هذه الفكرة ، وكان ذلك سببا في غضب ستالين زعيم الاتحاد السوفيتي على تيتو .

وخلال الحرب العالمية الثانية ، كانت قوات المقاومة المناهضة للنازية تعمل في

يوغسلافيا ، مثلما كان الحال في ألبانيا واليونان تحت قيادة الحزب الشيوعي .

وقد قدم لها المسلمون في البوسنة ، كل المساعدات ، المادية والبشرية ، التي كانت في إمكانهم ، بينما كانت القوات النظامية الملكية المتواجدة في يوغوسلافيا قد اختارت طريق التعاون مع المحتلين النازيين الألمان ، والفاشيين الإيطاليين ، الذي كانوا يدركون أنه يمكن إضعاف أعدائهم عن طريق إذكاء النزعة العرقية ، وعلى هذا الأساس قاموا بإنشاء دولة كرواتية عميلة لهم ، كما قسم كل من الرايخ الألماني وإيطاليا الموسولينية مقاطعة سلوفينيا ، ونفذوا خطة إبادة منظمة ضد مقاطعتي صربيا والجبل الأسود .

وقد عانى مسلمو البوسنة خلال هذه الفترة أشد صور المعاناة . سواء من جانب الصرب العنصريين ، أو من جانب النازيين المحتلين . وكانت فترة الحرب صعبة على المسلمين ، حيث اتسمت بالمذابح التي جرت ضدهم من جانب الصرب والكروات ، ففي عام ١٩٤١م وحده ، قام الصرب بذبح (٦٠٠٠) ألاف مسلم ، وألقوا بجثثهم في النهر.

وخلال الحرب ، حاول (الأوستاش) في دولة الكروات المستقلة بزعامة (بافيليك) الحصول على الدعم الشامل من السكان المسلمين ، وأطلقوا عليهم آنذاك (أنقى زهرة في الأمة الكرواتية) . ومع ذلك كانت هذه الدولة تأمل في الوقت نفسه في إجبار المسلمين على اعتناق الكاثوليكية لاستيعابهم تماماً .

أما حركة (تشتنيك) القومية الصربية بقيادة (درازمها جلوفيتش) فكانت تنادي بقيام (صربيا الكبرى) ذات العرقية الصربية الخالصة ، وذلك بتصفية الوجود الإسلامي في البوسنة والهرسك .

وتشير أكثر الإحصاءات دقة ، إلى أن عدد المسلمين الذين قتلوا وشردوا على أيدي هذه الحركة الصربية ، لا يقل عن خمسين ألف مسلم ، وأن الذين شردوا (٣٥٠) ألفا آخرين .

وقد أدى الاحتلال الألماني بالعديد من المسلمين في البوسنة إلى الانضمام لصفوف

المقاومة بزعامة تيتو والتي تأسست نواتها في (بيهاق) في ٤ من نوفمبر ١٩٤٢م وهي منطقة ذات أغلبية مسلمة . لذلك ساعد الحزب الشيوعي برئاسة تيتو المسلمين على الإفلات من خطر الإبادة على أيدي الصرب والكروات ، ودعا المسلمين خلال الحرب للوقوف بجانب المقاومة ، وقد أطلقت الكتائب العديدة من بين المقاومة على نفسها اسم (الكتائب الإسلامية).

وفي عام ١٩٤٣م ، وخلال الاجتماع الذي عقد لتأسيس جمهورية البوسنة والهرسك ، تم الاعتراف بالمسلمين كشعب متميز قائم بذاته ، وفي نهاية الاجتماع صدر قرار نص على أن البوسنة والهرسك ليست صربية ولا كرواتية ولا إسلامية، وإنما صربية كرواتية إسلامية معاً .

وبرغم هذا ، وخوفا من إثارة روح دينية متعصبة ، ترددت إدارة تيتو في الاعتراف رسميا بوجود أمة إسلامية ، ومن ثم لم تعترف يوغوسلافيا الجديدة (الثانية) - منذ التحرير - بالمسلمين ككيان منفصل ولكن خوفا من الروح الإلحادية التي سرت في يوغوسلافيا في ظل الحكم الشيوعي ، لم يحاول المسلمون الإفصاح عن هويتهم الحقيقية ، خوفا من تصفيتهم ، وكانت نسبة أعدادهم ٢٥٫٧٪ وبعد ذلك بعشر سنوات زاد عددهم ليصل إلى نسبة ٣٩٫٦٣٪ [١] حسب الإحصاءات الرسمية اليوغوسلافية . أما في الواقع فإن نسبتهم الحقيقية أكبر من هذا بكثير .

ومهما يكن من الأمر فقد تعرض من بقي من المسلمين في هذه البلاد (البلقان والبلغار) لشتى أنواع القهر ، وأبشع أشكال التعذيب ، من أجل تصفية الوجود المادي والعقائدي للمسلمين ، كان هذا هو الهدف المشترك لكل من تعاقبوا على حكم بلغراد .

وقد عبر عن هذا بدقة إمام مسجد بلغراد (الشيخ حمدي يوسف) حين قال :

(إن القيادة الملكية الصربية السابقة ، والقيادة الكرواتية ، لم تتفقا أبداً إلا في

---

(١) نفس المصدر ٤٧ ، ٥٠.

نقطة واحدة ، ألا وهي تصفية المسلمين ، ومازال التاريخ يذكر كيف كان الكروات يهاجمون القرى الصربية ، ويقومون بحرقها وذبح أهلها ، والتمثيل بجثثهم وكانوا يرتدون وهم يفعلون ذلك الثياب التركية ، ويتنادون فيما بينهم بأسماء إسلامية ، حتى تنسب الفعلة للمسلمين فيتعرضوا لثأر الصربيين وانتقامهم).

وقد سار كل من تداول الحكم في هذه البلاد ، على حد أدنى في سياسة التعامل مع المسلمين ، لم يشذ عنها واحد منهم . من مثل غلق المساجد والمدارس والتكايا والكتاتيب ، أو هدمها وتحويلها إلى متاحف ، أو مخازن للمخمور ، أو حظائر للخنازير ، من أجل منعها من أداء دروها .

هذه السياسات المعادية للمسلمين ، والتي تهدف إلى تصفية وجودهم في هذه البلاد كانت تسير في مسارين :

مسار سلمي : يتمثل في منع المسلمين من الوصول إلى المناصب الحساسة ، في الدولة والجيش والقطاع الاقتصادي والتعليمي ، ووضع العراقيل أمام أبنائهم في دخول المدارس والجامعات . ويذكر (محمد فيليبوفيتش) رئيس منظمة حقوق الإنسان في جمهورية البوسنة والهرسك . أنه في بداية عام ١٩٢١م تم سلب المسلمين في البوسنة والهرسك جميع أراضيهم الزراعية ، التي كانوا يفلحونها منذ مئات السنين عملاً بنصيحة (ستويان بروتينشي) الذي قال :

(لا تقتلوا المسلمين ولا تطردوهم ، ولكن اعملوا على إفقارهم وإضعافهم فيموتون ، أو يضطرون إلى الهجرة)[1]

أما المسار الثاني: فهو التصفية الجسدية : حيث لم يتحملوا العمل بتلك النصيحة السابقة نظراً لسيطرة الروح الشيطانية المعادية للمسلمين ، والتي لازمتهم لفترات طويلة هناك . لذا فقد لجئوا إلى هذا المسار وهو التصفية الجسدية من خلال المذابح الجماعية ، وقتل عشرات الألوف من المسلمين فيها .

(١) صحيفة الشرق الأوسط عدد (٤٨٣٠) في ١٩٩٢/٢/١٨م والذي يليه للكاتب أسعد طه .

ونذكر من هذه المذابح على سبيل المثال حادثتين غاية في البشاعة . ذكر إحداهما (برانكوهورفات) العالم الكرواتي الشهير في كتابه (مسألة كوسوفو)

وتتلخص هذه الحادثة (بأن ملك يوغوسلافيا في الفترة ما بين الحربين العالميتين (كرال بيتر) مر في طريقه من كوسوفو إلى مقدونيا بحشد من المسلمين ، تحت رقابة الجنود الصربيين ، فسأل مساعديه : من هؤلاء ؟ فأجابوه : مسلمون ! فقال : لا فائدة للمملكة منهم ، ويجب أن يبادوا جميعاً ، ولكن دون أن نخسر عليهم تكلفة الذخيرة والرصاص . اقتلوهم بالخشب على حافة الطرقات - ونفذت أوامره على الفور)

أما الحادثة الثانية : فهي حادثة (فوجا) الشهيرة ، والتي وقعت في شهر سبتمبر عام ١٩٤١م حيث كان الرجال المسلمون يخوضون القتال في أتون الحرب العالمية الثانية ، فانتهز الصرب غيابهم عن أسرهم ، وجمعوا الأطفال والنساء والشيوخ من بعض المدن ، واقتادوهم إلى سهل (فوجا) وأطلقوا عليهم النيران ، حتى أبادوهم جميعاً ، ثم قذفوا بهم إلى مياه نهر (درينا) .

وعادوا فكرروا المذبحة مرة ثانية في شهر ديسمبر من نفس العام ، في وقت كانت فيه درجة الحرارة أقل من عشرين درجة تحت الصفر (ومارسوا مع المسلمين أشد أنواع العنف والتعذيب ، ففتكوا بالأطفال ، وبقروا بطون الحوامل ، وعاملوهم بوحشية ما عرف التاريخ لها مثيلا - حتى في مذابح التتار الشهيرة - ثم قذفوا بهم في مياه النهر المتجمد ، فتحولوا إلى هياكل ثلجية تصبغها دماء المسلمين الأبرياء وكان عدد الضحايا أكثر من (مائة وثلاثين ألف) مسلم ومسلمة).

ولم تنس ذاكرة التاريخ قصة هذه المأساة ، فأقام عليهم إخوانهم المسلمون صلاة الغائب لأول مرة في عام ١٩٩٠م . حيث جرى احتفال مهيب ، حضره الألوف من المسلمين .

والشيء الملفت للنظر والداعي إلى الغرابة ، هو ما تعرض له هؤلاء المشاركون في هذا المأتم الأليم ، على امتداد الطريق الموصل إلى موقع المذبحة ، من رؤية الصربيين الذين كانوا ينشدون أغانيهم القديمة : (تعالوا نذبح أبناء الأتراك)[١]

(١) المسلمون في البوسنة والهرسك ص ٥٥ - ٥٧

وماذا يفعل المسلمون أمام هذه المذابح ؟ لم يكن أمامهم في البلقان (يوغسلافيا) إلا أن يهاجروا إلى خارج البلاد ، أو يصمدوا ويجاهدوا . أو يرتدوا عن الإسلام ، أو يحتفظوا بالإسلام دينا وعقيدة . والخيار الأول : كانت تشجعه وتنظمه حكومة بلغراد.

ويدل لذلك ما فعلته هذه الحكومة عام ١٩٣٨م حين اتفقت مع أنقره على نقل نصف مليون من المسلمين الألبان في إقليم كوسوفو ، وتهجيرهم إلى تركيا باعتبارهم من أصول تركية (عرقية) . غير أن تنفيذ هذا الاتفاق قد أوقف بسبب انفجار الحرب العالمية الثانية ، واجتياح القوات الإيطالية - الألمانية ليوغوسلافيا . وبعد أن انتهت الحرب عادت حكومة تيتو لتدفع الأمور إلى هذا الاتجاه .

والخيار الثاني : وهو الصمود والجهاد - سيعرض المسلمين للاعتقال والتعذيب الوحشي في السجون والمعتقلات ، حيث تتم لهم التصفية الجسدية .

وأما الخيار الثالث : وهو الارتداد عن الإسلام - والعياذ بالله - فقد وقعت فيه شريحة من المسلمين عندما اعتنق البعض النصرانية دينا ، أو المذهب الاشتراكي منهجا.

ويبقى الخيار الرابع : وهو الاحتفاظ بالاسلام دينا وعقيدة وانتماء حيا في القلوب ، وسرا لا يجهر به إلا في الحدود المسموح بها ، وهذا الخيار هو الذي أخذ به معظم المسلمين هناك . وقد ظهر هذا واضحاً عندما هبت رياح الحرية ، فعادت الكتاتيب والمدارس والمساجد لتمتلىء بجموع المؤمنين الموحدين ، والركع السجود ، وكان هذا تعبيراً عما حرم منه المسلمون طويلاً ، وهو المشاركة في الحكم في العاصمة الجميلة مدينة (سراييفو) عاصمة البوسنة والهرسك .

صحيح أن الاتحاد اليوغوسلافي كان يضم المسلمين في كيان دولة واحدة ، إلا أن أوضاع المسلمين في هذا الكيان لم تكن واحدة ولا موحدة ، فقد ظلت أمورهم الحياتية متباينة ومختلفة ما بين منطقة وأخرى ، بحيث يصبح من الصعب اعتبارهم مجموعة واحدة ، مما جعلهم يتعرضون لبعض الاختلاف والتباين في أوضاعهم . بسبب تباعد الجمهوريات اليوغوسلافية ، وتمزقها ، وما يترتب على هذا من انعكاسات على أوضاع

المسلمين في هذه البلاد . من حيث عددهم ، وأصولهم العرقية ، وانتشارهم الإقليمي ، وحالتهم الاقتصادية ، ودروهم السياسي ووعيهم الديني .

ففيما يتعلق بعدد المسلمين : لا توجد إحصاءات رسمية تحدد عددهم في البلقان، وإذا كان الشائع أن عددهم هناك ما بين ستة وسبعة ملايين فليس هذا هو عددهم الحقيقي ، لأن الحكومة تتعمد الانتقاص من عدد المسلمين ، ولا تذكر عددهم الحقيقي ، ودليل ذلك : أن هذه السلطات : لا تضع الألبان الذين يعيشون في يوغوسلافيا في طائفة المسلمين ، مع أنهم يزيدون على المليونين ونصف المليون مسلم وإنما تضعهم في طائفة الألبان . ومعنى هذا أنها تصنف المسلمين عرقيا ، بهدف إبقاء العدد الرسمي للمسلمين قليلاً .

والذي يفضح سلطات يوغوسلافيا في شأن إخفاء العدد الحقيقي للمسلمين هناك أن صحيفة (رسالة الجهاد) التي تصدر في يوغوسلافيا ، قد نشرت في عدد أكتوبر ١٩٩١م أن العدد الحقيقي للمسلمين هناك هو ثمانية ملايين ونصف المليون مسلم مستندة فيما نشرته إلى ما نشرته المصادر الرسمية لكل جمهورية يوغوسلافيه على حدة بعيدا عن المركز الاتحادي للإحصاء .

وهذا من شأنه أن يوضح لنا حقيقة هامة هي : أن الإسلام يحتل المرتبة الأولى بين الديانات الأخرى في الكيان اليوغوسلافي ، خاصة إذا ما قورن هذا العدد للمسلمين بأعداد الديانات الأخرى . إذ يبلغ عدد الأرثوزكس : سبعة ملايين وثمانمائه ألف نسمة وعدد الكاثوليك : سبعة ملايين ومائتي ألف نسمة . بينما لا يزيد عدد أتباع الديانات الأخرى عن مليونا وثلاثمائة ألف نسمة . ولولا أعمال الإبادة الجماعية وممارسة التهجير الجبري ضد المسلمين في هذه البلاد ، لكان من المتوقع أن يزيد عددهم على أضعاف ما هو عليه اليوم .

وفيما يتعلق بأصول المسلمين العرقية : فإنها تتنوع في جمهوريات الاتحاد اليوغوسلافي (سابقاً) كما هو الحال في أوضاع المسلمين في كل أنحاد الدنيا ، حيث أن الأخوة في الله تصهر المسلمين في بوتقة الإسلام ، فهناك من ينحدر من أصول

كرواتية وصربية (مثل البوسفيين) ومنهم (الألبان) الذين يعيش معظمهم في(كوسوفو ومقدونيا) ومنهم الأتراك بنسبة بسيطة .

وفيما يتعلق بالانتشار الإقليمي : فالمسلمون موزعون في كل الأقاليم ، وليس لهم ما للكرواتيين مثلا من مناطق يشكلون فيها أكثرية مطلقة ، وحتى في (البوسنة والهرسك) فإن نسبتهم تزيد على ٥٠٪ رغم أن الأرقام الرسمية تنتقص من هذه النسبة كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

ويلاحظ أن هذا التشتت والتوزيع الجغرافي للمسلمين مقصود ، ولم يأت مصادفة بل حدث وفق مخطط محكم أخذ يطبق باستمرار - وبخاصة أيام (تيتو) لوضع المسلمين في هذه البلاد في موقف الضعف بشريا وجغرافيا .

وفيما يتعلق بالحالة الاقتصادية : فإن أوضاع المسلمين في (الجمهوريات اليوغوسلافية) سابقاً تتباين بشكل كبير ، ففي (كوسوفو) أو (الجبل الأسود) يعيش المسلمون في حالة فقر وبؤس شديدين ، بينما يعيش مسلمو (كرواتيا وسلوفينيا)في مستوى قريب من المتوسط ، وسبب ذلك أن هاتين الجمهوريتين الأخيرتين سبقتا سواهما في إعلان الاستقلال ، وكانتا دائماً من أفضل الجمهوريات البلقانية اقتصادياً.

وفيما يتعلق بالدور السياسي : فإنه في الفترة التي سيطر فيها الحكم الشيوعي على هذه الجمهوريات والتي ظلت منذ عام ١٩٤٥م إلى ١٩٩٠م ، لم يكن للمسلمين أى نفوذ أو أي دور سياسي . بل إن من كان يصل منهم أيام حكم تيتو إلى مراكز قيادية ، كان يحرص على تجنب الاضطلاع بواجب الدفاع عن المسلمين ، واكثر من ذلك كان أكثرهم يتعمد ظلم ، إخوانه ويبالغ في هذا الظلم ، ليؤكد لسادته على ارتداده وانفصاله تماما عن العقيدة والدين .

وما أن ظهرت أمارات التغييرات في عام ١٩٩٠م حتى تشكلت أحزاب سياسية - دينية ، في البوسنة ومقدونيا وكوسوفو ، ومع أن هذه الأحزاب قد تباينت برامجها من حيث مضمونها القومي أو الديني ، إلا أنها كانت تصب في النهاية في مجرى

التيار الإسلامي . وعن طريقها وصل بعض أعضائها إلى مجلس النواب (البرلمان) كما حدث في مقدونيا ، وفاز الحزب الإسلامي (حزب العمل الديموقراطي) في البوسنة والهرسك في الانتخابات العامة ، ووصل المجاهد (علي عزت بيجوفيتش) إلى رئاسة الجمهورية . وقد كان هذا المجاهد سجينا أيام الحكم الشيوعي السابق بسبب إصراره على التمسك بالعقيدة الإسلامية ، وسنتناول هذا بالتفصيل في مكانه من هذا الكتاب . هذا فيما يتعلق بالدور السياسي للمسلمين على الصعيد الداخلي .

أما على الصعيد الخارجي : فبرغم ما بذله قادة المسلمين هناك من محاولات للتأكيد على انتمائهم لأوربا - جغرافيا على الأقل - فإن الشخصية الإسلامية شكلت عائقاً أمام قبول أوربا الصليبية المتعصبة لهم ، وتبنيها لمطالبهم العادلة ، وتفهمها لأوضاعهم ، ويدل لذلك أنه عندما اندلع النزاع والقتال بين كرواتيا والصرب ، سارعت ألمانيا وهولندا وإيطاليا والمجر والنمسا لدعم جمهوريتي كرواتيا وسلوفينيا ، بينما دعمت اليونان وروسيا وبلغاريا الصربيين ، وبقي المسلمون محرومين من أي دعم خارجي ، ويتطلع قادة المسلمين إلى دعم إخوانهم في العالم الإسلامي - وبخاصة تركيا مع العمل بالقدر ذاته لاكتساب ثقة الولايات المتحدة ودعمها .

أما فيما يتعلق بالوعي الديني للمسلمين في هذه البلاد : فمن المتوقع على ضوء ما سبق ألا يكون على مستوى واحد في المناطق المختلفة للمسلمين ، فمثلا في (مقدونيا) هناك التزام إسلامي عام تقريبا ، يبدو من حرص المسلمين فيها وهم من الألبان على التمسك بفرائض الإسلام ، في حين أن المسلمين الألبان في (كوسوفو) يغلب عليهم الطابع القومي (العنصري) أما في البوسنة والهرسك ، فهناك وعي إسلامي نظراً لتوافر نخبة من المثقفين المسلمين فيها ، ولذا كان المسلمون في هذا الإقليم هم أول من عمل على تأسيس حزب سياسي ، عقب الانفراج الذي شهدته البلاد وربما ساعد على ذلك وجود مدرسة وكلية إسلامية في (سراييفو) العاصمة .

وعلى كل حال ، فإن العامل الحاسم في التطور ، هو حب المسلمين البوسنيين للعلوم والثقافة الدينية ، وهو العامل الثابت الذي أظهره البوسنيون عندما اعتنقوا الإسلام وخاصة أيام السلطان محمد الفاتح ، حيث طلبوا منه إيفاد أبنائهم إلى مراكز العلم في الدولة الإسلامية .

وقد شهدت البوسنة ميلاد (اتحاد النساء المسلمات) الذي تمارس عضواته نشاطا مكثفا في ظروف القتال ، مثل إيواء المهاجرين والنازحين عن مناطق القتال ، ومشاكل البطالة إلى غير ذلك .

لقد كان من الطبيعي أن يظهر التباين في المواقف بين المسلمين - في أعقاب انهيار الشيوعية - ويبدو هذا التباين واضحاً عندما نعلم بوجود جيلين ، لكل منهما تفكيره : فهناك رجال الدين - الرسميون - أو رؤساء المشايخ ، وفي مقابل هذا يوجد جيل الشباب أو أتباع الحركات الإسلامية . فبينما يتهم الشباب جيل الشيوخ بأنهم امتداد للنظام الشيوعي الذي عينهم في وظائفهم ولذا يراهم الشباب لا يمثلون النبض الحقيقي للمسلمين . نرى الشيوخ يتهمون جيل الشباب بأنهم يفتقرون إلى العلم الشرعي الذي يؤهلهم لقيادة المسلمين . وأنهم يمارسون (الإسلام السياسي) ليصلوا إلى السلطة (المشيخة الإسلامية) ، حيث يمثل المسلمون في كل جمهورية (رئيس المشيخة الاسلامية) وهؤلاء الرؤساء يجمعهم (مجلس العلماء) الذي كان يترأسه في عام ١٩٩١م (الشيخ يعقوب سليموسكي) ورئيس مجلس العلماء هو أيضاً رئيس مجلس المسلمين في أوربا الشرقية . وهذه المشيخات هي المرجع الرسمي الذي يمثل المسلمين هناك . ويقابله تنظيم الشباب الذين ينتظمون في حركات إسلامية ومعظمهم ممن تعلموا علوم الدين واللغة العربية في أقطار العالم الإسلامي عامة ، والعربي خاصة . وقد أدى احتكامهم بإخوانهم في هذه البلاد إلى تبني مبادىء تلك الحركات الإسلامية ، ومن الطبيعي أن يحدث هذا التباين في المواقف والاتجاهات الذي يصحبه تغيير في الأفكار ، إنه صراع الأجيال الذي يضمن امتداد الماضي في أفق المستقبل . وخاصة في (يوغوسلافيا سابقاً) إنه استمرار الماضي في ظروف الحاضر ، مما يعيد إلى الذاكرة باستمرار كل فصول الماضي البعيد والقريب في المآسي والنكبات التي حلت بالمسلمين في تلك البلاد.[1]

وهذا ما عبر عنه رئيس علماء المسلمين هناك وهو (الشيخ يعقوب سليموسكي)

---

(١) انظر : المسلمون في البوسنة والهرسك ص٥٨ - ٦٣

حين قال في مقابلة أجراها معه الحبيب الشريف ، ونشرتها صحيفة (المدينة) السعودية[1]: «لم تعد يوغوسلافيا كمثل ما كانت عليه من قبل ، فالحكومة الشيوعية الملحدة ، استهلكت ، وبإرادة الله سبحانه وتعالى سقطت ورحلت . وكان أملنا بعد رحيلها أن تنتشر آفاق حرية الإنسان ، وأن ينتشر العدل ، وأن تتحقق كل آمال المسلمين الذين يتطلعون إليها ، وحرموا منها أكثر من مائة عام ، لكن للأسف بدل الحكومة الشيوعية الملحدة ظهرت حكومة ذات فكر قومي متطرف ، واتجاه معاد صريح ضد الإسلام والمسلمين ، ولقد ضمت الحكومة الجديدة عددا لا بأس به من أبطال اضطهاد المسلمين في الأنظمة السابقة ، وقد جاءت الحرب الأهلية التي راح ضحيتها أرواح كثيرة ، وأدت إلى خسائر مادية فادحة ، فشعوب يوغوسلافيا (سابقاً) كلها على حافة الجوع ، ويعيشون على أدنى مستوى ، وخاصة المسلمون منهم ، والمنتشرون في كل الأقاليم.

إن المسلمين والجماعات الإسلامية وعلى رأسهم الرئاسة الإسلامية ، وبأعضائها التنفيذية العليا ، كلهم من محبي الحلول السلمية للمشاكل ، وسوء التفاهم الذي حدث لكن هذا كله وكأنه صرخة استغاثة يائسة في الصحراء .

لقد قتل في الحرب (بين الصرب والكروات) عدد كبير من المسلمين ، وخاصة من الجنود المسلمين الذين تصادف وجودهم في الجيش ، وزجوا عنوة بدون رغبتهم ، ووضعوا في الخطوط الأولى . كما وجد عدد من هؤلاء الجنود القتلى - وقد اغتيلوا فورا من الخلف - أي من وراء ظهورهم ، أو قتلوا من قرب ، مما يثير الشك في أنهم قتلوا على أيدي قادتهم ، أو على أيدي آخرين بأمر من أولئك القادة .

إننا نحن المسلمين لم نرغب في التدخل ، أو في الانحياز إلى أي طرف من الأطراف المتصارعة ، لأننا نعتبر أن هذه الحرب ليست حربنا ، ولذلك رفضنا التجنيد بالجيش تبعاً لما أعلنته حكومتنا في البوسنة والهرسك ، الأمر الذي لم ترض به الحكومة العسكرية (الصربية).

(١) العدد ٩٠٤٣ الاثنين ١٤ شعبان ١٤١٢هـ ص ١٧ ، وانظر المسلمون في البوسنة والهرسك ص٦٤

ولقد كثر عدد المسلمين المهاجرين من مناطق القتال ، ولم ينجح أئمة المسلمين في إقناع الناس بألا يتركوا منازلهم ، وهدمت جوامع كثيرة أو تصدعت ، والمسلمون يتعرضون للتهديد كل يوم بالحصار والقتل والطرد من العمل ، وبالضغط عليهم بصورة مستمرة - حتى في المناطق التي لم تتعرض بعد للحرب ، وحرم الطلبة المسلمون وبخاصة في منطقتي : كوسوفو ومقدونيا من التعلم بلغتهم الأصلية ، وهي اللغة الألبانية ، وفرض عليهم دراسة المقررات للأدباء النصارى ، وحتى الدين يدرسونه بالنصوص المسيحية (النصرانية) ، التي تتعارض وتتنافى مع التعاليم الإسلامية .

وهناك عدد كبير من مسلمي كوسوفو وصربيا ، ممن جرى اعتقالهم وسجنهم ... ولقد تعرضت شخصيا للسجن والاعتقال منذ عهد قريب ، عندما قمت بزيارة لكوسوفو من أجل الاحتفال بمناسبة الاحتفال بوضع حجر الأساس لأحد الجوامع في بلدة (جاكو فيتش) . واعتقلت الحكومة الصربية أيضا (٤٣) شخصية إسلامية ، من العاملين بالهيئات والمنظمات والمجالس الإسلامية لمشاركتهم في الاحتفال ، وليس ذلك إلا دليلاً على الحالة الصعبة التي يعيشها جمهور المسلمين هناك ، ولكن رغم كل الصعاب والظروف القاسية ، التي يعانيها المسلمون ، فالحياة الدينية زادت قوة عن ذي قبل ، بحيث أن المسلمين لم يكونوا في وقت من الأوقات متضامنين ومتحدين كمثل ما هم عليه الآن . ويعود الفضل في ذلك للقيادة والإدارة الإسلامية ، ورجالها الذين يجاهدون لجمع وحدة المسلمين ، من أجل تحقيق أهدافهم بكل ما أوتوا من قوة وعزيمة ومقدرة .

وعلى الرغم من انهيار القدرة الاقتصادية للمسلمين - ومعهم غالبية الجماعات الإسلامية ، إلا أنه أمكن بذل الجهود حتى لا تتوقف الدراسة والعمل - ولو ليوم واحد في كل المدارس الإسلامية الثانوية ، وكذلك في الكلية الإسلامية ، وتم افتتاح مدرسة ثانوية في بلدة (توفي بازار - بمنطقة سنجق) منذ عامين ، إلا أن التعليم يجري في مكاتب وإدارات الجمعيات الإسلامية ، نظراً لعدم توافر الإمكانات المادية ، لتشييد المبنى المناسب الذي يتسع لكل أعداد الطلبة .

وأن الواجب الأول في هذا العام الجديد ، هو العمل بأسرع ما يمكن لبناء تلك المدرسة ، التي يجب لها أن تشيد وتقام باعتبارها أساس تجمع المسلمين ، وضمان لتخرج العناصر الإسلامية - الكادرات - وهي التي تحفظ وتحافظ على وجود الكيان الإسلامي على أرضنا ...)

وإذا كنا قد عرضنا موجزاً عن الحالة الدينية في تلك البلاد فإن علينا أن نذكر المسلمين بهذا البيان الإسلامي ، الذي نشره (على عزت بيجوفيتش) هناك ليكون نواة لدولة إسلامية موحدة ، وهو دليل على أن المسلمين في البوسنة والهرسك حكاماً ومحكومين مازالوا رغم شدتهم يكافحون ، من أجل أن يبقى الإسلام علامة مضيئة في تلك البلاد .

على عزت بيكوفيتش وبيانه الإسلامي

ولد المفكر الإسلامي علي عزت بيكوفيتش عام ١٩٢٥م . من أسرة بوسنية مسلمة عريقة ، بمدينة (كروبا) وتعلم في مدارس مدينة سرايبفو ، والتحق بجامعاتها ، وحصل على درجات علمية في القانون والآداب والعلوم ، وصدر له مؤلف تحت عنوان (البيان الإسلامي) الذي كان قد بدأ في نشره على حلقات عام ١٩٧٠م. وبسبب هذا الكتاب قدم مع أحد عشر من زملائه المثقفين المسلمين إلى المحاكمة ، وحكم عليه بالسجن أربعة عشر عاماً ، بتهمة العمل ضد الدولة ، والدعوة إلى الجهاد المقدس لإقامة دولة إسلامية .

وبعد تفكك الاتحاد اليوغوسلافي ، أنشأ علي عزت وصحبه (حزب العمل الديموقراطي) بعد أن سمح بتعدد الأحزاب بعد انهيار الشيوعية ١٩٩٠م . وخاض به الانتخابات وأصبح رئيساً لهذا الحزب ، كما أصبح رئيساً لجمهورية البوسنة والهرسك اعتباراً من نوفمبر ١٩٩٠م.

وكان التنافس شديداً في هذه الانتخابات ، التي خاضها على عزت بحزبه ، حيث

كان يتنافس فيها مع الحزب الصربي الذي تدعمه صربيا ، ومع الحزب الكرواتي الذي كانت تدعمه كرواتيا . وبرغم هذا التنافس الشديد فقد حصل حزب المسلمين على ٣٧٪ من الأصوات ، بينما حصل الحزب الصربي على ٣١٪ ، والحزب الكرواتي على ١٧٪ من الأصوات .

فتحالفت الأحزاب الثلاثة لتشكيل الحكومة ، وإسقاط الحكومة الشيوعية القديمة ونتيجة لهذا : اختير رئيس حزب المسلمين الأستاذ علي عزت رئيسا للجمهورية وتوزعت بقية المناصب الحكومية حسب نسبة الأصوات .

أما فيما يتعلق بالبيان الإسلامي ، الذي أراد علي عزت من ورائه وضع تصور لإقامة الدولة الإسلامية الموحدة . وهو البيان الذي سجن بسببه . فلا يفوتنا في هذا المجال أن نذكر منه مقتطفات وافية . من واقع ما نشرته جريدة الحياة الدولية (العربية التي تصدر في لندن) في عددها (١٠٨١٢) الأربعاء ١٦ سبتمبر ١٩٩٢ . ١٩ ربيع الأول ١٤١٢هـ.[1]

وهذه المقتطفات من هذا البيان الإسلامي ، تعكس آراء الرئيس علي عزت بيكوفيتش في كل من : إقامة الدولة الإسلامية ، وقضية فلسطين .

وقد أعد هذه المقتطفات من هذا البيان الإسلامي : جميل روفائيل . مندوب جريدة الحياة الدولية في بلغراد - ويتكون من قسمين :

القسم الأول : يتضمن محتويات البيان - وهو غير موقع بأي اسم أو جهة .

والقسم الثاني : يشتمل على الإجراءات القضائية التي اتخذتها السلطات الحكومية ضد السيد بيكوفيتش عام ١٩٨٣م بإحالته إلى محكمة سراييفو ، ثم استئناف القضية في المحكمة الاتحادية العليا في بلغراد ، والحكم عليه في ١٤/٣/١٩٨٤م لمدة تسع سنوات ، بسبب مواقفه السياسية ، والتحريض على هدم السلطة الدستورية الشرعية في البلاد .

والقسم الأول هام . لأنه المتضمن نص البيان الإسلامي ، المنشور بإحدى فصائل اللغات السلافية المسماه (الصربية - الكرواتية) وهي اللغة الأم للمسلمين الصرب

هذا البيان : من واقع ما ذكره صاحب كتاب البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة . ص٨٦ وما بعدها. نقلاً عن جريدة الحياة الدولية العربية.

والكرواتيين في منطقة الاتحاد اليوغوسلافي السابق ، ويبدو واضحاً أن بيكوفيتش توخى أن يطرح أفكاره في صورة وثيقة كخط عام لنظام مستقبلي ، وبإيجاز كبير ... باعتبار أن وضوح مدلولاتها تستند على الآيات القرآنية ، وأن شاهدها هو كتاب الله عز وجل ، الذي يأمر المسلمين في كل مكان بالاتحاد ، وفق هدي القرآن الكريم .

ولهذا يؤكد السيد بيكوفيتش ، أنه ينبغي أن يكون بيانه الإسلامي مصدراً للإلهام وخطة للعمل .

يفتتح البيان : بسم الله الرحمن الرحيم

- منهج واحد للإيمان الإسلامي والشعب المسلم .

- هدفنا : عودة المسلمين إلى إسلامهم .

شعارنا : الإيمان والجهاد

يبدأ البيان بمقدمة تتناول الضرورة الحتمية لوحدة المسلمين « كي يتميزوا عن غيرهم ويضمنوا انتصارهم في وجه التحديات»

ويقول : «هذا البيان الذي نقدمه للرأي العام اليوم ، ليس الغرض منه تقديم درس للآخرين وإنما لنثبت للمتشككين بأن هذا البيان ليس ضد أي جهة أو مجموعة أو فكر».

وبالنسبة للمسلمين المؤمنين فإنه سيكون مرشداً لتعميق حبهم للإسلام وإيمانهم به وبعد أن يتناول ظروف العالم الإسلامي وانقساماته (قبل عام ١٩٧٠) يؤكد أن فكرة الوحدة الإسلامية ليست جديدة ، وأن تحقيقها لا يتطلب فقط وجود تنظيم لها ، ما دام المسلمون إخوة ، وإنما يتطلب أيضا توافر الجهاد والشجاعة والتضحية لدى الأمة الإسلامية جمعاء ، على أساس المصير المشترك ، يقول :

«يمر العالم الإسلامي بمرحلة تغير وولادة . ومهما كانت نتائج هذه التغييرات فإنها لن تبقى العالم الإسلامي حسب ما كان عليه في النصف الأول من القرن الجاري».

ويحاول كل من الشرق والغرب استغلال الظرف الراهن في البلاد الإسلامية لتحقيق أهدافه ، بوسائل ليست عسكرية ، لتأمين وجوده بين المسلمين وإبقاء الشعوب المسلمة على ما هي عليه من تخلف وارتباط مادي وسياسي به .

إن جذور الجهاد الإسلامي قديمة وتاريخية ، وقد سقطت قوافل الشهداء وهي تقابل الجاهلية ، ولتجاوز المصاعب الحالية ، لابد أن ينتظم مئات ملايين المسلمين في وحدة جامعة متينة ، ثم يتطرق إلى ما يهدف إليه البيان ويقول : نريد أن يخرج المسلمون من دائرتهم الموصوفة بالتخلف والفقر والاعتماد على الآخرين .

نريد بخطوات واثقة ، أن نقف على بداية طريق العودة إلى سيادة أنفسنا ومستقبلنا . نطالب بشجاعة الاستفادة مرة أخرى من عبقرياتنا الإسلامية ، وبذلك نستطيع سلوك الصراط المستقيم نحو الهدف المنشود ، إقامة الإسلام على كل الأصعدة لدى الأفراد وفي إطار العائلة والمجتمع ، ومن خلال العودة إلى العقيدة الإسلامية ، وإقامة مجتمع إسلامي موحد من المغرب إلى اندونيسيا .

ويحض البيان المسلمين أينما وجدوا . وهو لا يذكر إطلاقاً مسلمي البوسنة أو يوغوسلافيا ، ولا يشخص دولة إسلامية كقائدة ، إنما يوجه نداءه للمسلمين قاطبة الذين يخاطبهم قائلا : قد يبدو الهدف الذي نصبو إليه بعيد المنال ، لكنه واقعي وحقيقة ، لأنه يحد ذاته يقع ضمن البعد الممكن التحقيق على النقيض من الأفكار المماثلة غير الإسلامية ، التي هي طوباوية وخيالية ، ورغم ذلك فإنه يجري العمل لتحقيقها .

ويستند في تأكيد صحة ما يذهب إليه ، من خلال اعتماده على القرآن الكريم الذي هو إضافة إلى أنه كتاب ديني ، هو منهج لمجالات الحياة المختلفة التي يقتضي أن يترجمها المسلمون إلى حيز الواقع ، لأن المسلم يعتبر فقيرا روحيا دون التربية الإسلامية ، التي جاء بها القرآن الذي هو أساس الحضارة التي لا يمكن أن تزول .

ويوعز التأخر الحالي لبعض الدول الإسلامية التي كانت ذات شأن في السابق، إلى ابتعادها عن الإسلام ، ويضرب مثلا لذلك تركيا التي خسرت عن قصد حتى أحرف

الكتابة القرآنية التي هي شيء مثالي بالنسبة للمسلمين ، لا لسبب سوى الرغبة في مجاراة الغرب على حساب التراث الإسلامي .

ويحمل كمال أتاتورك مسؤولية كل التخلف الذي طرأ على تركيا . ويقول: «إن الذي جلبه أتاتورك لتركيا كان غريبا عن التراث والحضارة التي وفرت ما شهده الاتراك من قوة وعظمة لقرون عديدة»

ثم يقسم البيان إلى ثلاثة أبواب :

الأول : تخلف الشعوب الإسلامية.

الثاني : النظام الإسلامي .

الثالث : مشاكل النظام الإسلامي الحالية . ويختتمه بخلاصة عامة.

الباب الأول : تخلف الشعوب الإسلامية

يبدأ هذا الباب بعنوان فرعي : المحافظون والمجددون : يؤكد عدم اعتراضه على تسميات (المحافظون والمجددون) على رغم التباين بين أفكارهم ، شريطة التقائهم في نقطة واحدة هي العقيدة الاسلامية ، ومحاربتهم للأمية التي تؤدي إلى الجهل بأمور الدين .

ويشير إلى التقدم الذي حققه المسلمون في عهودهم الأولى ، التي لا تزال آثاره شاخصة إلى يومنا هذا ، والتي تؤكد مدى عظمة المسلمين عندما يلتزمون نهج القرآن الكريم .

ثم يتطرق أيضاً إلى الأضرار التي لحقت بالمسلمين نتيجة ما جلبه أتاتورك لتركيا ويتناول انقسامات المسلمين الحالية ، ويعتبر ان هذا هو سبب تخلف المسلمين الحالي رغم إمكاناتهم ، ووجود وحدة تجمعهم أساسها القرآن الذي يمتلك كل الدوافع والمحفزات اللازمة للتقدم .

ويستغرب من عدم المبالاة المجودة عند المسلمين ، بشأن وحدتهم ، والتي تركز التجزئة والتقسيمات التي يعيشونها .

ويطالب بضرورة يقظة إسلامية لتجاوز هذا الوضع الذي أدى إلى عدم اهتمام الجماهير الإسلامية بقضاياها المشتركة .

وهو يعارض الاستغلال المتطرف للعقيدة الاسلامية ، من أجل توحيد المسلمين ولأن ذلك قد يضر الوحدة الإسلامية أكثر مما يفيدها «لأن الالتزام بالإسلام الحقيقي هو الذي يجعل المسلم يتصف بالمثالية في هذا العالم ، وأن القرآن هو الفكر الآلهي المتجدد دائماً في كل العصور ، ولهذا فعلى المسلم سواء كان محافظاً أو مجدداً عليه أن يناضل من أجل المحافظة على الإسلام كما أورده القرآن».

أسباب الإحباط

يتناول تحت هذا العنوان الفرعي بداية الدعوة الإسلامية ، ووفاء المسلمين الأوائل لدينهم ، الذي أدى إلى انتصار المسلمين على المشركين ثم فتوحاتهم بعد ذلك ونشر الإسلام . وأنه بدأ الإحباط يحل بهم بعد أن حلت الفتنة بينهم ، وانقسموا إلى دويلات بعد أن اعتمدوا على الأجانب ، ويعتبر أن الأحباط بدأ بعد عام ٨٣٠م أي مع نهاية أيام الخليفة العباسي المأمون ، إلا أنه استمر بواسطة الأتراك الذين التزموا بالدين الإسلامي ، إلا أنه بدأ من جديد في عام ١٩١٩ بعد أن ابتعد الأتراك عن تراثهم الإسلامي ، ويقول : إننا الآن نستطيع أن نقضي على الاحباط بين المسلمين، إذا وضعنا في اعتبارنا السؤال : كم نحن مسلمين ؟

وهو يعتبر أن الانقلابات التي حدثت في البلاد الإسلامية ، ويضرب مثلا ما حدث في العراق بعد عام ١٩٥٨قد أدت إلى أضرار في تقدم المسلمين ، لأنها سببت أضراراً اقتصادية خصوصاً في الميدان الزراعي . ثم يتحدث عن عدم الاستغلال الاسلامي الصحيح للقدرات الاسلامية في البلدان الإسلامية ، ويضرب أمثلة ؛ الباكستان والجزائر ونيجيريا ، وينتقد العرب الذين اتخذوا من اللغات لبلادهم غير العربية ، ويشير إلى الحبيب بورقيبة ، الذي جعل الناس حتى في بيوتهم يتكلمون الفرنسية . ويتصفون بالثقافة الأوربية ، فجعل تونس ليس فقط تفقد هيوتها الإسلامية وإنما ايضا عزلها عن العالم العربي .

ويقـول : إن الاشيـاء الجـديدة يمكن الأخـذ بهـا ، مـا دامت لا تتـعـارض مع الفكر الإسلامي ، لأنه بخلاف ذلك ستضر بالوحدة الإسلامية والعمل في سبيل الإسلام .

يعتبر علي عزت بيكوفيتش في الباب الثاني من «البيان الإسلامي» أن النظام الإسـلامي يقـوم على الدين والمجـتـمع الموحـد ، أي أنـه «نظام العـقـيـدة ومـصلحـة المسلمين» وهو الذي يضـمن العـلاقـة بين الوحدة الروحيـة والدولة ، وهو نظام التطوع والواجب . انطلاقا من أن الاسلام ليس فقط ديانة إنما نظام اجتماعي متكامل .

ويشيـر إلى وجود ثلاثة مبـاديء في الإسلام لا يمكن تغيـيـرها ، تنظم العـلاقـة بين الناس :

١- أن النظام الإسـلامي هو النظام الوحيـد الذي يعـمل من أجل مـجـتـمع دولي أفضل .

٢- أن هذا النظام منفـتح نحـو العلم ، وأي نظرية علمـيـة يجب أن تحـتـوي في طياتها قـمة الإنسانية ، وأن تكون تعبيراً صادقاً للعلاقة بين الدين الإسلامي والعلم .

٣- أن هذا النظام هو تأكيد للعلاقة بين الدين والعلم ، بين الأخلاق والسياسة بين الفـرد والمجـتـمع ، بين الروحانيـة والمادية ، والإسلام في هذا المجـال خلاق لأنه يربط بينها جميعاً .

ولهـذا فـإن النظام الاسـلامي يرتكز على أسـاسين : المجـتـمع الإسـلامي ، والحكم الإسلامي ، ولا يمكن تحقيق نظام إسلامي من دونهما .

النظام الإسلامي لعصرنا يجب أن يعتمد :

- الفرد والمجتمع : المجتمع الإسلامي لا يمكن أن يقوم على العلاقات الاجتماعية والاقتصادية فقط ، لأنه في تركيبته الأساسية يحتوى على العلاقة الدينية القائمة على أساس أن الفرد عنصر في الجماعة ، والجماعة تقوم على أساس انتمائها الروحي حيث تكون العلاقات فيها بين الأفراد من خلال تعارفهم ، أي أن الفرد تربطه علاقة بفرد آخر وهكذا .

- المساواة بين الناس : يشير إلى أن المسلمين سواسية ، لا فرق بينهم إلا بالتقوى وأن الإسلام يرفض التقسيم والتفريق بين الناس ، وأن الفارق الوحيد بينهم هو بأعمالهم ، مسترشدا بالآية الكريمة (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)

- الأخوة في الإسلام : المسلمون أخوة ، يؤكد ذلك القرآن الكريم في سورة الحجرات الآية ٩ ، وانطلاقا من هذا يجد المسلم نفسه ملتزما بمصالح إخوانه المسلمين في أصقاع الأرض .

- وحدة حال المسلمين : الإسلام يحتوي كل المبادىء التي تضمن وحدة المسلمين : الإيمان ، الثقافة ، السياسة ، فالاسلام ليس قومية ، ولكنه فوق القوميات ، لأنه يوحدها.

إن النظريات التي تحاول التفرقة ، سواء على أساس مادي أو عقائدي أو طائفي وغيرها ، تتعارض والإسلام ، ووفق هذا المبدأ يجب علينا الإبقاء على وحدة الأمة الإسلامية ، فالاسلام له فكره ، والجامعة الإسلامية هي اتجاهه السياسي .

- الملكية : الإسلام يبيح الملكية الخاصة ، وهو لا يمانع الغني على أن يكون الإنسان صالحا ويكتسب وفق الشرع ، أما الموارد الطبيعية العامة فهي ملكية عامة ويجب الاستفادة منها لصالح كل أفراد المجتمع . ويورد الآية (لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) شهادة على موقف الإسلام من الملكيتين الخاصة والعامة .

- الزكاة والفائدة : الزكاة من أركان الإسلام ، وهي لتوزيع الأموال بين الناس بالعدل ، والإسلام يبيح استعمال السلطة لتطبيق نظام الزكاة . في حين أن الإسلام حرم الفائدة على الأموال لأنها تدخل في نطاق الربا .

- الشورى : الأمور الإسلامية أو ما بين المسلمين من أمور ، يجب أن تحكمها الشورى التي أمر بها الله . ولهذا فإن مبادىء الجمهورية الإسلامية ثلاثة :

اختيار أولي الأمر : واجباتهم تجاه الناس ، وإطاعة المجتمع لهم .

- لا إله إلا الله : الإسلام يقوم على وحدانية الله عز وجل . وكل الأمور بيد الله الذي لا شريك له ، حياة الإنسان ملك له ، الشكر يكون لله وحده ، والله وحده هو الذي يستطيع مساعدة الناس .

- النشء : النشء أحد القواعد الأساسية لاستمرار المجتمع الاسلامي ، فلا بد من الاهتمام به وتعليمه وتأديبه ، ويتم ذلك من خلال العائلة .

- التعليم : الإسلام لا يقف بوجه التعليم من أجل إعاقته ، كما يدعي البعض وإنما يحاول دائماً الحفاظ على الحضارة والثقافة والمبادىء الدينية ، لصيانتها ضمن الأطر الإسلامية ، فليس هناك أصح وأنفع من اكتساب العلم وتطبيقه. وبالنظر لكثرة عدد الأميين في البلاد الإسلامية ، يجب الاستعجال بتعميم المدارس والجامعات ،لكي لا يضطر المسلمون للتعلم عند الآخرين .

وليس المهم من أين نأخذ أو لا نأخذ العلم والتكنولوجيا ، لأننا يجب أن نأخذ إذا أردنا التقدم ، السؤال المهم هو : إلى متى سنبقى مستمرين في إضاعة التعلم ؟ وما هو مدى صيانتها لمعارفنا وثقافتنا وأخلاقنا ؟. وفي بداية التعليم تستطيع أن تقدم الجوامع والمساجد الحقيقية كالمدارس . وإذا لا يكون هذا في مناهجنا يمكن أن نبقى مهزومين .

- حرية الرأي : إن التربية الصحيحة للشعب تتطلب خصوصاً أن تكون وسائل الاتصال الجماهيري : الصحافة ، الإذاعة ، التليفزيون ، والأفلام ، بيد أشخاص يحسنون تقديمها بسجايا إسلامية .

وهذا لا يعني أن الفكر في النظام الإسلامي يخضع للديكتاتورية ، إنما يعني الحفاظ على نسق الأخلاق وصلاح تربية النشء .

وتطور المجتمعات الإسلامية لا يمكن أن يتم بمعزل عن الدين . ولا يمكن أن ينجح من دون الثورة الإسلامية ، وطريقنا يقوم على كسب الإنسان ، وليس الاستيلاء على السلطة .

- الإسلام والاستقلال : لا يوجد نظام إسلامي من دون الاستقلال والحرية.وبالمقابل لا يوجد استقلال وحرية من دون الإسلام ، وهذا الوضع أخيرا له مقصدان : الأول: أن الاستقلال يكون حقيقيا ودائما فقط إذا جاء نتيجة لسيطرة الروح الدينية ، أي استقلالية الفكر سواء بالنسبة للفرد أو المجتمع ، والثاني : أن السند الفعال الذي يقدمه أي شعب مسلم ، يتوقف على مدى التزام النظام بالسجايا الإسلامية في أسلوب الحكم .

والنظام الديموقراطي بهذا المفهوم ، هو الديموقراطية من حيث المبدأ ، وليس الديموقراطية كنظام يتحكم بقوانينه أحد الأطراف ، من دون أن تكون هناك سلطة فعلية تؤثر عليه.

- العمل والجهاد : المجتمع الإسلامي يجب أن يأخذ على عاتقه تجنيد الناس والموارد الطبيعية من أجل الصالح العام بعمل مرموق . ونشاط واستمرار المجتمع الإسلامي أو عدم استمراره يعتمد على قانون العمل والتعاون بين الناس ، وبهذه النظرة فإن مجتمعنا يتمتع بميزة أن الله لن يقطع عنه العون .

وحسب فكرنا فإن الحالة النفسية تتطلب الإيمان بمنتهى الأخلاق من أجل انتظار أقصى المساعدة .

- المرأة والعائلة : موقع المرأة الحالي في المجتمع الإسلامي يجب تغييره وتحسينه بما يتناسب ودور المرأة كأم ومربية طبيعية للنشء ، ولا بد من تعليم المرأة ورفع مستواها التثقيفي والتعليمي لكي تقوم بهذا الدور . والحريم كانت لهم نهايتهم، وليس لأحد الحق ليدعو باسم الإسلام لإبقاء النساء كما هم ، وكل أنواع هذا الاستغلال يجب أن تكون له نهاية .

- الغاية لا تبرر الوسيلة : الجهاد في سبيل الإسلام يسمح باستعمال كل الوسائل الممكنة . ما عدا الجريمة أي الإرهاب ، ومن غير المسموح به لأحد أن يلطخ وجه هذا الجهاد باستعمال القوة لإخضاع الآخرين باسم الإسلام ، لأن أساس المجتمع الإسلامي هو العدالة . والقرآن لم يطلب منا أن نحب الأعداء ، إلا أنه أمرنا أن نكون عادلين تجاههم ، وأن نغفر لهم عندما يكون ذلك باستطاعتنا ، أما ما يتعلق بمتطلبات استعمال القوة ، فيكون ذلك عند الحاجة إلى فرض الأمن والاستقرار.

- الأقليات : النظام الإسلامي يجب أن يتحقق في البلدان التي يشكل المسلمون غالبية سكانها ، وبغير هذه الغالبية لن يكون النظام الإسلامي في قمة الحكم . والأقليات غير المسلمة في البلدان الإسلامية تكون لها الحرية الدينية ، والحقوق المصانة ، وموقع الأقلية الإسلامية في المجتمعات التي ليست ضمن الوحدة الإسلامية يتوقف ضمان حريتها الدينية وحياتها الاعتيادية ، وتقدمها على وحدتها تجاه أي ضرر يلحق الإسلام والمسلمين .

ومكانة الأقليات الإسلامية في البلدان التي ليست ضمن الوحدة الإسلامية، يعتمد دائماً على تماسكها القوي . واهتمام جامعة المسلمين الموحدة بها .

- العلاقة بالنسبة للمجتمعات الأخرى : تقوم العلاقة بين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الأخرى في العالم على المبادىء الآتية :

١- حرية المعتقد الديني .

٢- مبدأ استعمال القوة للدفاع عن النفس .

٣- تحريم الحرب العدوانية والإجرام .

٤- التعاون المشترك والتعارف بين الأشخاص .

٥- احترام الوعود والتعهدات .

٦- الاحترام المتبادل .

وفي الباب الثالث من كتاب البيان الإسلامي : يعدد على عزت بيكوفيتش مشاكل النظام الإسلامي الحالية ، ويسأل «هل البعث الإسلامي هو إيماني أم ثورة سياسية ؟ والنظام الإسلامي هو الوحدة الدينية ونظام اجتاعي - سياسي ، وهل تطبيقه يتم من خلال الإيمان أو الثورة الإسلامية ؟

وجوابا على هذه المسألة نقول : إن التطور الإسلامي لا يمكن أن يقوم إلا على أساس ديني . ولا يمكن أن يكتب له النجاح دون الثورة الإسلامية . ماذا تعني النهضة الدينية بالنسبة للحركة الإسلامية ؟ إنها تقدم العلاقة لمعرفة أمرين : الوعي الجديد والمحبة الجديدة.

وفي الانبعاث الاسلامي علينا أدراك أمرين مهمين : الأول جاء في القرآن الكريم: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) والثاني : لنا قانون في تجربة الإسلام الأولى وكفاح محمدﷺ . إن الدين الإسلامي في السنوات الـ ١٣ الأولى كان يهتم فقط بالأسس الدينية . ولم يتعرض للقضايا الاجتماعية أو المشاكل السياسية أو أي نموذج قانوني اجتماعي إسلامي .

وفي الانبعاث الإسلامي ننتظر أيضاً ثلاثة أمور مهمة :

١- فقط النهضة الإسلامية تستطيع أن تقودنا نحو الهدف الصحيح ، وهذا لن يتأتى إلا بالتمسك بتعاليم القرآن .

٢- وجود الاستعداد لدى المسلمين للتضحية من أجل هذا الانبعاث.

٣- بسبب التخلف في المجتمعات الإسلامية لابد من وضع برنامج تعليمي وتثقيفي مكثف .

الحكم الإسلامي

علينا أن نعلم أن النهضة الدينية لا يمكن أن تعني أن النظام الإسلامي ممكن أن يقوم من دون الحكم الإسلامي . والمواطن في الدولة الإسلامية يجب أن يكون قبل كل شيء مسلما مؤمنا ثم مجاهداً ، إننا نناهض الذين يتهمون الإسلام أو الشعب الإسلامي والأمة الإسلامية بإعاقة التقدم .

يتطرق كمثال لدولة تتخذ الإسلام نظاما للحكم جمهورية الباكستان ويعتبر أن التجربة غير ناجحة ، وفق المفهوم الذي يهدف إليه هذا البيان . لأن حقيقة أساس الحكم لم يقم بشكل كامل على الإسلام . ولم يعمل على تثقيف الشعب لرقي النموذج وأنه لم يستطع أن يستقطب الأمة الإسلامية للعون . على رغم أنها (تجربة الباكستان) نوع من الأمل .

الإسلام والمفهوم القومي

إن الإسلام أمام مهمة طبيعية ، وهي تحقيق مآرب المسلمين بإقامة أمتهم الواحدة من المغرب حتى أندونيسيا ومن أواسط أفريقيا الحارة إلى أواسط آسيا الباردة .

وأن إقامة المجتمع الإسلامي الموحد ليست فكرة أحد . وليست رغبة جامحة لأي كائن . وإنما هي تقوم على ما ورد في القرآن بأن المسلمين أخوة وأن الإسلام يوحد المسلمين في صيامهم وحجهم إلى مكة .

وبالنسبة لنا مثلا: شعب كامل اليوم مجزأ ، شعب واحد كالعربي من الضروري أن يكون بحكم موحد ، هذه مسألة إسلامية مهمة ، إن المسلمين في مصر لا يشعرون بمعاناة المسلمين في أثيوبيا أو كشمير . في الوقت الذي لا تستطيع فيه البلدان العربية الحد من قساوة إسرائيل . من هذا يعني أن هناك شيئا غير عادي بوحدة الشعب العربي يجب أن يكون الصحيح بالوحدة الإسلامية .

وأن فكرة القومية في الدول الإسلامية فكرة دخيلة أجنبية ، جاء بها عدد من المثقفين من سورية انهوا تعليمهم في أوربا وأميركا ، وسبقتهم بذلك تركيا ، من خلال كمال أتاتورك ، ونجدها أيضا في دول إسلامية أخرى ، إن هذه الفكرة القومية غريبة عنا ، لأن مفهوم الأمة الإسلامية هو الصحيح .

وأن فكرة القومية الدخيلة ، نجدها بما تزرعه بشأنها أيضا الجامعات الأجنبية في بيروت . وما بثه سوكارنو في أندونيسيا ، وحزب البعث في الدول العربية ، وبالنسبة لفلسطين . كانت دائماً بالنسبة للمسلمين في موضع القلب . وبالنسبة للقوميين بضاعة مستوردة ، والقدس ليست فقط مسألة الفلسطينين أو العرب ، وإنما هي قضية الإسلام والمسلمين .

ويتطرق إلى الديانتين المسيحية واليهودية من منظور القرآن الذي يقتضي التعامل وفقه مع معتنقي هاتين الديانتين .

ثم يتطرق إلى الاشتراكية والرأسمالية وتطور المجتمعات خلال الـ ٢٠٠ سنة الأخيرة ، وتطور الرأسمالية اعتباراً من بداية الحرب العالمية الثانية ، ويشير إلى أنه ثبت عدم صحة الفرضيات الماركسية للأسباب الآتية :

١- التضارب بين القوى العاملة وقوى الإنتاج في النظم الاشتراكية .

٢- أن القوى العاملة في المجتمعات الرأسمالية تشكلت هي الأخرى من دون الاعتماد على الوسائل الثورية .

٣- أن العلاقة ما بين البنية التحتية والبنية الفوقية ، ليست بالشكل المثالي الذي تكلم عنه ماركس .

إن ما قدمته هو عبارة عن تلخيص تطور النظام الإسلامي في أماكن تجمع المسلمين وانبعاثهم . الكثيرون سيتساءلون عن القوى التي سيكون بمقدورها أن تحقق الانبعاث للمسلمين ، نحن نرى بأن ذلك يعتمد على الأجيال المسلمة المقبلة هذه الأجيال التي تشكل مائة مليون شاب وشابة ولدوا في الإسلام ، وتربوا في مرارة الهزيمة التي تربط فيما بينهم والذين سيرفضون العيش على الأمجاد القديمة

والمساعدات الأجنبية ، الذين سيجتمعون على أهداف مشتركة حقيقية تؤمن لهم الحياة الكريمة ، الذين يحملون في داخلهم القوة والطاقة القادرة على تحقيق المستحيل وسيواجهون بها الصعاب .

هذه الأجيال لم يكن من الممكن أن تكون موجودة في الماضي ، لأنه كان لابد من المرور في فترة اضطراب ، ولابد من إثبات عدم قدرة الأرباب الكاذبين والأباء المتخلفين المختلفي الأوطان .

كان لابد أن نضرب في سيناء . ولابد من اضطهاد الأندونيسيين . ومن هزة في الباكستان ، كان لابد أن يتكلم الكثيرون عن الحرية وعن العيش الأفضل وعن الثورة.

كان لابد من ميلاد الطغاة ومن قهر الفقراء ، كان لابد من هذا كله . لميلاد الزمن الذي تبدأ فيه هذه الأجيال بأن ترى بوضوح عدم جدوى البحث في الفراغ ، وأن مخرجها الوحيد بتجمع إسلامي واحد . عندما تتجه هذه الأجيال إلى داخلها وتعتمد على روحانيتها ومصادرها المادية ، أي عندما تعتمد على الإسلام والمسلمين .

العالم الإسلامي الآن متعدد الشعوب والجنسيات والقوانين التي تحكمه ، ولكن الشيء الوحيد الذي يربط بين هذا كله هو القرآن ، الذي يقرأ في كل أصقاع العالم الإسلامي ، من الهند إلى الجزائر إلى نيجيريا .. إذ يشعر الجميع بانتمائهم إلى المجتمع الإسلامي ، وهذا ما يشكل مصدر الطاقة التي ستحرك العالم الإسلامي القائم على الانتماء الإسلامي ، والجمالية الإسلامية ، التي تقوم بربط هذه المشاعر فيما بينها الجمالية التي تتشكل بصورة عبقرية الشعوب وتتحول إلى أمثلة حية في حياة الإنسان المسلم.

هذه الحقائق لا تعني فقط أنها تهدف إلى عالم إنساني أفضل ، وإنما تعني أيضا عالماً أفضل ، والعالم الإسلامي حي لأنه يقوم على المحبة والمشاعر ، ولا يقوم على موت الآخرين . العالم الإسلامي ليس صحراء بل إنه الواحة التي تنتظر لكي تزيدها جمالا وانطلاقا من هذه الحقائق ، إن مهمتنا يكتب لها الحياة أكثر وأكثر ، وهذه

الحقيقة تتكون من أن هذه المشاعر التي هي مصدر القوة ، يجب أن نحولها إلى قوة حقيقة ، إنه لابد من تطبيق القرآن ، والمشاعر الإسلامية لابد من وضعها في أطر تنظيمية ، تخلق مجتمعا موحدا انسانيا بأفكار واضحة ، ذات علاقات حضارية واجتماعية ، تحوي في طياتها قوانين المستقبل ، ومؤسسات مجتمع هذا المستقبل .

أي أن المشاركة في الحدث تعني مشاركة في المجتمع ، وأي نضال هو النضال الجماعي المنظم ، والأجيال الشابة سوف تستطيع القيام بواجباتها ، إذا كانت طموحاتها وأفكارها قد وضعت في حركة منظمة ، ضمن مؤسسات سبل منسقة وعمل مشترك .

إن خلق هذه الحركة بهدف مشترك ، وبرنامج موحد ، هو شرط مهم ، ونقطة صالحة للانطلاق والانبعاث ، في كل الدول الإسلامية .

إن هذه الحركة سوف تضم في صفوفها المسلمين . وتنشيء وتحقق الأهداف المنشودة وسوف تجد السبل السليمة لتحقيق ما تصبو إليه من خلق للحياة وتوفير معاني التحرك ، وستكون معبرة عن ضمير ورغبة المجتمع الإسلامي ، الذي طالما كان يطمح إلى ذلك ، نقول هذا ونحن على ثقة بأنه لا يوجد هناك شيء اسمه «أرض الميعاد» أو «زمن المعجزات» ولا يوجد المهدي الذي ننتظر وعده . فقط إن الذي نوعده نحن هو فقط العمل والنضال والتضحية .

وعندما نقدم على هذا العمل نكون واثقين بأننا نعتمد على إيماننا بالله وعلى ثقة الشعب .

المسلمون في البوسنة والهرسك في عهد تيتو

لابد من الإشارة إلى أن "جوزيف بروز تيتو" قد بذل جهوداً مضنية لإذابة الفوارق بين العرقيات المختلفة التي تتواجد على أرض يوغوسلافيا في عهده .

وقبل أن نتعرض لبيان هذه الجهود ، لابد من إلقاء الضوء على هذا الرجل . فنقول: ينحدر تيتو من إقليم (كرواتيا) ، وهو شيوعي المذهب ، تعلم الشيوعية واعتنقها وهو رهين أحد سجون روسيا أثناء الحرب العالمية الأولى ، وبعد خروجه من السجن انضم في روسيا إلى جماعات البلاشفة ، حيث شارك معهم في الحرب الأهلية حتى عام ١٩٢٣م وأصبح جنديا في الحرس الأحمر ، ثم عميلا للمخابرات الروسية الدولية .

ثم عاد إلى (كرواتيا) وأسس حزبا شيوعياً لم يعترف به قانونياً ، وزج به في سجن يوغوسلافيا من عام ١٩٢٨م إلى عام ١٩٣٤م . وبعد خروجه من السجن، نفى إلى موسكو مرة أخرى ، ومن موسكو نفى إلى باريس . وعندما اشتعلت الحرب العالمية الثانية ، واحتل الألمان يوغوسلافيا ، قاد حركة المقاومة من يونيو ١٩٤١م واستطاع أن يجمع حوله كل العناصر ذات العرقيات والطوائف والميول المختلفة ويصهرها في بوتقة واحدة ، ذات هدف واحد ، ضد الألمان النازيين المحتلين لبلاده . مستغلا في هذا انحياز حاكم يوغوسلافيا (الأمير بول) إلى جانب الألمان المحتلين ، مما أثار سخط الشعوب اليوغوسلافية على هذا النظام الملكي الحاكم . الأمر الذي فتح الباب أمام تيتو ليصل إلى الحكم .

هذا : وتجدر الإشارة إلى أن تيتو أخذ يعمل على إبعاد يوغوسلافيا تدريجيا، عن موسكو ، وبدا ذلك عندما برز الدور الاستقلالي للحزب الشيوعي اليوغوسلافي عن الحزب الشيوعي السوفيتي ، على عكس باقي الأحزاب الشيوعية ، التي كانت تحكم باقي بلدان أوربا الشرقية . وهكذا حدثت القطيعة بين تيتو وستالين في عام ١٩٤٨م.

وكانت هذه القطيعة سبباً في فتح آفاق جديدة ليوغوسلافيا ، كي تنفتح على العالم الخارجي ، سواء في الغرب أو في دول العالم الثالث .

فمنذ عام ١٩٥٢م . وعلى المستوى الداخلي ليوغوسلافيا ، ظهر مشروع للتنمية الاقتصادية (مشروع التيسير الذاتي) وأهم ما يميز هذا المشروع أنه - مع احتفاظه بصفته الاشتراكية وفقا لمفهوم تيتو - قد أعطى قدرا كبيراً من الاستقلالية لواحدات الانتاج ، لإعطاء سلطة أكبر في إدارة الإنتاج ، على تجمعات العمال المالكين لهذه الوحدات بدلا من الدولة ، غير أن هذا المشروع في ظل (الفيدرالية) تضمن تناقضاً وهذا التناقض قد ساعد على بروز الصراع الذي نحن بصدده اليوم .

وبيان ذلك : أن الفيدرالية دعمت التحالفات المحلية ، ذات المصالح والروابط العرقية . مما أوجد حالة من عدم التوازن في التنمية بين الأقاليم ، ومن أجل ذلك فإن هذا المشروع قد ضاعف من الفوارق الاقتصادية والاجتماعية الموجودة بالفعل بين القوميات المختلفة ، وكانت في الأساس على حساب مسلمي البوسنة .

هذا فيما يتعلق بالمستوى الداخلي ليوغوسلافيا.

أما فيما يتعلق بالمستوى الخارجي ليوغوسلافيا في عهد تيتو . فقد تزعمت يوغوسلافيا مع مصر والهند (حركة عدم الانحياز) بين الشرق والغرب ، ومن خلال هذا. برزت فعالية الدور الذي لعبته يوغوسلافيا على صعيد العلاقات الدولية ، مما دعم مكانتها الدولية بين دول العالم الثالث ، الأمر الذي استفادت منه في تنويع علاقاتها الاقتصادية والعسكرية مع دول الغرب ومع دول العالم الثالث .

هذا : وقد استطاع تيتو أن يشكل جيشاً اتحادياً قويا ، يتكون من ربع مليون من الجنود المسلحين بحوالي (٢٠٠٠) دبابة روسية وأمريكية ، وأكثر من (٣٠٠) طائرة مقاتلة حديثة ، وعدة مئات من طائرات الهليوكوبتر ، تم توزيعها على الحدود ، وفي مواقع على جمهوريات الصرب وكرواتيا وسلوفينيا ، بينما حرمت منها البوسنة ومقدونيا.[1]

كما استطاع أن ينشيء صناعات حربية حديثة خلال سنوات قلائل ، نجحت في

(١) من وراء ضياع البوسنة ص ٥٠ ، ٥١

تلبية ثلاثة أرباع احتياجات القوات المسلحة اليوغوسلافية ، وظهر هذا الإنتاج في الأسواق العالمية الموردة للسلاح ، وبخاصة لدول العالم الثالث ، مما شكل منافسة شديدة في هذا المجال للدول الغربية والسوفيتية .

وقد بذل تيتو جهوداً ضخمة في تحديث يوغوسلافيا على الرغم من أن الجيش كان نصيبه من الميزانية الفيدرالية ٥٠٪ ، وبالطبع فإن ذلك كان على حساب ضعف التنمية في جمهورية البوسنة والهرسك ، التي لم تكن تأخذ نصيبها العادل من مشروعات التنمية . في الوقت الذي كانت تدفع فيه البوسنة حصتها للميزانية ، ولا تأخذ أيضاً نصيبها العادل من نصفها الموجه إلى التسليح ، كي تدعم قوتها وصناعتها .

تيتو والتناقضات العرقية والدينية

في مقولة مشهورة لتيتو: {إن يوغوسلافيا عبارة عن حروف مختلفة مكتوبة (السيريلية واللاتينية)} وثلاثة أديان : (الأرثوذكسية والكاثوليكية والإسلام) وأربع أمم :(الصرب والكروات والسلافيون والمقدونيون) وخمس لغات :(السلوفينية والصربوكرواتية والمونتلنجزية والمقدونية والألبانية) وست جمهوريات: (سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة والجبل الأسود والصرب ومقدونيا).

ومن خلال هذا التناقضات التي تضم الجمهورية اليوغوسلافية السابقة ، والتي تشكلت بالقهر الشيوعي ، عقب التحير من قوات النازي عام ١٩٤٥م . حاول تيتو صهر هذه التناقضات العرقية والدينية في بوتقة الحزب الشيوعي اليوغوسلافي الواحد ومما اتخذه في هذا الشأن أنه أجرى تنقلات جماهيرية على نطاق واسع . تارة بالإغراء وتارة بالقهر في بعض المناطق ، من أجل تمييع التفوق السكاني لعرقية معينة في منطقة معينة.

ويلاحظ أنه تأثر في هذا العمل بما حاوله ستالين وغيره ، من قادة الدول الشيوعية

للقضاء على النعرات العرقية لدى الشعوب المختلفة ، مما كان سببا في تفجر الصراعات الحالية داخل جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق بعد استقلالها.

لكن هذا ما حدث ، وترتبت عليه نتائج وخيمة ، ومع ذلك صيرت شعوب الاتحاد الفيدرالي اليوغوسلافي - على كره ومضض منها - طوال حكم تيتو ، الذي كان يعرف جيدا كيف يمسك بمفاتيح الضغط ، وصمامات الكبح ، لكنها أمست قنبلة موقوتة شديدة الانفجار والاشتعال ، انفجرت بصورة مدوية بعد رحيله عندما أعلن تفسخ الاتحاد اليوغوسلافي في عام ١٩٨٩م[١]

البوسنة والهرسك بعد رحيل تيتو

بعد هذا العرض الموجز - فيما يتعلق بتيتو - نستطيع أن تقول : إنه قد نجح في التحكم في التناقضات الموجودة بين مكونات الاتحاد اليوغوسلافي ، وداخل جمهورياته غير أنه بعد رحيله عام ١٩٨٠م لم تجد جمهوريات يوغوسلافيا شخصية لها ثقلها السياسي أو التاريخي ، هذا فضلا عن الفشل في التأقلم مع المتغيرات التي سادت بلدان شرق أوربا ، وسقوط الهياكل الفيدرالية في الاتحاد السوفيتي .

كل ذلك أوجد متنفسا للمطابع الصربية والكرواتية ، لكي تطفو على السطح والعجيب أن الصرب والكروات لم يكتفيا بما حققاه من مكاسب توسعية أيام الحرب العالمية الثانية ، وإنما تفتحت شهيتهما لأخذ المزيد على حساب البوسنة والهرسك،بل على حساب بعضهما البعض ، الأمر الذي أدى إلى تفجر الصراعات في أنحاء يوغوسلافيا وفشل أسلوب حكم يوغوسلافيا جماعياً بواسطة (مجلس الرئاسة)، الذي تشكل عقب رحيل تيتو ، والذي كان مفاده (بأن يتولى رئاسة الاتحاد واحد من رؤساء الجمهوريات الست في الاتحاد الفيدرالي) . وكان هذا الفشل بمثابة الشرارة التي فجرت الصراع في أنحاء يوغوسلافيا.

---

(١) نفس المصدر ص ٥٢ ، ٥٣

وقبل أن نتناول هذا الصراع بالتفصيل يجدر بنا أن نشير إلى فرية ، روج لها الصرب ومن يناصرونهم في أوربا اليوم .

الأمة الإسلامية في يوغوسلافيا حقيقة تاريخية

يروج الصرب وأتباعهم ومن يناصرونهم في أوربا اليوم . فكرة مختلقة يكذبها التاريخ. وهذه الفكرة تدور حول تاريخ المسلمين في البوسنة والهرسك ، وتزعم أن الأمة الإسلامية في يوغوسلافيا بدعة مصطنعة من فعل الشيوعيين ، وأن وضع المسلمين في يوغوسلافيا ارتقى فقط بواسطة تيتو حين جعل لهم جنسية معترفا بها ، وأنه هو الذي جعل منهم أمة لها كيان .

ومن العجب أن هذه الأفكار ليست قاصرة فقط على الصرب والكروات ، وإنما تنتشر في مناطق كثيرة من أوربا ، لدرجة أنهم سطروها في كتب التاريخ والجغرافيا التي تدرس في المدارس الأوربية ، وتتضمن إنكاراً كاملاً لوجود شعب مسلم في البوسنة والهرسك .

والواقع أن هذا محض افتراء ، يشهد على ذلك ما يشير إليه التاريخ الحقيقي لهذه المنطقة ، حيث يذكر هذا التايخ أن وجود الشعب المسلم قديم في يوغوسلافيا. وقد سجلنا هذا أثناء عرضنا لدخول الإسلام في بلاد البلقان وأشرنا هناك إلى أن المسلمين يوجدون في يوغوسلافيا حتى من قبل الفتح العثماني .

إذن : فالوجود الإسلامي في هذه البلاد قديم ، غير أن الاعتراف به سياسيا في هذه الدولة التي كانت شيوعية تستنكر القوميات والأديان ، تم في نهاية الستينات على أيدي نظام تيتو .

وقد وجد هذا القرار خير تجسيد له عام ١٩٧١م عندما تمكن السلافيون المسلمون من جعل الدولة تعترف بهم كسلالة عرقية مسلمة للمرة الأولى خلال عملية إحصاء للسكان.

ثم أقر هذا القرار من خلال دستور ١٩٧٤م . وهو الذي أعطى السلافيين الناطقين باللغة الصربية والكرواتية ، وذوي العقيدة الإسلامية ، صفة الشعب الكامل وجعله شعباً من الشعوب المكونة ليوغوسلافيا .

ومن هنا : فإن جميع المتخصصين في تاريخ يوغوسلافيا ، يتفقون على نقطة أساسية وهي : أن قيام دولة إسلامية في يوغوسلافيا ، إنما يعكس حقيقة هوية خاصة ظهرت بشكل واضح في نهاية القرن التاسع عشر ، بعد أن كانت قد تأصلت من خلال خمسة قرون من الحكم العثماني .

ومن هنا أيضاً : يمكن أن نؤكد على أن شعور الانتماء لشعب البوسنة بذاته ، يرجع إلى عهد أقدم بكثير من عهد تيتو ، حيث الديانة من الأتراك ، والسلالة العرقية واللغة من السلافيين .

وهذا التحجيم ، والتهميش ، الذين عاناهما مسلموا البوسنة بعد سقوط الامبراطورية العثمانية ، ثم الامبراطورية النمساوية - المجرية ، وظهور الدول والأمم الأرثوذكسية والكاثوليكية في مناطق البلقان الشاسعة ، كل هذا أدى إلى إثارة شعور وطني حقيقي لدى مسلمي البوسنة ، وتأكد هذا الشعور أمام محاولات الاستيعاب التي قام بها الصرب والكروات ، وكان من الممكن - نتيجة لهذا الحقد - أن يزول المسلمون والبوسنة معهم ، لولا أن المسلمين راحوا يؤكدون هويتهم من خلال القيام بحركات سياسية ، ومن خلال الانتظام في مؤسسات ثقافية متعددة . غير أن جهودهم لم تثمر سوى القليل ، وذلك عندما بدأ الصرب في اضطهاد المسلمين ، بعد حروب البلقان التي دارت رحاها في يوغوسلافيا الأولى .

ومما يؤكد عراقة المسلمين وتاريخهم في هذه البلاد ، وجود آثار ومعالم إسلامية ضخمة في مدن البوسنة والهرسك - وهي لم تبن في يوم وليلة - وإنما يضرب بعضها في أعماق الماضي . ومن هذه المعالم الإسلامية : المساجد الكثيرة التي يبلغ عددها (١٥٠٠) مسجد تقريباً . وهي من أروع نماذج الحضارة الإسلامية ، ويقع الكثير منها في العاصمة سراييفو ، ومن أهمها : مسجد (البساي) الذي أقيم عام ١٥٣٠م وهو

من أكبر مساجد البلقان ، بل ومن أعظم مساجد أوربا . ومسجد علاء الدين باشا ومسجد أمين بك ، وهما مسجدان في قمة الروعة والجمال ، حيث يعكسان فن المعمار الإسلامي القديم .

هذا عدا الكتبات الإسلامية الهامة ، وفي مقدمتها مكتبة سراييفو ، التي تحتوي على أكثر من (٥٠٠٠) آلاف مخطوطة إسلامية ثمنية ، تمثل ذاكرة شعب البوسنة وكذلك مكتبة خسرو بك (١)

كما أنشيء إتحاد إسلامي عام - في يوغوسلافيا السابقة - يرأسه رئيس العلماء وله فروع في عواصم أربع جمهوريات من يوغوسلافيا هي : سراييفو وسكوبيا عاصمة مقدونيا ، وتيتوجراد عاصمة الجبل الأسود ، وبرشتنيه عاصمة كوسوفو ، وهذه المجالس تقوم بتنظيم شئون المسلمين ، هذا بالإضافة إلى وجود مدارس عليا في المدن الكبرى للعلوم الإسلامية .

وقد تأسست (حركة الشبان المسلمين) في منتصف القرن العشرين ، لتكون حركة خيرية إنسانية دينية لا علاقة لها بالسياسة . أسسها عالمان مسلمان في البوسنة هما: الشيخ (محمد خانجيج) والشيخ (قاسم دويراجا) وكانا قد درسا العلوم الإسلامية في كلية الشريعة بالأزهر . وكان لهذه الحركة دور هام في رفع مستوى الثقافة الإسلامية هناك .

ولا تحسبن الإسلام وقف عند حدود البوسنة والهرسك بل امتد به المسلمون إلى مدن أخرى في يوغوسلافيا ، وذلك عن طريق الشبان المسلمين ، الذين كانوا يهاجرون إلى المراكز الصناعية طلبا للعمل ، والذين لم ينسهم زعماء المسلمين هناك . بل أقاموا لهم مراكز إسلامية في المدن التي تجمع فيها عدد منهم ، ونتيجة لذلك ظهرت المساجد والمدارس الإسلامية في مدن : بسولا وربيكسا وأوسبيك وسيساك .. وغيرها.

كما تخطى الزحف الإسلامي حدود يوغوسلافيا ، ليتابع من هاجر من الشـــبان

(١) من وراء ضياع البوسنة ؟ ص٥٨

المسلمين إلى بعض الأقطار المحيطة بها ، بل والبعيدة عنها ، ومنها : ألمانيا الغربية قبل التوحد ، والنمسا واستراليا والولايات المتحدة .

وإنما كانت عناية زعماء المسلمين في البوسنة والهرسك بهؤلاء المهاجرين في كل مكان ، ليظلوا دائماً على صلة بالوطن الأم وبدينهم الإسلامي ، وليكونوا دعاة لدين الله في أماكنهم ، ووجها مشرقا يعكس حقيقة الإسلام وجوهره الأصيل.

وبعد : فإن ما يجري لشعب البوسنة اليوم من عمليات إبادة ، بدأت شرارتها في ربيع عام ١٩٩٢م ما هو إلا حلقة في مسلسل تعرض له مسلمو البوسنة منذ أفول نجم الدولة العثمانية ، إنه الحلقة التاسعة التي سبقتها ثماني حلقات تتابعت منذ بداية القرن الثامن عشر ، وكان هدفها الأوحد هو اقتلاع الإسلام والمسلمين من هذه المنطقة . فمنذ عام ١٧١١م وهو الذي وقعت فيه مذبحة المسلمين في الجبل الأسود - كما سبق - وحتى الآن أي طيلة ٢٨٢ عاماً ، وعملية تصفية المسلمين وهدم مساجدهم وبيوتهم مستمرة. [١]

(١) نفس المصدر ص ٦٠

الفصل الرابع

المسلمون والصراع والحرب الأهلية
عام ١٩٩٢م

لعل مما فجر الموقف في البوسنة والهرسك وكان في مقدمة الأسباب في اشتعال حرب التصفية للمسلمين هناك . ظهور كتاب عن تاريخ العلاقات الدامية ، بين شعوب يوغوسلافيا وقومياتها وأديانها .

وهذه الكتاب أصدره الرئيس الكرواتي (توديمان) في عام ١٩٨٩. وقد أثار صدور هذا الكتاب كل أحقاد الماضي ، حيث انتهى إلى خلاصة هي : أن كرواتيا دولة قائمة منذ زمن بعيد ، وأن الكرواتيين يفضلون العيش في إطار قومي يجمعهم وحدهم دون سائر القوميات الأخرى .

وفي الوقت ذاته عمدت صحيفة (فيسنيك) الكرواتية ، إلى نشر حلقات أعادت من خلالها الأحداث الدامية التي وقعت بين الكرواتيين والعثمانيين قبل حوالي (٤٠٠) سنة .

وقد تحمس كاهن كرواتي كاثوليكي فراح يصب زيت الحقد على النار العصبية والعرقية المشتعلة في يوغوسلافيا ، وذلك حين دعا صراحة إلى الثأر من مسلمي كرواتيا ، وأخذ من يبقى منهم حيا رهينة ، مقابل الكرواتيين الذين يقيمون في البوسنة.

وهنا تلقف الصرب هذه الدعوة ، ووجدوها فرصة طالما تمنوها ، ليبدأوا حرب التصفية ضد المسلمين البوسنيين ، والكاثوليك الكرواتيين معا.

الأمر الذي دعا على عزت بيكوفيتش رئيس البوسنة إلى إعادة إصدار بيان يدعو فيه إلى إقامة نظام إسلامي في جمهورية بوسنية مستقلة .

وكان - كما سبق وقلنا - قد أطلق هذه الدعوة في مطلع الثمانينات قبل انهيار النظام الشيوعي في يوغوسلافيا فحُوكِمْ وسُجِن.

وهنا بدأ الصدام بين الجمهوريات التي تقودها جبهات المعارضة ، التي فازت في الانتخابات في (كرواتيا وسلوفينيا) ، وبين الحزب الشيوعي الذي . فاز في

جمهوريات (صربيا والجبل الأسود) . حيث بدأت الأولى (جمهوريات المعارضة) في المطالبة بإعادة النظر في الرابطة الاتحادية ، واستبدالها برابطة أخرى كونفدرالية أي : تخفيف قبضة السلطة المركزية على الجمهوريات . وأن البديل لذلك هو الانفصال عن الاتحاد وإعلان الاستقلال .

وعلى أثر ذلك : أعلن برلمانا جمهوريتي سلوفينيا وكرواتيا الاستقلال في ٢٥ من يونيو ١٩٩٠م ، واعترفت مجموعة الدول الأوربية باستقلالهما في ٢٥ يناير ١٩٩٢م[1]

وعندما أعلن في (زغرب) الكرواتية . قائدة مسيرة التطور الاقتصادي والصناعي في يوغوسلافيا السابقة - عن فتح باب الانتخابات عام ١٩٩٠م ، أيدت جبهة المعارضة القوية (فرانكو تودجمان) الكاتب والمؤرخ السابق والبالغ من العمر ثمانية وستون عاماً ، والذي سبق سجنه في أيام تيتو ، والذي كان مصرا على معارضة الهيمنة الصربية ، التي انتهزت رحيل تيتو وانطلقت من عقالها ، لتنادي بإقامة دولة الصرب الكبرى ، ومما زاد الموقف توتراً أن جمهورية الصرب صرحت بأنها ستضم إليها كل المناطق التي يعيش فيها أغلبية صربية ، سواء أكانت في كرواتيا أو في البوسنة والهرسك أو غيرهما . هذا فيما يتعلق بالجمهورية الأولى من جمهوريتي المعارضة .

أما فيما يتعلق بالجمهورية الثانية من جمهوريتي المعارضة وهي (سلوفينيا) فبرغم أن عدد سكانها مليونان ويشكل ٨٪ من سكان الاتحاد اليوغوسلافي السابق ، إلا أنها كانت توفر ٢٠٪ من مجمل الدخل القومي ليوغوسلافيا ، وثلث مجموع الصادرات إلى أوربا والغرب ، وكان عليها أن تعطى للأتحاد الفيدرالي معظم عائدها دون أن يسمح لها بالمشاركة في أوجه إنفاقه برغم أن هذا العائد يشكل ٢٧٪ من ميزانية الحكومة الفيدرالية وبرغم هذا كله : بدأ الصرب يتحرشون بها في عام ١٩٩٠م وأخذوا يتهمون السلافيين بالهمجية وعدم التحضر ، وقامت جماعات تكونت

---

(١) نفس المصدر : ص ٦١

من الشباب الصربي المتعصب. واتجهت في قوافل بالسيارات إلى (لوبليانا) وهاجموا أهلها واعتدوا على منازلهم وتجاراتهم ، كما قطعت الصرب علاقاتها التجارية مع سلوفينيا ، وألغت أكثر من خمسمائة عقد تجاري وصناعي ، وتحفظت على (٢٢٥ مليونا) من الدولارات ، كانت لديها لحساب المنتجين السلاف ، فما كان من هؤلاء إلا أن امتنعوا عن دفع (٤٨) مليونا من الدولارات كديون مستحقة للصرب ، كرد على هذا الموقف .

وضح إذن أن الصرب كانوا مصرين على المضي في إقامة صربيا الكبرى. على حساب جيرانهم ، ولو أدى ذلك إلى بحار من الدماء .

ونتيجة لإعلان الاستقلال لهاتين الجمهوريتين (سلوفينيا وكرواتيا) واعتراف المجموعة الأوربية بهما ، بدأ الصراع الدموي، وأخذت رحاه تدور بين الصرب ذات الأطماع التوسعية ، تدعمها الحكومة المركزية والجيش الاتحادي ، وبين جمهورية سلوفينيا ، وبعد أن توقف القتال ، عاد ليندلع بين الحكومة والجيش الاتحادي وصرب كرواتيا من جانب ، والجيش الكرواتي من جانب آخر ، وهو قتال استمر قرابة ستة أشهر ، قتل فيه قرابة عشرة آلاف قتيل كرواتي ، بسبب وجود أقلية صربية في كرواتيا قوامها (٦٠٠،٠٠٠) نسمة أي ١٢٪ من السكان ، تقيم أساساً في منطقة (كرابينا) . ويلاحظ أن الولايات المتحدة قد أغمضت عينيها عن هذا الصراع الدموي الذي استمر حتى منتصف عام ١٩٩١م ، كما وقفت أوربا نفس الموقف .

ولم يدخل الغرب على خط الأزمة اليوغوسلافية إلا في يوم ٢١ من يونيو عام ١٩٩١م وهو اليوم الذي حضر فيه وزير الخارجية الأمريكية (جيمس بيكر) إلى بلجراد ، وصرح بأن بلاده وحلفاءها الأوربيين يعتقدون أن يوغوسلافيا يجب أن تبقى دولة واحدة .

ورحّب رئيس وزراء يوغوسلافيا آنذاك (أنتي ماركوفيتش) بهذا التصريح الذي قيل قبل اشتعال لهيب الحرب بخمسة أيام .

وما أن حل شهر يوليو ١٩٩١م حتى كانت الحرب الشاملة مشتعلة بين الصرب

والكروات ، لتقطع أوصال يوغوسلافيا ، والمدهش أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية كانت قد أصدرت تقريراً في نوفمبر ١٩٩٠م . تسرب إلى الصحف توقعت فيه الوكالة انهيار يوغوسلافيا ، واشتعال حرب أهلية فيها في غضون ثمانية عشر شهرا. غير أن عواصم أوربا وصانعي القرار السياسي في واشنطن ، لم يلقوا بالا لهذه التحذيرات لانشغالهم بالوحدة الألمانية والأزمة السوفيتية والغزو العراقي للكويت .

وحين أصبح الأنهيار في الدولة اليوغوسلافية حقيقة واقعة . كان من الواضح أن هدف الدول الغربية عدم مقاومته ، بل أكثر من ذلك ، عملوا إدارته وإذكاء ناره . والتهبت الحرب في صيف ١٩٩١م ، وأدركت المجموعة الأوربية خطورة هذه الحرب في وقت متأخر ، وهي الحرب التي دارت في جمهورية سلوفينيا وكرواتيا ، وهنا دخلت هذه المجموعة مع الأمم المتحدة على خط الأزمة لوقف هذه المعارك ، وبدأ وزراء خارجية دول المجموعة الأوربية رحلاتهم إلى كل من بلجراد وزغرب ، وفي كل مرة كانوا يعلنون بعد عودتهم إلى بلادهم عن وقف إطلاق النار ، غير أن حقيقة الأمر كانت بخلاف ذلك ، فقد كانت اتفاقات الهدنة تنتهك بعد عودة هؤلاء الوزراء إلى بلادهم بعد دقائق من توقيعها ، بسبب ما كان يقوم به جنرالات الصرب والكروات الساخرون ، وقطاع الطرق المتعطشون للدماء .

وبرغم هذا : فقد تحقق بعض النجاح لهذه الجهود في سلوفينيا ، حيث وقفت المعارك . وتجدر الإشارة إلى أن من أهم الأسباب التي سببت القتال بين الصرب والكروات - بالإضافة لما بينهما من اختلاف من حيث الكاثوليكية والأرثوذكسية - سبب يتعلق بالصناعة الحربية والجيش والاقتصاد .. وغير ذلك ، حيث يسيطر الصربيون على كل إدارات الدولة ومؤسساتها ، علاوة على أن موقع (كرواتيا) البحري يشكل إغراء للصربيين ، من أجل المحافظة على نوع من الهيمنة على كرواتيا لأن يوغوسلافيا السابقة كانت تمتلك بحرية قوية ، تضم عشرة غواصات ، وخمسة عشر زورق صواريخ ، وأربع عشرة صائدة ألغام ، وخمسا وثلاثين سفينة برمائية ، إضافة إلى عدد آخر من سفن الإمداد والنقل والسفن المتنوعة الأخرى ، وهذه القوة كانت مخصصة - في يوغوسلافيا السابقة - للدفاع عن ساحل يمتد بطول ستمائة كيلو متر

ويصل إلى (٢٣٠٠) كيلو ليوغوسلافيا إذا ما أضيفت إليه كل الجزر والخلجان التابعة ليوغوسلافيا.

وعند استقلال كرواتيا فإن طول الساحل للصرب لن يتجاوز مائة كيلو متر، في حين يكون الشريط الساحلي الكبير من نصيب كرواتيا، التي تنتشر على مسافة ثمانين في المائة من الساحل اليوغوسلافي القديم.

وعلى هذا: فإن استقلال كرواتيا سيجعل منها دولة تمتلك بحرا، ولكن بدون قوة بحرية، بينما تكون (الصرب والجبل الأسود) دولة تمتلك قوة بحرية كبيرة ولكن بدون بحر[1] من أجل ذلك كان الصراع الذي دارت رحاه بين الصرب والكروات.

المسلمون بين مخالب الصرب

إذا كانت هذه هي الأسباب التي سببت الاقتتال بين الصرب والكروات، فهل هناك سبب للاقتتال بين الصرب والمسلمين ؟! ، أو حتى بين الكروات والمسلمين غير التعصب الصليبي الأعمى ؟ وهل يمكن أن يقع مثل هذا الاقتتال بعد أن ألقى رئيس مجلس الأمن الدولي بثقله فاتخذ قراره في يوم ٢٢ فبراير ١٩٩٢م وأرسل قواته للمحافظة على وقف إطلاق النار ؟.

لقد اتخذ مجلس الأمن الدولي قراره هذا رقم (٤٧٣) بعد قتال عنيف بين الكروات والصرب، استمر لمدة ستة أشهر تقريبا، وتضمن هذا القرار طلبا إلى جميع الأطراف المتصارعة في يوغوسلافيا (التعاون بشكل كامل في تطبيق خطة الأمم المتحدة لحفظ السلام).

وتضمنت هذه الخطة نشر القوات الدولية في ثلاث مقاطعات هي: سلوفينيا

(١) المسلمون في البوسنة والهرسك ص٨٠، ٨١

الغربية ، وسلوفينيا الشرقية ، وكرواتيا ، بحيث تصبح هذه المقاطعات منزوعة السلاح وتشرف عليها قوات الأمم المتحدة ، كما طلب قرار مجلس الأمن التعاون الكامل مع المؤتمر الدولي حول يوغوسلافيا والذي يرأسه البريطاني (اللورد كارنجتون) . وذكر القرار : أن تكاليف هذه العملية التي اعتبرت أنها أضخم عملية تضطلع بها الأمم المتحدة بعد عملية الكونغو في عام ١٩٦٠م ، يبلغ (٦٣٤) مليونا من الدولارات لمدة سنة ، ستدفع الولايات المتحدة منها ٣٠٪ ، وطلب القرار مشاركة (٣١) دولة في هذه القوات منها مصر ... ، وتقرر تنظيم قوة حفظ السلام من (١٠٤٠٠) رجل من المشاة في (١٢) فرقة ، ومن (٢٨٤٠) من الرجال للعمل في القيادة والأجهزة الإدارية وعناصر الدعم ، بالإضافة إلى مائة مراقب عسكري ، ووحدة جوية من أربع طائرات وست وعشرين طائرة عمودية.[1]

وأخذت هذه القوات طريقها إلى مناطق القتال بين الكرواتيين والصرب ، الذين أشرنا إلى سبب النزاع بينهما . وعندما باشرت هذه القوات عملها هدأ الاقتتال بين الصرب والكروات على جبهة كرواتيا .

وهنا توجه الصرب نحو الجبهة الأخرى ، إنها ولا شك جبهة المسلمين في البوسنة والهرسك ، وإذا كان الصرب قد عجزوا عن تحقيق نصر حاسم على جبهة الكروات بسبب توافر الدعم الألماني النمساوي خاصة للكروات ، فقد كانوا يتوقعون تحقيق نصر حاسم على جبهة المسلمين ، بسبب عدم توافر قوات أو أسلحة عليها . بالإضافة إلى وجود صربيين في البوسنة والهرسك .

ومع مطلع شهر إبريل بدأت الميليشيات الصربية يستفز بأعمالها العدوانية المسلمين والكرواتيين في البوسنة والهرسك . وبدأ القتال . الذي تناقلته وكالات الأنباء بعد شهر ونصف من بدايته في البوسنة والهرسك . ومما قالته وكالات الأنباء هذا الخبر الذي يقول :[2](استؤنفت المعارك في عاصمة البوسنة والهرسك (سراييفو)

---

(١) انظر : صحيفة عكاظ : السعودية . عدد : ٩٣٦٤ . ٢٣ فبراير ١٩٩٢م ص٧ . وانظر : صحيفة البلاد السعودية : عدد : ١٠١٠٥ . ٢٣ فبراير ١٩٩٢م ص٥ ، وانظر : المسلمون في البوسنة والهرسك ص٨٠

(٢) نقلا عن : جريدة الحياة . عدد : ١٠٦٨٩ . في ١٥ مايو ١٩٩٢م .

بعد ساعات قليلة من إعلان الأمين العام للأمم المتحدة (بطرس غالي) أن سراييفو أصبحت مكانا خطراً جداً ، رغم كونها مقرا للقيادة العامة للقوات الدولية في يوغوسلافيا .

وذكر أن قتالاً ضاريا تدور رحاه في شوارع وأحياء وضواحي سراييفو ، منها المنطقة المحيطة بمبنى القيادة العامة للقوات الدولية ، ويصد المدافعون عن المدينة ببسالة الهجوم المدعوم بالمدرعات ، والذي يرمي إلى توسيع منطقة نفوذ الصرب في العاصمة والذي يؤكد أن وقف إطلاق النار الذي أعلنه الصربيون لم يكن أكثر من خدعة ورافق الهجوم قصف عنيف بقذائف المدفعية الثقيلة ، والدبابات ومدافع الهاون مما أدى إلى اشتعال الحرب ، وتدمير مبان أثرية ومنشآت هامة كثيرة - من بينها المقر الرئيسي للإذاعة والتليفزيون ، ودار المتقاعدين التي تتخذ منها القوات الدولية مقراً عاماً ، والتي أصيبت بعدد من القذائف ، وعمارة الغرفة التجارية التي يقع فيها المركز الصحفي الدولي للبوسنة والهرسك ، إضافة إلى مصانع ومباني شركات كبيرة وسقطت خمس قذائف هاون على الفندق الذي تستخدمه قوات الأمم المتحدة مقرا لها وأصيب جندي كندي من قوة حفظ السلام الدولية بجروح ، كما اشتعلت النار في اثنتي عشرة سيارة تابعة للمنظمة الدولية .

وذكر أن رئيس الجمهورية (علي عزت بيكوفيتش) قد وجه نداء للمواطنين من تلفزيون سراييفو دعاهم فيه إلى الدفاع عن العاصمة ، ودحر العدوان ، كما طلب عضو قيادة الدفاع المحلي في البوسنة وهو (العقيد بوفان ديفياك) في بيان بثته الإذاعة ، من كل المواطنين القادرين على حمل السلاح الالتحاق بمراكز الدفاع المحلي فوراً . كما بثت إذاعة سراييفو نداء وجهه مدير الإعلام في مجلس رئاسة جمهورية البوسنة والهرسك وهو (خير الدين سايمون). دعا فيه الأطراف المتحاربة إلى تمكين الصحفيين الأجانب المحتجزين في الفنادق التي تتعرض للقصف من الانتقال إلى أماكن أخرى أكثر أمانا.

هذا وقد صرح الأمين العام للأمم المتحدة (بطرس غالي) أن الصرب يتحملون المسئولية الكبرى في الحرب الدائرة في البوسنة ، وأنه بعد اطلاعه على تقرير مبعوثه

إلى يوغوسلافيا (ماراك جولدنج) قد أعلن أنه لا يمكن إرسال قوات دولية إلى البوسنة بسبب غموض الموقف ، كما أنه ليس بالمستطاع تلبية طلب المسئولين في البوسنة بشأن نشر هذه القوات ، ما دام القتال مستمرا ، وتبعا لذلك فقد جرى تخفيض عدد العاملين في مقر القيادة العامة للقوات الدولية في سراييفو حتى الثلث ، بحيث لم يبق هناك أكثر من مائتي جندي ، بسبب الأخطار المحدقة بهم ، نتيجة المعارك الضارية في المنطقة التي يقع فيها مبنى القيادة .

وذكر أن المعارك الضارية تدور رحاها أيضاً في سبع مدن أخرى في البوسنة . معظم سكانها من المسلمين ، وبينها موستار وبنجاتش وخاجيتش وزينيتسا . كذلك اقترح (بطرس غالي) أن تترك جهود المفاوضات والبحث عن تسوية سلمية في البوسنة والهرسك إلى المجموعة الأوربية ، وليس لمجلس الأمن والأمم والمتحدة .

بينما سارت المجموعة العربية لدى الأمم المتحدة في الاتجاه المعاكس ، حيث طلبت بعد ساعات من صدور هذا الاقتراح انعقاد مجلس الأمن رسميا لبحث الموقف وهذه أول مواجهة سياسية بين المجموعة العربية ، وبين الأمين العام للأمم المتحدة .

وذكر أن رئيس المجموعة العربية لتلك الفترة (سفير دولة الإمارات محمد جاسم سرحان) قد اجتمع مع رئيس مجلس الأمن ، وسلمه رسالة من أمين عام الجامعة العربية (عصمت عبد المجيد) تضمنت رغبة المجموعة العربية في عقد جلسة لمجلس الأمن من أجل النظر في الممارسات ضد الشعب في البوسنك والهرسك .

وتتلخص رغبة المجموعة العربية من مجلس الأمن ، في إصدار قرار رسمي - أو بيان سياسي تحذيري إلى الصرب لسحب قواتهم العسكرية ، والسماح للأمم المتحدة بتقديم المساعدات الإنسانية ، وإدانة الممارسات اللا إنسانية ، والتوقف عن تدمير الآثار الإسلامية .

كما ذكر أن الأمين العام للجامعة العربية ، قد أظهر استياءه الكبير ، من موقف بطرس غالي ، لاسيما وأن المملكة العربية السعودية قد أعلنت استعدادها في منظمة المؤتمر الإسلامي للمساهمة في توفير الإمكانات المالية اللازمة لعمليات الأمم المتحدة

في البوسنة والهرسك. ويقي أن موضوع (الجيش الاتحادي) هو السبب الرئيسي في معاناة المسلمين في هذا الإقليم ، نظراً لوقوفه إلى جانب الصرب المسيطرين عليه ، وعلى الرغم من اتخاذ قرار بسحب أفراده من غير مواليد البوسنة - الهرسك ، فإن بقاء الألوف من أفراده ومعداته في الجمهورية باعتبارهم من مواليدها ، وتحت الأوامر الصربية يبقى خطراً على استقلال البوسنة وأمنها . ويعمل الجيش الاتحادي على دعم صرب البوسنة لإحكام سيطرتهم ، بهدف تقسيم هذه الجمهورية . بعد الاستيلاء على دعم صرب البوسنة لإحكام سيطرتهم ، بهدف تقسيم هذه الجمهورية بعد الاستيلاء على ٦٥٪ من أراضيها . مع العلم بأن نسبتهم في حدود ٣٣٪).

هكذا ذكرت (الحياة) هذه الأنباء . وهكذا بدأت الدائرة على المسلمين في البوسنة وإذا كانت (الحياة) قد نشرت هذه الأنباء فإننا نستطيع أن نستنتج منها موقف الأمين العام للأمم المتحدة (بطرس غالي) . فالأمين العام عندما حول قضية البوسنة والهرسك إلى المجموعة الأوربية ، وأبعدها عن الأمم المتحدة ، قد توافق مع الرغبة الأوربية لتسوية أزمة البلقان من خلال المنظور الأوربي ، أو من خلال السياسة الأوربية الثابتة والمعروفة ، والتي تهدف ضمن ما تهدف إليه إلى إبعاد قضية البوسنة والهرسك عن المجال الذي تستطيع فيه مجموعة الدول العربية ومنظمة الدول الإسلامية ، ممارسة دور فيه - من خلال هيئة الأمم ومجلس الأمن .

أضف إلى ذلك : أن المجموعة الأوربية - بأساليبها المعروفة - تستطيع إعطاء الوقت الكافي للصرب - وحتى للكرواتيين - من أجل تحقيق أهدافها على حساب المسلمين في البوسنة والهرسك كما أنها من خلال القوى الرئيسية فيها تمتلك القدرة للتحكم في الأطراف المتصارعة وتوجيهها نحو الحل الذي تريده ، وعلى الجملة فإن المجموعة الأوربية تستطيع السير في خط مزدوج فهي تعلن عن دعمها للمسلمين وتعاطفها معهم ، بينما تترك للصرب والكروات تنفيذ ما هو مطلوب منهم تنفيذه.(١)

(١) المسلمون في البوسنة والهرسك ص٨٥

وهكذا جاء دور المسلمين ليصطلوا بنار هذه الحرب ، في البوسنة والهرسك والحق أن المسلمين قد بذلوا ما يستطيعون من جهد ، كي يظلوا بعيدين عن هذه الحرب التي دارت رحاها بين الصرب والكروات منذ منتصف عام ١٩٩١ وحتى مطلع العام ١٩٩٢م ومع أنهم كانوا يريدون زوال النظام الديكتاتوري الشيوعي ، إلا أنهم كانوا يتمنون الإبقاء على وحدة بلاد البلقان في شكل تنظيم ديمقراطي جديد . إلا أن تعصب الصرب وعنصرية الكروات ، وتوافر التحريض الخارجي على أن يستمر النزاع بينهما جعل الحرب بين هذه الطرفين المتنازعين هي الخيار الوحيد . وكان لابد من أن يصطلي المسلمون بلهيبها . ويقعوا فريسة بين مخالب الصرب .

وهكذا أيضا وجد المسلمون أنهم قد وضعوا - رغما عنهم - في مواجهة الحرب . مع أن القيادات الإسلامية قد أجمعت على أن تفكك (اتحاد الجمهوريات اليوغوسلافية) ليس في مصلحتها ، لأن تفككه سيجعل من المسلمين أقليات ممزقة خاضعة للسياسات الجديدة ، لكل جمهورية بمعزل عن الجمهوريات الأخرى ، وإذن : فلن يكون لهم كيان واحد يمثلهم ، على نحو ما كان عليه وضعهم في ظل السلطات الاتحادية. وهو ما عبر عنه وزير خارجية البوسنة والهرسك (الدكتور حارث سيلاجيتش) بقوله :

«إن انفصال الجمهوريات سيلحق ضررا كبيرا بالمسلمين ، الذين يحاولون استرداد حقوقهم بعد أكثر من أربعين عاماً من الحكم الشيوعي» . وهو ما أكده رئيس مشيخة البوسنة (الشيخ صالح) حين قال : (نحن نقبل أي تغيير سواء في صورة اتحادية أو شبه اتحادية - كونفيدرالية - لأن من مصلحتنا بقاء الاتحاد اليوغوسلافي).[١]

نعود فنقول :

عندما توقف القتال في سلوفينيا ، وهدأ نسبيا في كرواتيا في منتصف عام ١٩٩١م بدأت المخاوف تتجه إلى جمهورية البوسنة والهرسك ، خوفا من اندلاع صراع في هذه الجمهورية . بسبب الانقسام العرقي الحاد فيها ، نتيجة لوجود ثلاث قوميات

(١) المسلمون في البوسنة والهرسك ص ٦٧.

عرقية على نحو ما أسلفنا . المسلمون ٤٤٪ من عدد السكان البالغ عددهم حوالي ٤ر٣ مليون نسمة ، والصرب ٢٩٪ ، والكروات ١٧٪.

وكان لهذه المخاوف ما يبررها ، ففي الوقت الذي كان فيه الرئيسان الصربي (سلوبودان ميلوسيفتش) والكرواتي (تودجمان) يتبادلان الشتائم علنا ، كانا يتناقشان بهدوء حول تقسيم البوسنة فيما بينهما . ومعنى هذا أن مصير البوسنة كان قد تقرر وبدأ انزلاق البوسنة نحو الكارثة بسرعة ، خاصة بعد أن اعترفت المجموعة الأوربية باستقلال كرواتيا في يناير ١٩٩٢م ، ومع أن هذا الاعتراف ينظر إليه المحللون على أنه من صنع وزير خارجية ألمانيا (هانز جينشر) إلا أن باقي أعضاء المجموعة الأوربية الأحد عشر كانوا ضالعين فيه . ومع أنه اعتراف يستحق اللوم لأنه صدر دون أن تتعهد كرواتيا قبل الحرب بأن تعامل الأقليات الصربية والمسلمة بنوع من الاعتبار مع هذا ، فقد أضفى قرار الاعتراف نوعاً من الاحترام لكرواتيا .

لقد كان المقاتلون الصرب في كرواتيا والمدعومون بالميليشيات الصربية، والقوات الاتحادية ، عازمين على التهام الأراضي الكرواتية ، لولا التدخل الأوربي - وخاصة ألمانيا - مما جعل جمهورية كرواتيا الجديدة تصل إلى اتفاق مع الأقلية الصربية فيها .

لقد زاد من مخاوف اندلاع الحرب مع المسلمين في البوسنة احتمالات توظيف الدين كعنصر من عناصر الصراع ، وهو ما حدث فعلا ، أضف إلى ذلك التداخلات الموجودة بين المسلمين والصرب والكروات في عدة مناطق ، وما تحمله كل قومية من ميراث تاريخي من العداء للقوميتين الأخيرتين ، حيث يتهم الصرب الكروات بالتعاون مع النازي أثناء الحرب العالمية الثانية ، وما كان للكروات فيها من سجل حافل بالوحشية . وعلى الجانب الآخر حيث ينظر الصرب والكروات إلى المسلمين في البوسنة والهرسك وكوزوفو ومقدونيا على أنهم بقايا الامبراطورية العثمانية .

وعلى هذا : فإذا ما نشبت الحرب في منطقة البوسنة والهرسك ، كان من الواضح أن كلا من الأقلية الصربية والكرواتية فيها ستحصل على الدعم السياسي والعسكري من الجمهورية الأم ، التي تنتمي إليها ، وتشكل امتدادا قوميا وجغرافيا لها .

أما المسلمون في البوسنة والهرسك فإنهم يبقون دون دعم خارجي لعدم وجود تواصل جغرافي بينهم وبين أقرب الدول الإسلامية لهم وهما : تركيا وألبانيا .

ولا شك أن تركيا - حتى لو فرضنا وجود تواصل جغرافي - ستتجنب دعم مسلمي البوسنة ، لأنها الدولة المسلمة العضو في الناتو ، إنها ستفعل ذلك ولا شك بسبب المحاذير الدولية المفروضة عليها في هذا الشأن ، وبسبب تشعب مصالحها مع المجموعة الأوربية .

وإذن : فإن نشوب الصراع العرقي في البوسنة سيكون قطعاً على حساب المسلمين فيها ، خاصة إذا وضعنا في اعتبارنا غيبة أو تأخر التدخل الأوربي والدولي وهو ما حدث بالفعل فيما جد من أحداث .

ومع أن المسلمين في البوسنة لم يكونوا أصحاب نوايا عدائية لغيرهم من جيرانهم ممن ناصبوهم الحقد والعداء . إلا أنهم لم يفلتوا من ويلاتهم وإجرامهم .

إن وجود جمهورية على أرض يوغوسلافيا دينها الإسلام ورئيسها مسلم أمر لم يكن ليرضى عنه مجرموا الحرب في صربيا وعلى رأسهم (ميلوسيفيتش) الذي يستهدف إقامة دولة الصرب الكبرى ، ويرفض إقامة دولة مسلمة في أوربا ، كذلك (كارادازيتش) الذي لم يقبل أن يصبح صرب البوسنة أقلية في دولة مسلمة مفصولة عن صربيا وطنهم الأم .

من أجل ذلك كله : اندلع الصراع المسلح ، أولاً : بين الصرب من ناحية والكروات والمسلمين من ناحية أخرى ، وتدخل الجيش الاتحادي إلى جانب الصرب ليمكنهم من الاستيلاء على أكبر مساحة من أراضي البوسنة ، وتفريغها من سكانها المسلمين واستخدموا في ذلك أبشع الوسائل الوحشية في التاريخ الإنساني ، حتى أطلق عليهم (تتار القرن العشرين) ، بل لقد فاقوهم بربرية ، حيث دمروا حوالي (٥٦) مدينة وقرية في البوسنة تدميرا شبه كامل بعد أن امتدت المعارك والمذابح إلى جميع مدن البوسنة بما فيها العاصمة سراييفو .

وعندما بدأ صرب البوسنة في الاستيلاء على الأراضي ، خذل كروات البوسنة

حلفاءهم المسلمين ، ونأوا بأنفسهم عنهم ، وتحالفوا مع الصرب ضدهم في بعض المناطق وجعلوا هدفهم الرئيسي من الحرب خلق دولة لهم في البوسنة تشكل جزءا من كرواتيا.

ومما يلفت النظر أن الغرب الذي أضفى التأييد والمؤازرة على جمهوريتي سلوفينيا وكرواتيا من قبل المجموعة الأوربية والولايات المتحدة . كان قد شجع المسلمين على خلق دولة البوسنة ذات الأعراق المتعددة ، ويبدو أنه ندم على ذلك بالنسبة للمسلمين ، فما أن أخذت رحى الحرب تطحنهم . حتى تركهم للإبادة دون أية مساندة ، لقد أحجم الأوربيون والأمريكيون عن سماع صوت المسلمين هناك ، وصراخ آلاف الضحايا والجرحى والجوعى المحاصرين ، الذين يتساقطون بالآلاف كل يوم ، ولم يقدم الغرب شيئا للبوسنة ، سوى بعض أعمال الإغاثة الإنسانية ، وغالباً لا تصل إليهم .

وفي الوقت الذي استمر فيه الصرب والكروات يطردون المسلمين من أراضيهم كانت الدول الغربية تفرض حظرا على تقديم السلاح لجمهوريات يوغوسلافيا السابقة في حين أن المجتمع الدولي يعلم يقينا أن هذا الحظر مطبق على مسلمي البوسنة فقط بينما يحصل الصرب والكروات في البوسنة على احتياجاتهم من السلاح من صربيا وكرواتيا ، ومن خارج يوغوسلافيا .

ولله در القائل :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

لقد استمرت (بلجراد) في دعم صرب البوسنة ، بواسطة طائرات الهليوكبتر ، ومن خلال الطرق البرية عبر الحدود الصربية ، أما العقوبات التجارية والمالية والجوية التي فرضها مجلس الأمن على صربيا ، فلم تكن إلا بمثابة ذر للرماد في العيون ، ولم تأخذ طريقها إلى حيز التنفيذ ، مما جعل الصرب والكروات ينظرون إليها باستهتار[1]واحتقار.

---

(١) من وراء ضياع البوسنة : ص٦٨ ، ٦٩

ولعل من المفيد هنا - قبل أن ندخل في مسلسل التطهير العرقي - أن نلقي الضوء على أوضاع المسلمين في الجمهوريات الاتحادية اليوغوسلافية لتتضح الأخطار التي يتعرضون لها في كل جمهورية .

ففيما يتعلق بسلوفينيا وكرواتيا : كان عدد سكان كرواتيا حوالي خمسة ملايين وأما سلوفينيا فعددهم حوالي مليونين ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن وضع المسلمين الاقتصادي فيهما أفضل من وضع إخوانهم في الجمهوريات الأخرى ، وهم لا يتجاوزون مائتي ألف نسمة في هاتين الجمهوريتين المستقلتين حديثا ، ويرجع سبب هذه الأفضلية الاقتصادية إلى دعم تيتو لهما ، وإقامة مشاريع للتنمية فيهما ، كما يتمتع المسلمون فيهما بقدر أكبر من الحرية ، خصوصاً بعد أن تحالفوا مع الكروات ضد عدوان الصرب على كرواتيا . ومع ذلك فقد عانى مسلمو كرواتيا من ويلات الحرب بين كرواتيا وصربيا ، مما اضطر عددا كبيرا منهم إلى الهجرة إلى جمهورية البوسنة والهرسك حيث تعرضوا هناك لأصعب الظروف الحياتية .

وفيما يتعلق بمقدونيا : فإن عدد سكانها حوالي مليونين ونصف المليون نسمة منهم ما يزيد على المليون من المسلمين - وهذا من واقع إحصاء المشيخة الإسلامية في مقدونيا - والمسلون فيها من أصول ألبانية وتركية ومقدونية وبوسنية ، وتزيد نسبة الألبانيين فيهم على ٨٠٪. ومع كثرة عدد المسلمين في مقدونيا فإن حياتهم هامشية بائسة ، حيث هم محرومون من العمل في المناصب الحساسة والوظائف الحكومية ، كما أنهم - على حد قول (ممدوح إيديني) عضو لجنة حقوق الإنسان في مقدونيا - ليس لهم أي حقوق لإصدار صحيفة أو بث إذاعي أو تلفزيوني بلغتهم ، ويمنع التعليم باللغة الألبانية حتى في المناطق ذات الغالبية الألبانية المطلقة ، وإن من بين (٢٣٠٠) طالب ألباني في مقدونيا ممن أكملوا دراستهم الإعدادية يحق لمجموعة من (١١٠) طلاب فقط إكمال دراستهم في المدارس الثانوية بلغتهم الأم الألبانية . حيث حددت ذلك السلطات المقدونية).

وهذا الوضع المتردي للمسلمين في مقدونيا ، دفعهم إلى الهجرة لتحسين حالتهم الاقتصادية ، فلا تجد عائلة إلا وأحد أفرادها يعمل في الخارج .

وحين حدثت التغييرات في عام ١٩٩١م أخذ المسلمون في مقدونيا في تنظيم الأحزاب وفي مقدمتها (حزب المستقبل) بزعامة المحامي (نفزات خليلي) الذي أعلن برنامجه قائلاً : (من ضمن أهدافنا السعي لاسترداد الأوقاف الإسلامية ، وهي غنية جداً ، وإصلاح البرنامج التعليمي بما يمكننا من تدريس الدين في المدارس الحكومية).

وفاز هذا الحزب في الانتخابات النيابية . ومثله ثلاثة وعشرون من أعضائه في مجلس النواب (البرلمان) المقدوني الذي يبلغ عدد أعضائه (٢٥٠) عضواً . وقد علل رئيس هذا الحزب (حزب المستقبل) قلة عدد الممثلين له في البرلمان برغم كثرة عدد المسلمين في مقدونيا بقوله :

(كان هناك تلاعب من قبل السلطات التي وضعت قانونا للانتخابات ، لا تتيح لنا تمثيل أنفسنا بالقوة العددية المناسبة . فقد وزعت الدوائر الانتخابية بطريقة جائرة بالنسبة لنا . ففي المناطق ذات الكثافة السكانية المسلمة كانت تكتفي بتمثيل واحد أو اثنين ، وفي المناطق ذات الكثافة السكانية الضئيلة لغير المسلمين كان يمثلهم عدد أكبر). ولذا فقد كان لهذا رد فعل عند المسلمين ، حيث قاطعوا استفتاء حددت له السلطات المقدونية يوم ٨ سبتمبر ١٩٩١م من أجل استقلال مقدونيا عن يوغوسلافيا وكشف قادة المسلمين عن سبب هذه المقاطعة بقولهم :

(لقد تقدمنا إلى الحكومة المقدونية بعدد من الطلبات التي اعتبرناها شروطها للمشاركة في هذا الاستفتاء . وكان على رأسها اعتبارنا نحن الألبان في مقدونيا مواطنين من الدرجة الأولى - كمثل القوميات الأخرى - وضرورة اعتماد اللغة الألبانية بمثابة لغة رسمية في المناطق التي يزيد فيها عدد الألبان على ٥٠٪ أسوة بالقومية المقدونية ، ولكن تم للأسف تجاهل مطالبنا تجاهلاً تاماً).

وعندما أعلنت القيادات الشعبية للمسلمين الألبان في مقدونيا عن إجراء استفتاء بشأن رغبة الألبان في الاستقلال بالمنطقة التي يعيشون فيها ، وهي المنطقة التي تبدأ من مدينة (كومانو) على بعد أربعين كيلو مترا من (سكوبيا) وحتى الحدود الألبانية - وهي في الأصل ألبانية - أقول عندما أعلن الألبان عن هذا

الاستفتاء اشتد التوتر وتصاعد ، وأحبطت السلطات المقدونية هذا الاستفتاء ، وقامت باعتقال من دعا إليه من القيادات المسلمة .

وفيما يتعلق بجمهورية الجبل الأسود : فإن المائة ألف مسلم الذين يعيشون فيها - من بين (٦٠٠ ٠٠٠) ألف نسمة هناك - محرومون من أي نشاط سياسي ، وهم في أدنى مستوى اقتصادي .

كما أن أخوانهم المسلمين في صربيا - وهم حوالي (٦٠٠,٠٠٠) مسلم من بين (٦,٠٠٠,٠٠٠) يتعرضون للعدوان بصفة مستمرة ، فقد تعرض المسجد الوحيد في بلجراد للعدوان مرات عديدة . حتى أن مفتي بلجراد (الشيخ حمدي يوسف) لم ينج من هذا الاعتداء . الأمر الذي جعل المسلمين هناك يخشون التعرض لمذابح جماعية جديدة على أيدي الصرب ، خاصة عندما يتذكرون ما ارتكبه هؤلاء السفاحون من مذابح بشعة ضدهم فيما بين الحربين العالميتين .

وفيما يتعلق بالسنجق : وقد كان جزءا من البوسنة والهرسك حتى عام ١٨٧٨م (معاهدة برلين) ثم تقاسمته صربيا والجبل الأسود لأهمية موقعه وبعد همزه الوصل بين المسلمين في البوسنة والهرسك ، وبين إخوانهم في كوسوفو وألبانيا - فالمسلمون في هذا المكان قد تعرضوا لمختلف ألوان العدوان والاضطهاد ، ولشتى أنواع التعذيب والاعتقال والإرهاب . ولذا طالبوا بالاستقلال عن جمهوريتي الصرب والجبل الأسود وشارك (سليمان أو جليانين) زعيم حزب العمل الديمقراطي في السنجق في مباحثات السلام التي عقدت في لاهاي تحت رعاية الأمم المتحدة . وهناك قال :

(إننا نطالب بأن يكون السنجق منطقة لها حكمها الذاتي ، ويحق لها بعد ذلك أن تختار إلى من تنضم ، ولابد من أن تعود السلطة في السنجق إلى أيدي أصحابها المسلمين الذين انتزعت منهم كل المراكز الحساسة في بلادهم).

ثم استشهد على نوايا الصربيين تجاههم بتصريح أدلى به زعيم حزب التجديد الصربي في ١٩٩٠/٩/٩م والذي قال فيه :

(أما أنتم أيها المسلمون في السنجق . فسوف نمهد لكم الطريق للرحيل إلى مكة

والمدينة وإيران وتركيا ، ولا يمكن لكم أن تعيشوا هنا ، فهي ليست أرضا إسلامية) .(1)

أما فيما يتعلق بالبوسنة والهرسك : فنسبة المسلمين فيها - كما سبق - هي الأكبر إذا ما قورن عددهم بعدد الصرب من جهة ، والكروات من جهة أخرى .

وأيا ما كان فقد حقق المسلمون نجاحاً كبيراً في التعايش مع القوميات الأخرى بفضل تسامحهم ومحبتهم للسلام ، وأنجزوا في عامي ١٩٨٩ ، ١٩٩٠م في مجال العمل السياسي في جمهوريتهم إنجازات كثيرة ، بعد انهيار الشيوعية عندهم . ورغم الجهود التي بذلها الغرب لمنع استقلال جمهوريتهم إلا أنهم حققوا هذا الاستقلال حينما حذوا حذو كرواتيا وسلوفينيا ومقدونيا، فأعلنوا استقلال البوسنة والهرسك في ١٥ يناير ١٩٩٢م . وهو اليوم الذي أعلن فيه جمهورية الصرب والجبل الأسود قيام دولة الصرب الجديدة.

وأخذت الدول الأوربية تضع العراقيل أمام استقلال البوسنة ، بالاضافة إلى تهديدات الصرب المتعصبين ، وتخاذل الكروات المتواطئين على المسلمين ، وغياب الدعم الإسلامي . وانطلقت أوربا في وضعها لهذه العراقيل أمام استقلال المسلمين من منطلق : أنه ما يجوز لغير المسلمين لا يجوز للمسلمين . فكان من جملة تلك العراقيل (السوق الأوربية المشتركة) والتي تنص فيما يتعلق بالاستفتاء على استقلال البوسنة على ضرورة الحصول على ٥١٪ من مجموع الذين يحق لهم التصويت من القوميات كلها ، على قرار انفصال البوسنة واستقلالها .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد . فالمسلمون أكثرية غالبة في هذا الإقليم ، وبهذا يكون تجاوز هذا الشرط وهو نسبة الـ ٥١٪ سهلا . لأن المسلمين يشكلون حوالي ٤٥٪ من عدد سكان الجمهورية . ولكن مع الأسف فإنه بحسب القانون الاتحادي-وهو أمر مقصود - ليس لدى المسلمين ممن يحق لهم التصويت إلا ٤٠٪ فقط.

أما الصرب وهم أقل من المسلمين بنسبة كبيرة من حيث العدد ، فلديهم أكثر من

(1) المسلمون في البوسنة والهرسك : ص٦٧ ، ٧١

٥٥٪ ممن يحق لهم التصويت [1]. وهو أمر مقصود أيضاً .

وبدت السحب القاتمة من الخوف تطل على المسلمين . الذين كان عليهم أن يصمدوا أمام الصرب وجمهوريتهم ، التي بيدها المقومات الأساسية لدولة يوغسلافيا السابقة ، بما فيها الجيش الاتحادي ، الذي بات واضحاً احتمال تدخله في الشئون الداخلية للبوسنة والهرسك ، من خلال دعم الصرب في البوسنة والهرسك . وزاد من هذه المخاوف ، نشوب الحرب بين الكروات والصرب على حدود المسلمين الشمالية .

ومن هنا حاولت الحكومة المسلمة في البوسنة والهرسك الحصول على الاعتراف الدولي باستقلالها ، لتخرج من هذه المخاوف ، واتخذت نشاطاً ملحوظاً في هذا المجال وأرسلت (الدكتور هاريس) وزير خارجيتها إلى السعودية ، حيث عقد مؤتمراً صحفياً في مكة المكرمة في ١٣ فبراير ١٩٩٢م ومما قاله في هذا المؤتمر [2]:

(لقد نجحنا حتى الآن ولله الحمد في إبعاد شبح الحرب وشرها عن جمهورية البوسنة والهرسك . رغم استمرار الحرب بين الكروات والصرب على أرض كرواتيا . ولقد أعلنت جمهورية البوسنة والهرسك حيادها في هذه الحرب ، ونحن نواجه بعض الصعوبات ، وننتظر الاستفتاء للحصول على الاعتراف الدولي بالاستقلال الكامل لهذه الجمهورية . وهناك بعض الدول مثل بلغاريا وتركيا ، قد اعترفت رسميا بجمهورية البوسنة والهرسك ، ونأمل بعد الاستفتاء الذي سيجري في أول مارس ١٩٩٢م - الحصول على اعتراف الدول العربية والإسلامية ، إضافة إلى دول أوربية غربية ، والولايات المتحدة الأمريكية ، ولقد طلبنا الاعتراف من دول العالم رسميا ومن كل دولة على حده ، ونأمل أن تكون هناك فرص لقاء لزعماء هذه الدول وسيكون أعضاء منظمة الدول الإسلامية في مقدمة الدول في الاعتراف بجمهورية البوسنة والهرسك.

إن الحرب بين الكروات والصرب التي مضى عليها ستة أشهر قد توقفت ، بفضل

---

(١) صحيفة (المسلمون) السعودية.العدد ٦٣٧ - ١٤ فبراير ١٩٩٢م ص٣ (بحث للدكتور فهد بن عبد الله)
(٢) صحيفة (عكاظ) السعودية . العدد ٩٣٣٧ . ١٤ فبراير ١٩٩٢م ص٤

الوساطة الأوربية ، وبجهود الأمم المتحدة ، ومن حسن الحظ أن التوقيع على اتفاقية وقف إطلاق النار قد تم ، في عاصمة البوسنة والهرسك (سراجيفو) ، ونأمل في وصول قوات حفظ السلام من الأمم المتحدة بأسرع وقت ممكن .

إن سياسة البوسنة والهرسك تقوم على أساس حل كل الخلافات بالطرق السلمية. إن نسبة المسلمين في البوسنة والهرسك تبلغ ٤٤٪ . وأما في الصرب فتبلغ ٣١٪ وفي كرواتيا ١٨٪ وحدود البوسنة والهرسك معروفة ومحددة ومعترف بها عالمياً . وإذا كانت هناك نسبة معينة لا تريد استقلال البوسنة والهرسك ، فالمفروض أن يرتفع صوت الأكثرية والأغلبية ، ولا ريب أن هذه الأكثرية والأغلبية تريد الاستقلال .

إن للشعب الصربي أحزابه السياسية ، وهناك حزب من هذه الأحزاب هو (الحزب الديمقراطي الصربي) يأخذ نهجا متطرفا ، ويطالب بالانضمام إلى صربيا ، ونحن نعارض طبعاً مثل ذلك الانضمام ، ونؤيد الاستقلال ، نحن نريد السلام ، وحسن الجوار والتعايش كما عشنا مئات السنين ، ولا نريد التطرف ، والمهم هو التعايش في جمهورية البوسنة والهرسك ، وهذا مهم جدا في هذه الجمهورية ، لأنه لا يوجد أقليات ولا يوجد شيء اسمه أقلية ، فالجميع يتمتعون بالمساواة في الدستور ، وأمام القانون وكلنا سواء ، ويجب علينا ألا نفرق في النظام والقانون ما بيننا ، وكذلك ما بين الشعوب .

ولقد أصبحنا بذلك نموذجا للتعايش السلمي ، ونحن نعيش بسلام منذ العهد التركي ، وحتى الآن . أما مشكلة الصرب ، فإنهم أخذوا طريق القوة والحرب ، ويريدون أن يحلوا مشاكلهم بالقوة ، وعالم اليوم لا يعترف بالقوة ، وإن عصر القوة قد انتهى إلى الأبد إن شاء الله ، ونأمل أن يكون هذا هو التحضر والسلام والرقي ، وليس عصر القوة والدبابات والجنود) .

وواضح أن الدكتور هاريس - من خلال كلامه هذا - كان مغرقا في التفاؤل لتحقيق السلام والأمن والتعايش في جمهوريته . إلا أن هذا الكلام - على كل حال - سيظل وثيقة تاريخية ، تظهر الفارق الكبير بين دعاة الخير ودعاة الشر . بين المبشرين

بما أنزله الله من فضائل المحبة والخير ، ودور عباد الله على أرض الله ، وبين جنود الشيطان ، وهواة المذابح ، ومجرمي الحرب ، ودعاة التدمير.

ففي الوقت الذي كان فيه شيوخ المسلمين وقادتهم يطالبون بإيقاف الحرب ويحاولون بكل ما استطاعوا توفير مناخ الأمن والتعايش السلمي في البوسنة والهرسك كان الصربيون - وقد فرغوا من قتال الكرواتيين - يجهزون أنفسهم لفتح جبهة الحرب مرة ثانية. لا مع الكروات ، ولكن ضد المسلمين في هذه المرة ، على أرض البوسنة والهرسك.

ويتضح هذا من قول نائب الرئيس اليوغوسلافي (برانكوكو سستيتش) في يوم ١٦/٢/١٩٩٢م : (إنني لن أسمح بسحب الجيش اليوغوسلافي من جمهورية البوسنة والهرسك ، مادامت عضوا في مجلس الرئاسة ... إنني لن أوقع على قرار بسحب الجيش اليوغوسلافي من البوسنة والهرسك أبداً ، ويجب أن يعرف ذلك كل من يتصور أن السيناريو الذي حدث في كرواتيا وسلوفينيا يمكن أن يتكرر في البوسنة والهرسك).(١)

وقد يتسائل البعض : لماذا صرح نائب الرئيس اليوغوسلافي بعدم الانسحاب من البوسنة والهرسك ؟، مع أن جيشه انسحب من كرواتيا وسلوفينيا وغيرهما ؟

وهنا نقول : لأن كرواتيا وسلوفينيا تتمتعان برعاية أوربا ودعمها ، وبخاصة (ألمانيا ، كما أنهما تمتلكان قدرة قتالية تكفي للدفاع عنهما .

أما البوسنة والهرسك فهي فاقدة لهذا كله . حيث إنها معزولة من السلاح محرومة من الدعم . وفي هذا الجو فإن الصربيين أخذوا يتحركون في البوسنة والهرسك ، تبعاً لاتجاه حكومة الصرب (بلجراد) ، مستجيبين لنداء العنف والتطرف المضاد للمسلمين هناك .

وهذا ما تناقلته وكالات الأنباء العالمية ، نقلا عن وكالة الأنباء الصربية ، التي

---

(١) الشرق الأوسط : العدد ٤٨٢٩ الاثنين ١٧/٢/١٩٩٢م ص٨ ، ص١١ . ومن الشرق الأوسط : العدد ٤٨٣٨ الأربعاء ٢٦/٢/١٩٩٢م.

ذكرت : (وجه الصربيون في البوسنة والهرسك تهديداً بأنهم سيشكلون إقليما له حكمه الذاتي ، إذا ما استقلت البوسنة والهرسك عن يوغوسلافيا ، وأن الصرب في منطقة بانيالوكا - بشمال البوسنة - قد صوتوا في البرلمان يوم ١٩٩٢/٢/٢٥م على الاستقلال والانضمام إلى يوغوسلافيا - السابقة - إذا ما انفصلت البوسنة والهرسك).

ويلاحظ أن هذا الإجراء من جانب الصرب في منطقة بانيالوكا ، قد جاء بعد نداء من مسلمين وكروات في البوسنة والهرسك بمطالبة الجيش اليوغوسلافي بالانسحاب من البوسنة والهرسك ، وهو ما عبر عنه عضو البوسنة في الاتحاد الديمقراطي الكرواتي (ميرولاسيتش) حيث قال : (إذا لم يعد ليوغوسلافيا أي وجود ، فلا يمكن منطقيا أن يبقى هناك جيش يوغوسلافي) وهو ما أكده رئيس وزراء البوسنة والهرسك (محمود سهابيتش) بقوله : (يجب على الجيش اليوغوسلافي الانسحاب من البوسنة والهرسك عند إعلان نتائج الاستقلال في الاستفتاء ، وإذا لم يفعل ذلك فسنعتبره قوة احتلال).

وهكذا أجمع المسلمون والكروات على طلب انسحاب الجيش اليوغوسلافي ، لأنه لم يعد له مهمة إلا لكي يحمي الصربيين.[1]

---

(١) المسلمون في البوسنة والهرسك ص٧٥ - ٧٧

الدائرة تدور على مسلمي البوسنة

بات واضحاً من خلال الإصرار على بقاء الجيش اليوغوسلافي في البوسنة والهرسك ، أن هناك أمرا يدبر بليل للمسلمين هناك ، وأن مصيبة كبرى ستحدث لهم على أيدي الصرب ، بهدف التطهير العرقي لهم ولغيرهم . وقد لاحظنا - من خلال ما سبق - أنه في بداية النزاع كان كرواتيو البوسنة يقفون إلى جانب المسلمون ضد الصرب ، ثم انقلب الوضع ، فدارت المعارك بين الكرواتيين والمسلمين ، ثم تحول الوضع إلى تحالف بين الكرواتيين والصرب ضد المسلمين .

وهكذا احكم التكاتف الشيطاني المدعوم من من الخارج ، بكل أنواع الأسلحة والأموال ، والمساعدات العينية . في ظل الحصار ، الكامل على مسلمي البوسنة ، مع حظر على توريد الأسلحة إليهم تحت غطاء سياسي وعاطفي من الأمم المتحدة وأمريكا وأوربا .

وتحت وطأة هذه الظروف القاسية ، وجد شعب البوسنة نفسه معزولا ، وأعزلا ، لا يملك القوة لحماية أرضه وأرواحه وأعراض نسائه . فواجه من الفظائع الحربية واللا إنسانية واللا أخلاقية ما وصم العقد الأخير من القرن العشرين بأبشع الصفات وهي صفة التطهير العرقي[١]

ولندع فضيلة الشيخ محمد الغزالي يحدثنا عن انطباعاته عن هذه الفظائع فيقول تحت عنوان (سقطة الضمير[٢]) :

(طالعت هذا السجل الحاوي لآلام المسلمين في البوسنة والهرسك ثم قلت : هل يبلغ هذا الحد من التوحش ؟ هل يفتنون بتعذيب ضحاياهم على هذا النحو الكفور؟

كنت أحيانا أشاهد عالم الحيوان في التلفاز المصري ، فأرى كيف يفتك سبع

---

(١) من وراء ضياع البوسنة ص٧٠

(٢) المختار الإسلامي . العدد ١٢٩ ص٢٠ - ١٩٩٣/٨/١٩م.

بظبي ، أو نمر بثعلب ، إنها ضربة واحدة ، ثم يشرع الوحش في التهام فريسته ، وما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها ؟

أما المسلمون بين مخالب الصرب فلهم شأن آخر ! إن نفوسهم تزهق جزءا جزءا وآلامهم تتساقط عليهم ألما بعد ألم ، فما تفيض أرواحهم إلا بعد أشد العذاب ما مبعث هذا الحقد الدفين ؟ إن المسلمين رجالاً ونساءً بوغتوا به ، وما جرى في خيالهم يوما أن يلقوا مثله ، ويماثله في الوحشية والخسة ، أن أوربا وأمريكا علمتا به فتحركتا ببطء لاستنكاره ، وما تجاوزتا الكلمات الجوفاء ، ولا تركتا مكانها لعل شيء طائل .

صحيح أنهما انقذتا سلوفينيا وكرواتيا من بطش الصرب ، وأسرع الساسة إلى إعلان استقلالهما ، والدفاع عنهما ، أما المسلمون فكان الحرص شديداً على عدم إمدادهم بالسلاح ، وإلى الإبطاء الشديد في حجب التأييد الدولي عنهم .

إن استنقاذ الكاثوليك في سلوفينيا وكرواتيا واجب ، أما المسلمون فليتركوا ليلقوا حتفهم بعد العذاب الأليم ، يجب أن نعي هذا التعصب ضد الإسلام في مؤسسات دولية زعمت احترامها للإنسانية المجردة ، وبغضها للتعصب الديني .

ماذا نسمي الحيف الذي نزل بنا ، والدواهي التي حلت بإخواننا ؟ إن السياسة العالمية ساقطة الضمير ، أو هي لا ضمير لها بتة عندما يتعلق الأمر بالمسلمين .

إن أسبانيا في الدورة الرياضية العالمية (ببرشلونه) ذكرت العالم بأنها طردت الإسلام من ديارها ، وقد مرت خمسمائة عام الآن على هذه الذكرى الجديرة بالاحتفال . أما المسلمون الذين سمعوا هذا الكلام فكانوا مخدرين ، وربما فوجئوا بما قيل، ولكنه مر دون تعليق . فإن الغزو الثقافي أفقدهم رشدهم ، ونساهم أيامهم الأولى ، وهم الآن دويلات يسعى أغلبها لمحاربة الفقر ، يجب أن نعرف تاريخنا جيدا ، إننا لسنا المسئولين عن الحروب التي اشتعلت في أرجاء العالم قديما . إننا نحن المسلمين حاربنا الرومان الغزاة الأجانب عندما أغاروا علينا ، فهل تلك جريمتنا ؟ وطاردنا الصليبيين عندما حاولوا العودة في القرون الوسطى ، فهل نلام على ذلك ؟ وإذا كانت ذراريهم

تحمل الجرائيم نفسها ، في المطلوب أن نستسلم لهم ؟ إننا قديما وحديثاً ندافع عن حياتنا وعقائدنا ومواريثنا ...)

لقد اجتاح الصربيون - بهدف التطهير العرقي - أراضي ومدن البوسنة ليستولوا على ٧٠٪ من أراضيها - حسب خطتهم - و ٣٠٪ من أراضي كرواتيا ليحققوا حلمهم القديم (صربيا الكبرى) ومن أجل ذلك ارتكبوا أبشع المذابح التي لم يشهد لها التاريخ في أوربا مثيلا ، فالبقهر والظلم والذعر ، وبالدماء والدمار والاغتصاب، قتلوا أكثر من ثلاثمائة ألف من مسلمي البوسنة ، وطردوا وشردوا أكثر من ثلاثة ملايين من المسلمين ، هربوا من المذابح ومعسكرات الاعتقال والتعذيب إلى دول مجاورة ، في النمسا والمجر وكرواتيا وسلوفينيا ، تاركين أراضيهم وأهليهم وأموالهم وتاريخهم .

واغتصب الصرب والكروات عشرات الآلاف من النساء والفتيات المسلمات وكانت قوات حفظ السلام تشترك معهم في هذا الاغتصاب ، كما هدموا بالمدافع والطائرات وأعمال النسف والتدمير الكثير من مدن وقرى المسلمين ، بكل ما فيها من بيوت ومساجد ومتاحف ومدارس ومستشفيات ، وجسور ومحطات مياه وقوى كهربائية ومصانع ، وكرروا ذلك عمدا ، وذبحوا على الملأ نائب رئيس البوسنة ، وهو في عربة مصفحة ترفع علم الأمم المتحدة ، وبقروا بطون الحوامل من النساء ، وقتلوا الأطفال بالرصاص ، أو بالحرق أو بإغراقهم في مياه البحر والأنهار ، وأذاقوا شباب الأسرى من المسلمين أبشع صفوف التعذيب والوحشية في معسكرات الاعتقال .

لقد فعلوا بالمسلمين أكثر مما فعله جنكيزخان وشارلمان وستالين وهتلر وغيرهم من مشاهير الطغاة في التاريخ . لدرجة أن الصربيين قاموا بحرق مدن وقرى بأكملها على من فيها من المسلمين ، الذين كانوا يمنعون من الخروج منها كي يموتوا حرقا . حدث هذا في (هرانكو) و (دوبانيش) و (ستويني دول) . كما حاصروا العاصمة سراييفو وأمطروها يوميا بآلاف الأطنان من قذائف المدفعية ، وحرموا سكانها من الماء والغذاء والوقود ، بل ومنعوا قوافل الإغاثة التابعة للأمم المتحدة من الوصول إلى المسلمين المحاصرين فيها .

وإن دل هذا على شيء: فإنما يدل على سياسة التطهير العرقي التي تمارسها القوات الصربية ، والتي سبق لآبائهم وأجدادهم أن تمرسوا عليها ، في القرن التاسع عشر عندما أسسوا أول إمارة صربية باستخدام هذه الأساليب الوحشية ضد خصومهم العثمانيين[1]

ولعل جولة مع ما كتبته صحف أوربا. وما أذاعته إذعات الغرب والتي تطلعناعلى مدى ما يقع على المسلمين في البوسنة من أهوال تكون خير شاهد على ما نقول :

تقول (الفانيشال تايمز)اللندنية في ١٠/٦/١٩٩٢م : (ما يحدث في البوسنة والهرسك أسوأ نكسة للإسلام والمسلمين في دول البلقان ، منذ طرد العثمانيون من هناك) .

وتقول (الصانداي تلجراف) في ١٨/١٠/١٩٩٢م : (إن المسلمين في البوسنة والهرسك يتعرضون لحملة منظمة للإبادة والإرهاب والتهجير...)

وتقول (الاندبندت) في ١/١٠/١٩٩٢م : (المذبحة المنظمة ضد المسلمين ، هذا هو ما يشهده مسلمو البوسنة على يد الصرب .

وفي ٢٤/١٠/١٩٩٢م قال موفد الأمم المتحدة لتقصي الحقائق : (يخشى أن سياسة التطهير العرقي قد بلغت الهدف الذي وضعت من أجله).

وتحمل هيئة الإذاعة البريطانية هذا الخبر المفجع الأليم في ٢١/١١/١٩٩٢م حين قالت : (أحالت الولايات المتحدة للأمم وثيقة خاصة بالجرائم التي يرتكبها الصرب في أرض البوسنة وتتضمن الوثيقة ما يلي :

١- عمليات قتل جماعية بشعة تتم للمسلمين .

٢- تعذيب وحشي للمسلمين (يبلغ حد الموت) في معسكرات الاعتقال .

٣- معاملة المدنيين بشكل مروع .

---

(١) من وراء ضياع البوسنة ص٧١.

٤- قصف الأحياء المدنية الغزلاء .

٥- عمليات التهجير القسري للمواطنين ، والطرد الجماعي لعشرات الأسر المسلمة تحت تهديد السلاح .

٦- عمليات اغتصاب لعشرات الآلاف من النساء والفتيات المسلمات على أيدي الصرب.

وينقل الأستاذ جلال كشك في مجلة أكتوبر في ١٩٩٢/١٢/٢٧م مقالة لكاتب غير مسلم : هو (جون بيرنز) الذي وجه كلامه للقراء الأمريكيين ، ونشرته (النيويورك تايمز) في عددها الصادر في ١٩٩٢/١٠/٣م فيقول (: ما يحدث للنساء والفتيات المسلمات في البوسنة لا مثيل له في تاريخ الحروب ، إن النساء يغتصبن من الجنود الصرب بطريقة منظمة ومخططة لإبادة شعب البوسنة بالكامل ، تدمير الثقافة .. والتقاليد .. وكيان المجتمع ، وفي شهر أكتوبر أعلنت وزارة الداخلية في البوسنة أن خمسين ألف امرأة وبنت جرى اغتصابهن وتعمد المغتصبون أن يحملن منهم...).

وينطلق صوت السيدة (آن لوبرتون) عبر هيئة الإذاعة البريطانية ، صباح يوم ١٩٩٣/١/٣م لتقول :

(الصرب الأرثوذكس يعمدون لإلحاق الإهانة والأذى بالضحايا المسلمين ، وعدد كبير جداً من حالات الاغتصاب تمت بوجود الجمهور الغفير من الناس .. الإغتصاب مظهر واحد من مظاهر عديدة للعنف البشع المريع في البوسنة ، إن الصرب يستخدمونه كسلاح رهيب ، لحمل المسلمين على الفرار من بيوتهم ، وإن طفلات صغيرات لا يتجاوز عمرهن السادسة أو السابعة قد اغتصبن علانية أمام آبائهن .. وفتيات في الخامسة عشرة .. ونساء في الخامسة والثلاثين ...).

والجديد بالذكر أن هذه السيدة التي صرحت بهذا الكلام كانت رئيسة وفد نسائي تجول في المخيمات التي ضمت اللاجئين والفارات المسلمات ...

وتتحدث السيدة (بريندا باتريك)وكانت ضمن وفد نسائي أرسله مجلس الكنائس العالمي إلى البوسنة فتقول من خلال هيئة الإذاعة البريطانية في ١٩٩٢/١٢/٢٤م:

(ما يفعله الصرب في البوسنة أكبر قساوة وكراهة وبشاعة مما يتخيله عقل أي بشر... وعمليات الاغتصاب للمسلمات تتم بطريقة منظمة وجماعية ، وعلى خط المواجهة ، وغالباً على مرآى من الأهل ، مبالغة في الضغط النفسي والتعذيب الرهيب ، وإن كل الدلائل تشير إلى أن عمليات الاغتصاب تتم على نطاق واسع ، وفي تنظيم لإجبار المسلمات على الحمل بالأطفال من الصرب .. ويتم حبس المغتصبات المسلمات في معسكرات اعتقال صربية تحرس بشدة . وأنه يتم اعتقالهن فيها حتى يبلغ الحمل عمرا لا تجرى إزاءه عملية إجهاض .. ثم يطلق سراحهن).

وما إن انتهت المتحدثة من كلماتها الفاجعة ، حتى جاء صوت المذيع معقباً : (هذا هو ما قاله وفد الكنائس العالمي عن محنة النساء المسلمات في البوسنة).

إذا كانت هذه الأقوال تنبيء عن لفتة إنسانية حانية ، من قبل بعض الأفراد والمذيعين فأين الضمائر الحية والعالم كله - مسلمون ونصارى - يتفرج ولا يردع الجناة؟

أما عن الأطفال: فإن طبيبا كرواتيا كاثوليكيا يتحدث من إذاعة صوت أمريكا فيقول عن أطفال المسلمين هناك : (إنها معاناة رهيبة عندما تنظر إلى هؤلاء الصغار من يتامى المسلمين .. إن الآلاف منهم يتهددهم الموت في كل لحظة ، وفقدان الوالدين شيء من أكثر الأشياء بشاعة ورعبا ، وإنه لشيء مفجع للغاية يجلب للطفل من الحسرة والألم ما لا تصفه أي كلمات).

وها هي مراسلة هيئة الإذاعة البريطانية تقول في ١٤/١٠/١٩٩٢م:

وصل قطار يحمل مئات من أطفال المسلمين إلى بولندا ، وقد كانوا مرهقين تماما ومذهولين . حتى أغلبهم لم يستطع ذكر اسم بلدته أو قريته أو حتى اسم أبيه .. كانوا جائعين يعانون البرد الشديد .. وسط أحوال جوية سيئة ، وارهاق الطريق الطويل . ولم يكن أحد يدري شيئا مما يدور من حوله .. أين هو ؟ ولماذا جاء ؟ وأين أهله ؟ إلى أين سينتهي به المطاف ؟)(١)

(١) من مقال نشرته (المتخار الإسلامي) تحت عنوان : (من امرأة مسلمة قلبها يحترق إلى علماء المسلمين في العالم الإسلامي) ص٤٧ وما بعدها .

لقد كتب (رونوجيرار) في جريدة الفيجاروا الفرنسية يقول : كان مفزعا هذا الرقم الذي تضمنه الخبر الذي ظهر أمامي على جهاز الفاكس ، وهو خبر أعلنته رسميا منظمة اليونيسيف ، بعد تحقيق أجرته ، وقامت بنشره مؤخرا في جنيف .

يقول الخبر : إن ثلاثة آلاف طفل من أطفال المسلمين في البوسنة قد قتلوا برصاص القناصة . ويتحدث الصحفي الفرنسي عن الاستراتيجية الشيطانية الجديدة التي لجأ إليها الصرب لتحطيم الروح المعنوية في البوسنة ، وبالتالي تحطيم مقاومتها عن طريق إرهاب شعبها المدني فيقول : إن الفكرة شيطانية ، ولكن الصرب رأوا أنها فعالة بالفعل ، فالرجل القادر على القتال سوف يكون مستعدا للمغامرة بحياته ، من أجل الدفاع عن وطنه أو دينه ، ولكن من يقبل تعريض حياة أطفاله للخطر ، باسم التزامات تتجاوز طاقة احتماله بكثير؟

من هنا : جاء القصف المدفعي للأحياء المكتظة بالسكان ، وجاء الضرب العشوائي للتجمعات البشرية المدنية ، وجاء إطلاق النار على رؤوس أهداف سهلة وبريئة في نفس الوقت ، هي رؤوس الأطفال .. وهكذا يصوب قناصة الصرب على رؤوس الأطفال ، وهم يلعبون في الشوارع أو يصوبون على رؤوسهم وهم يعبرون الطريق.

يقول تحقيق اليونيسيف إن ٩٠٪ من أطفال المسلمين يعيشون في خنادق ، تحت الأرض لفترات تصل إلى أكثر من ستة أشهر ، وإن نصف الأطفال قد شاهدوا بأعينهم موت أهليهم وجيرانهم ، وأن ٤٠٪ منهم فقدوا الأب والأم ، وأن ٧٠٪ منهم شاهدوا منازلهم تقصف بالمدافع ، وتنهار على رؤوس الأحياء .

هذه أرقام التحقيق الذي قامت به اليونيسيف خلال خمسة شهور بدأت من شهر نوفمبر ١٩٩٢م ، واستمر حتى شهر فبراير ١٩٩٣م.

يقول الصحفي الفرنسي : إنه إذا كان قتل المدنيين البالغين يمكن تبريره عند الصرب بأن الرجل البالغ يستطيع أن يخفي بندقية تحت ملابسه ، فما هو مبرر قتل

الأطفال ؟ هل يخفون تحت ملابسهم قطعة من الشيكولاته ؟[1].

ونتابع هذه المآسي . مستمعين لنبض قلب اللواء حسام سويلم[2] وهو يقول :

أما ما يدمي القلب .. فهو ما نشر عنه مؤخراً عن بيع أطفال مسلمي البوسنة اليتامى ، في أسواق النخاسة في دول (أوربا وآسيا ، التي تتلهف على زيادة أعدادها بتبني أطفال جاهزين يتم تنصيرهم وتهويدهم ، وذلك بواسطة عصابات متخصصة كشف عن نشاطها في الفليبين وإسرائيل .

فمن الأنباء المثيرة التي أسندت إلى مصدر إسلامي داخل البوسنة ، أن الطائرات الدولية التي تنقل معونات غذائية للعاصمة (سراييفو) المحاصرة ، تقوم بنقل مجاميع من أطفال البوسنة إلى جهات غير معلومة . ثم اتضح بعد ذلك أن من بين هذه الجهات (إسرائيل) ، وقد أكد هذه المعلومة وزير خارجية إسرائيل نفسه ، حين أعلن أن إسرائيل استقبلت ألفان من هؤلاء الأطفال المسلمين ، وقد أشارت إلى ذلك التصريح صحيفة (لوف فيسنك) في أعدادها الأخيرة ، فما معنى هذا التصرف من قبل إسرائيل ؟ وما المصير الذي ينتظر هؤلاء الأطفال المسلمين في إسرائيل ؟!

إن إسرائيل لا تسعى فقط من وراء استضافتها لهذا العدد الكبير من الأطفال المسلمين البوسنيين إلى تحسين صورتها ، لتبدو في شكلها الدولي صورة مشرقة للسمعة اليهودية ، وحتى تظهر كما لو كانت تنزع إلى الخير والخدمة الإنسانية ، ولتبدد الصورة الدموية القاسية التي انطبعت عنها لدى الرأي العام العالمي ، نتيجة ممارساتها اللا إنسانية والإجرامية ، تجاه أطفال الانتفاضة الفلسطينية . ولكنها تسعى في الأساس إلى تهويد هؤلاء الآلاف من أطفال المسلمين ليسدوا ثغرة العجز البشري الذي تعاني منه ، والذي يشكل أكبر عيوبها الجيو إستراتيجية .

ثم يقول : وفي سراييفو المحاصرة ، منذ حوالي تسعة عشر شهراً ، يتواجد حوالي ثلاثمائة ألف مسلم يتعرضون يوميا لوابل من نيران المدفعية ، ولهجمات وحشية من قبل الصرب - خاصة حي إيجمان الاستراتيجي - تستخدم فيها الأسلحة الكيماوية

(١) المختار الإسلامي . العدد ١٢٨ . في ٢١ يوليو ١٩٩٣م ص٧
(٢) من وراء ضياع البوسنة ص٧٢ وما بعدها .

السامة ، وحيث تجرى حرب الشوارع بالسلاح الأبيض من بيت إلى بيت ، بعد أن نفذت ذخائر المسلمين ، ونتيجة الحصار المفروض على هذه المدينة ، وما ترتب عليه من حرمانها من الطعام ، فقد أصبح كل سكانها يعيشون على المعونات (الإنسانية) التي تجود بها المفوضية العامة للاجئين ، لذلك فقد أدرج جميع سكانها على قوائم المعونة التي توزع على سبعين منفذا للتوزيع ، تقف أمامها طوابير السائلين والمتسولين الذين يستجدون (٩٤٠) جراماً من الطعام للفرد ، خفضت إلى (٦٣٠) جراماً وهو حد الكفاف ، الذي يبقيهم على قيد الحياة ، ورغم ذلك ، فإن ما استطاعت المفوضية أن توفره من الطعام يتراوح بين ٢٥ و ٤٠٪ من الكميات المقدرة والمخفضة .

وقد ترتب على ذلك أن كل سكان سراييفو - وحالهم أفضل من غيرهم - أصبحوا يعانون من سوء التغذية ، التي سببت لهم أمراضاً كثيرة ، نتيجة فقد أجسامهم للمناعة بعد أن هزلت ، وهو أمر كان له تأثير محزن على الحوامل والمواليد الذين أصبح الكساح ولين العظام والتشوهات الخلقية من الأمراض الشائعة بينهم . مما جعل النساء يفضلن الإجهاض على الانتظار حتى يلدن أطفالاً يعجزون عن أرضاعهم أو إطعامهم ، ولذا تزايدت معدلات الإجهاض بصورة خطيرة ، فمقابل خمسين امرأة تجهض نفسها فإن واحدة فقط هي التي تستبقي طفلها وتلده ، والنتيجة أن سراييفو التي كانت تستقبل عشرة آلاف مولود سنويا لم تستقبل عام ١٩٩٢م سوى ألف فقط . وحتى هؤلاء - الألف - الذين ولدوا ازدادت بينهم التشوهات الخلقية نسبة مائة في المائة وجميعهم يعانون من سوء التغذية .

ومع متابعتنا للواء حسام سويلم . نراه يذكر مدنا أخرى بوسنية تعانى من صور التطهير العرقي بدرجة أسوأ مما تعاني منه العاصمة المحاصرة سراييفو . ومن هذه المدن (موستار) المحاصر فيها قرابة ستين ألف مسلم .. بواسطة الكروات ، بعد أن أجبر ثلاثون ألف مسلم على الجلاء عنها بالقوة ، خلال إغارات ليلية تعرضت لها المناطق الإسلامية من المدينة ، بواسطة العصابات الكرواتية التي تمارس عمليات التطهير العرقي بلا أي ضابط ، كما شهد بذلك موظفوا الأمم المتحدة الذين منعهم الكروات من إدخال مواد الإغاثة إلى المدينة ، وشهدوا بأنفسهم كيف يجبر الكروات

مئات الآلاف من النساء والأطفال والمسنين على السير على أقدامهم ، على جسر يقع في خط إطلاق النار ليعبروا إلى الضفة الشرقية من نهر نيريفا بصورة بالغة القسوة .

أما الرجال والشباب في سن التجنيد ، والمتواجدون في معسكرات الاعتقال، فقد أجبروا على العمل في خطوط مواجهة نيران المسلمين . بل واستخدموا أيضا كدروع بشرية في عملياتهم ضد المسلمين . وفي الوقت ذاته تقوم الحكومة الكرواتية بممارسة ضغوط متزايدة على مئات الآلاف من اللاجئين فيها ، لكي يهاجروا منها إلى دول إسلامية مثل باكستان وماليزيا .. حيث تخرجهم من الفنادق ومعسكرات الإقامة الأخرى ، الموجودة على الساحل بدعوى أنها مناطق سياحية .

وفي (جورازدي) يحاصر سبعون ألف مسلم ، وما جلاي ، وزافيلادفيتشي وزيليتش التي تشكل رؤوس مثلث يقع على بعد (٨٠) كيلو شمال غربي سراييفو .

ويعتبر عزل (ماجلاي) جزء من خطة صربية لإيجاد ممر جنوبي يشطر البوسنة إلى دولتين ، ولربط المناطق التي استولى عليها الصرب في شمال البوسنة وغربها ، وهو ما يؤكد التواطؤ بين صرب البوسنة وكراتها .

ورغم إعلان الأمم المتحدة أن مدينة جورازدي تعتبر إحدى المناطق الآمنة التي تتكفل الأمم المتحدة بأمن سكانها ، فإن الصرب منعوا قوافل الإغاثة من دخول هذه المدينة المحاصرة ، ونفس الوضع بالنسبة لمدن مسلمة أخرى ، يجرى تطهيرها عرقيا بواسطة الصرب والكروات ، مثل (ترنوفو) التي طرد منها (٨٥٠٠) مسلم و(نوفي ساد) في وسط البوسنة . و(بركو) و(تيساني) و (دوبوي) و (سيربرنيتشا) التي أوشكت أن تتحول إلى مقبرة جماعية ، تحت أمين الأمم المتحدة ، كما يشهد بذلك موظفو الإغاثة الدولية ، وغير هذه المدن كثير .

وفيما يتعلق بالقضاء على كل ما يمت بصلة للحضارة الإسلامية يذكر اللواء سويلم : أن هذا من معالم التطهير العرقي الذي يهدف إلى تخريب ومحو كل معالم الحضارة الإسلامية ، وهي قائمة طويلة لا يمكن حصرها ، نذكر منها مسجد (الباي) وهو من أعظم المقدسات الإسلامية في أوربا ، وقد تهدمت مئذنته بفعل القصف الجوي

والمدفعي الصربي ، ومسجد (الدازا) في فوكا ، هذا إلى جانب هدم أكثر من سبعمائة مسجد في جميع مدن البوسنة ، بعضها له قيمة تاريخية كبيرة .

أما آخر ما ارتكبه الصرب في هذا الشأن :

فكان إحراق آخر مسجد من بين ستة عشر مسجدا في مدينة (بانيالوكا) معقل صرب البوسنة ، كان يصلي فيها خمسون ألف مسلم ، في هذه البلدة قبل طردهم منها ومن بين هذه المساجد ما يرجع تاريخه إلى عام ١٦٣٠م . كما أكلت النار مكتبة سراييفو العظيمة ، التي تضم وثائق ومخطوطات تاريخية ترجع إلى العهد العثماني ، وقد تعرضت أيضاً مكتبة (خسرو بك) للقصف أكثر من خمسين مرة ، هذا إلى جانب معالم تاريخية هامة ، تعرضت للتدمير ، مثل (برج الساعة) في (دوبروفنيك) تلك المدينة الحضارية القائمة على الساحل الدالماسي ، والتي أقيمت في القرن السابع الميلادي ، حيث أصابتها قنابل الصرب . فدمرت (٥٦٣) أثراً حضاريا من بين (٨٤٢) مبنى أثري حضاري يتواجد فيها .

كما دمر جسر (موستار) العريق ، هذا إلى جانب ما قام به الصرب والكروات من تخريب ثمانمائة موقع ومركز ثقافي ديني في مدينة موستار ، منها المركز التاريخي المحيط بالجسر القديم ، بالاضافة لما ارتكبه الكروات من تدمير للأبراج الأربعة المحيطة بـ (ستاري موست) لي يستولوا على المدينة ، بهدف تحويلها إلى عاصمة (هيرسج بوسنا) بعد طرد المسلمين منها .

يحدث هذا في الوقت الذي يحرص فيه المقاتلون المسلمون على عدم التعرض لأي كنيسة - أرثوزكسية كانت أو كاثوليلكية - وقد شهد بذلك مراقبوا الأمم المتحدة أنفسهم .

ويلاحظ أن هذه الأعمال التخريبية للمعالم والحضارة الإسلامية لم تحدث أثناء الحرب العالمية الثانية حيث لم تمس هذه الآثار التاريخية بسوء آنذاك . لأن المقاتلين في هذه الحرب الثانية كانوا يحرصون على ألا تصلها آلات الدمار .

في الوقت الذي دمرت فيه هذه الآثار على أيدي المجرمين الصرب والكروات لكي

يزيلوا من على الوجود معالم خمسة قرون من الحضارة الإسلامية . مما يسوغ لهم - ساعة التقسيم - كل ما قاموا به من عمليات غزو لحوالي ٧٠٪ من أراضي البوسنة .

ويشهد على بشاعة هذه الأعمال الوحشية عبارة عن قالها (رولان دوما) وزير خارجية فرنسا وهي : (إن أقل ما يقال عنها إنها أساليب وحشية بشعة لا تمت للإنسانية بصلة).

القوات الصربية

هذه الأعمال الوحشية التي فاقت فعل الشياطين ، والتي تدور رحاها في البوسنة والهرسك ، بأوامر من الرئيس الصربي (سلوبودان ميلوسيفيتش) سفاح العقد الأخير من القرن العشرين . هذه الأعمال الإجرامية ترتكز على ترسانة حربية كبيرة ، يمتلكها الصرب ، وقد نشرت جريدة الأخبار القاهرية في ١٦/١/١٩٩٣م أن الصرب يمتلكون (٤٥٠) طائرة ، من بينها عشرون طائرة سوفيتية طراز (ميج ٢٩) وهي أفضل طائرات مطاردة في الوقت الحالي ، كذلك يمتلك الصرب حوالي (١٤٠) طائرة هليكوبتر متخصصة في الهجمات الجوية ، وتشير تقارير المخابرات الغربية إلى أن الصرب لديهم ما يقرب من (١٠٠٠) مصفحة ، ٢٥٪ منها عبارة عن دبابات سوفيتية ذات مستوى عال من طراز (ت - ٧٢) وأخرى من طراز (ب - ٣٤) و (ت - ٥٤ و ٥٥).

أما سلاح مدفعية الصرب فهو ضخم. إذ إنه يضم أكثر من ألفي مدفع من جميع الأنواع . فهناك المدافع الموجهة ذاتيا (١٥٠مم) وقاذفات صواريخ مختلفة وخاصة من طراز (١٢٨ مم و ٢٦٢ مم) وحاملة أسلحة مضادة للدبابات .

ومن الناحية العملية فإن الصرب لا يعتمدون فقط على حوالي (١٠٠,٠٠٠) مائة ألف جندي . أكثر من نصفهم من الجيش العامل ، ولكن أيضاً على الميليشيات العديدة شبة العسكرية (٢٠ ألف رجل).

لذلك فهم سادرون في غيهم ، ماضون في مذابحهم للمسلمين ، لا يبالون بأي تهديد بالقوة يصدر لوقف أعمالهم الإجرامية - حتى ولو كان شكليا - فعندما طرح رولان دوما وزير خارجية فرنسا فكرة وقف أعمالهم بالقوة ، وقال في مطلع عام ١٩٩٣ : إن الحل الوحيد للحد من هذا الصراع ، جاء تصريح قائد جيش الصرب والجبل الأسود يؤكد فيه أن جيشه على استعداد لمواجهة أي تدخل أجنبي ، وأن أسلحته المضادة للطائرات ستواجه بشراسة كل تدخل خارجي ، وستصمد حتى أمام ضغوط أمريكا ودول الغرب .

إنهم لا يبالون بأحد . لدرجة أنهم اغتالوا نائب رئيس وزراء البوسنة (ثورايتش) في قلب (العاصمة سراييفو ، وفي وضح النهار ، وبين أحضان قوات الطواريء الدولية ، هذا الحادث الغريب جاء وصمة عار لمنظمة الأمم المتحدة . تلك التي من شأنها ، بل رسالتها الأساسية السلام . ويكفي كدليل على ذلك تصريحات الجنرال (فيليب فوريون) قائد قوات حفظ السلام في البوسنة ، والتي تؤكد أن مصرع نائب رئيس الوزراء على أيدي الصرب ، وتحت نظر رجاله يعتبر فشلا شخصيا له .

وإن دل هذا الحادث على شيء ، فإنما يدل على فشل المنظمة الدولية ، وعدم قدرة قوات الطواريء الدولية على القيام بمهمتها ، التي جاءت خصيصاً من أجلها لنشر السلام ، وحماية هذا الشعب البوسني المسلم .

وها هو (بيركوير سكالو) عضو اللجنة البوسنية التي اشتركت في اجتماعات لجنة الصداقة الفرنسية البوسنية يقول : إن هذه الجريمة البشعة سوف تؤكد هذه المشاعر السائدة بين شعب البوسنة، بتواطؤ قوات حفظ السلام مع أعداء المسلمين ، وأضاف قائلاً : إنني خائف من أن يفقد شعب البوسنة الثقة في هذه المنظمة ، ومن يعرف ربما نموت واحدا تلو الآخر بنفس الطريقة داخل البوسنة .

الرئيس الصربي أكبر مجرم في التاريخ المعا صر

يجمع الرأي العام العالمي ، على أن الرئيس الصربي (سلوبودان ميلوسيفتش) الذي يقود هذه المذابح للمسلمين في البوسنة ، من الشخصيات التي تعشق العنف والدموية ، وأنه يشبه إلى حد كبير هتلر وموسوليني وستالين ، وتبدو المقارنة أسهل عندما نرجع إلى أعماله اللا إنسانية التي ألحقها بالأبرياء في بلده ، من آلام جسمانية ومعنوية ، وقتل وتنكيل واغتصاب للنساء ، وطرد جماعي للسكان ، واعتقالات تعسفية ، هذا بالإضافة إلى ما يرتكبه من خلال عملائه ، من تدمير وقتل بالآلاف . حتى أن شكله وبناءه الجسماني والنفسي ، كل هذا يوحي بأنه طاغية متجبر .

لقد كان هذا الطاغية يخطط منذ كان مسئولا شيوعيا صغيرا ، لإيجاد دولة صربيا الكبرى منذ وفاة تيتو ، وأخذ يسعى لإبرازه إلى حيز الوجود قدر طاقته، عندما تفتت الاتحاد الفيدرالي اليوغسلافي في يونيو ١٩٩١م .وبدأت صيحات الاستقلال تنطلق من أنحاء جمهوريات يوغسلافيا .

وهنا برزت شخصية ميلوسيفتش كفائز في الحرب الأهلية اليوغوسلافية ، ولو أدى ذلك إلى وقوع مأساة مروعة لمعظم الشعوب الأخرى الغير صربية ، إنه أكبر مجرم في التاريخ المعاصر ، بسبب ما أحدثه من كوارث ترتكز على نزعة عرقية متطرفة ، تحولت على يديه إلى تصفية عرقية بغيضة من خلال تطبيقها ، والتي وصلت إلى حد الإبادة البشرية الجماعية ، التي كان العالم قد أوشك على نسيانها منذ انتهى عصر هتلر وستالين .

إن الروس وحكومات الغرب يعتبرونه اليوم رجل المنطقة ، ويزعمون أنهم يستطيعون التعامل معه ، لأنه في ظنهم برجماتي عنيد ، يرغب في أن تتمكن الصرب من احتلال مكانتها كدولة كبرى في أوربا .

والحقيقة أن ميلوسيفيتش عرف كيف يستغل عقدة أوربا من الإسلام ، وترددها العقيم ، في حسم الصراع الدائر في البلقان ، كما فهم حقيقة الموقف الأمريكي

الغائب عن أوربا ، وما يسود دوائر صنع القرار في واشنطن من اضطراب ، عرف كل هذا فعمل على الاستفادة من كل تلك السلبيات في الموقف الغربي ، في ضوء الموقف الروسي الذي يؤيده . سواء من حكومة (يلتسين) أو معارضيه ، لقد تلاعب بدهاء في إشاعة الفرقة بين كل هؤلاء ، مستغلا سوء الفهم الذي يسود الدوائر السياسية الغربية وازدواجية اللغة التي يتبعها ساسة الشرق والغرب على السواء .

في هذا الجو ، أصبح قادراً على التهكم من المجتمع الدولي وقراراته ، ماض في غيه لإقامة دولته الكبرى ، ومنع قيام دولة إسلامية في أوربا ، إنه لم يفز في المباراة التي يخوضها في البلقان فحسب ، وإنما أذل الغرب أيضا . إنه يرفض فكرة حق الشعوب في تقرير مصائرها ويزدريها ، ويتطرف في نزعته العرقية .

ولا شك في أن سكوت الدول الكبرى على أسلوب منطق الأقوى الذي يتبعه هذا الطاغية ، ستكون نتيجته ظهور دكتاتوريين وغزاة آخرين يسيرون على منواله ، وهو الأمر الذي سيعجل بنهاية أمن أوربا واستقرارها .

إن التساهل والمساندة الغربية لهذا الطاغية ، من قبل دول ومؤسسات في الشرق والغرب ، قد أدى إلى بروز سياسة التطهير العرقي التي يمارسها الصرب والكروات ضد مسلمي البوسنة ، والتي تجاوزت كل الحدود بدون خجل أو حياء ، كان لابد لها من وقفة تردع المعتدي بقوة القانون ، إذا لم يصدر ذلك عن يقظة الضمائر وحياة النفوس .

ولكن العالم كله الآن – شرقه وغربه ومسلميه – أصبح يشهد ما يحدث ، ويعلم يقينا بما يجري في البوسنة دون أن يبدي أدنى تحرك فعّال . بل إنها جرائم ارتكبت ولازالت بتواطؤ دول الغرب والشرق العظمى والكبرى ، وبتستر البعض الآخر . وهؤلاء جميعاً وفي مقدمتهم بريطانيا ، يريدون أن تبرز صربيا بعد أن انهار الاتحاد اليوغوسلافي – كقوة إقليمية لكي تؤدي دورها الذي راهنت عليه ، واستثمرته بريطانيا طيلة القرن الأخير[1]

(١) من وراء ضياع البوسنة . ص ٧٧

ومما يدلل على ذلك هذه الوثيقة الخطيرة التي كتب عليها (سري جداً) والتي نشرت بجريدة (ليلان) البوسنية بتاريخ ١٩٩٣/٦/٧م . ونشرتها (المختار الإسلامي) في العدد ١٢٨ في ١٩٩٣/٧/٢١م - وهذه الوثيقة الخطيرة هي نص الخطاب الذي أرسله (جون ميجور) رئيس وزراء انجلترا إلى (دوجلاس هوج) رئيس مكتب الأجانب والكومنولث برئاسة الوزارة .

وها هو نصها :

من رئيس الوزراء ، إلى دوجلاس هوج . مكتب الأجانب والكومنولث (سري جداً)

عزيزي دوجلاس :

شكراً على تقريركم الوافي حول الوضع الحالي والماضي في منطقة البوسنة والهرسك في يوغوسلافيا السابقة ، وكما تعلمون من المناقشات السابقة ، أن كلا من مجلس الوزراء ، وحكومة جلالتها لم تغير موقفها من أي من السياسات الآتية :

١- نحن لا نوافق الآن ، ولا في المستقبل ، على (تسليح أو تدريب) المسلمين في البوسنة والهرسك بالمعدات الحربية.

٢- نحن سوف نستمر في مساعدة إلزام وإرغام الأمم المتحدة على فرض حظر السلاح إلى منطقة البوسنة والهرسك . بينما نعلم أن اليونان وروسيا وبلغاريا يمدون صربيا بالسلاح والتدريب ، كما أن ألمانيا والنمسا وسلوفينيا وحتى الفاتيكان يقومون بنفس المجهودات لصالح الكروات ، وقوات H,V,O في المنطقة ، وإنه على أهمية عظمى من التأكد من عدم نجاح مثل تلك المجهودات في صالح المسلمين بالمنطقة من الدول والمجموعات الإسلامية ، إلى هذه النهاية ، وحتى نصل إلى محصلة هذا الوضع ، أي تقسيم البوسنة والهرسك وتدميرها كـ(دولة إسلامية) محتملة داخل أوربا ، الأمر الذي لا يحتمل ، وسنستمر في اتباع هذه السياسة أكثر من ذلك ، إن خطأ (تسليح وتدريب) المجاهدين الأفغان ضد قوات الاتحاد السوفيتي السابق ، وتحولهم لما

يسمى (بالمجاهدين المسلمين) كما في البوسنة والهرسك وفي أجزاء أخرى من العالم ، لن يتكرر ، مع التجمعات المسلمة في البوسنة والهرسك ، إن هذا يمكن أن يؤدي إلى مشاكل خطيرة في المستقبل بين التجمعات المسلمة المهاجرة في المجموعة الأوربية ، وأمريكا الشمالية.

من فضلكم انظروا إلى الأوراق المرفقة من الولايات المتحدة بعنوان (منصة القفز الإيرانية في أوربا) بتاريخ ١٩٩٢/٩/١م .

وبما أن هذه المعايير أصبحت أكثر وأكثر سدادا ، فإن اهتماماً خاصاً من قبل أجهزة الأمن الداخلي ، سوف يتخذ تجاه التجمعات الإسلامية داخل الدول الغربية ، خاصة هنا في المملكة المتحدة .

٣- وحتى يستمر الوضع في يوغوسلافيا القديمة ، يجب علينا مهما كلفنا الأمر أن نتأكد من أنه لا يمكن لدولة تعتبر (إسلامية) قد سمح لها بأي كلام في أعمال السياسة الغربية في هذه المنطقة ، خاصة هذه التي تخص تركيا . وعليه فإنه من الضروري أن نستمر مع المحادثات الصورية لفانس-أوين للسلام . بهدف تأخير أي من مثل تلك التحركات الممكنة ، حتى لا يعد هناك أي وجود للبوسنة والهرسك ، ويزاح التجمع الإسلامي تماماً من أرضه .

بينما يبدو هذا كسياسة صعبة ، يجب علي أن أصر معك ، ومع صنّاع السياسة في الـ F,C,O ومع الخدمات العسكرية من أن هذا في الحقيقة (سياسية ثابتة) وأن فيها أفضل المصالح لأوربا المستقرة في المستقبل ، حيث يكون نظامها القيم ، بل ويجب أن يظل (مسيحي المدنية) وعرقي .

هذه الرؤية يجب أن نعرف أنها السائدة في كل حكومات أوربا وأمريكا الشمالية وعليه ، فإننا لن نتدخل في هذه المنطقة لحماية التجمعات الإسلامية ، أو ندفع إلى رفع حظر السلاح عنهم .

إن المسلمين في الغرب يجب أن نجعلهم يروا أنهم لايمكن أن يعترضوا رؤيتنا للعالم في ظل النظام العالمي الجديد ، وفي ظل جمود ما يسمى (بالحكومات

الإسلامية) وفي ظل عجزهم عن فعل أي شيء لمنع القضاء على المسلمين في البوسنة والهرسك ، وألا يتبعوا وعودهم في فعل أي شيء بعد مؤتمر (منظمة المؤتمر الإسلامي) بتاريخ ١٩٩٢/١/١٥ .

وأنه إذا كان لم ينقذ المسلمين ، فإنهم جميعا بلا قوة لاعتراضنا ، إذا إننا نتحكم في حكوماتهم .

إنني أعلم أن لا تحس تماما الذي أحس ، أو الذي يحسه وزير الدفاع حول هذا الموضوع ، إنه من المهم أن نعرض واجهة موحدة في البرلمان ، وفي البلد حول هذه القضية ، خاصة بعد الهجوم القوى على هذه السياسة من رئيسة الوزراء السابقة .

إنني أتوقع من كل هؤلاء الذين يخدمون الحكومة ، أن يحترموا مسئولية مجلس الوزراء .

جون ميجور

هكذا تنضح انجلترا حقدا وغلا على المسلمين ، من خلال وثيقة رئيس وزرائها . وقل مثل ذلك في غير انجلترا من هذه الدول التي ترى أن مصالحها الاستراتيجية أصبحت لا تقتصر على طموحات الهيمنة السياسية والاقتصادية ، وإنما هناك عامل هام يكمن في تخوف الغرب والشرق على السواء ، مما يطلقون عليه (ظاهرة الصحوة الإسلامية)

ويذكر اللواء حسام سويلم[1] تحليلا للموقف الغربي من قضية البوسنة من خلال ما نشرته مجلة (تايم) الأمريكية في عددها الصادر في ٨ يونيو ١٩٩٢م حيث قالت : (لقد كان من الممكن أن يردع ميلوسيفتش بالقوة .. لكن أحدا خارج يوغوسلافيا ليس مستعدا للدخول في حرب معه ، لأن التدخل سوف يسبب خسائر ثقيلة ، وربما كانت هناك مذابح وانتهاكات لا إنسانية ، ولكن على خلاف محاولة العراق اغتصاب بترول الكويت الوفير ، فإن استلاب الصرب العدواني لحقوق البوسنيين والكروات لا يهدد المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة ، أو أوربا ، بدرجة تكفي للمخاطرة بارسال جيوش).

(١) نفس المصدر ص٧٩ وما بعدها .

ثم تضيف المجلة : (إن قرار الأمم المتحدة بفرض حظر على الواردات والصادرات الصربية - عدا الأغذية والأدوية - قد يجمد مصالح الصرب ، ويقطع اتصالها الجوي بالعالم ، ومع ذلك فإن المفتاح الرئيسي لهذا الحظر يكمن في منع وارداتها من البترول الذي يعتبر دم الحياة بالنسبة للصناعة وتحركات الجيوش في العالم ، ولكن هذا المنع لن يمنع تدفق البترول إلى الصرب ، لأن أكثر من نصف احتياجاتهم يأتي من روسيا والصين ، وهما راضيتين عن قرار هذا الحظر ، بل إن بعض الدبلوماسيين البريطانيين يرجح أن البترول ربما يتسرب إلى الصرب من رومانيا ، أو من الشرق الأوسط عبر اليونان التي لها علاقات تجارية قوية مع صربيا).

إن الدول الكبرى المتحكمة في قرارات مجلس الأمن - برغم علمها بما تملكه الصرب من أسلحة سبقت الإشارة إليها ، وعن طريقها ترتكب هذه الجرائم البشعة وبرغم علمها بأنه ليس لدى قوات البوسنة إلا أسلحة خفيفة ، وقليل جداً من الأسلحة الثقيلة ، التي لا تمكنها من الدفاع عن نفسها - برغم هذا كله تصر على استمرار حظر إمداد يوغوسلافيا بالسلاح مع أنها تعلم يقينا أن ضرر هذا الحظر لا يقع إلا على جمهورية البوسنة وحدها . تلك التي يحاصرها الأعداء من جميع الجهات ، ولا تجد دولة واحدة إسلامية أو غير إسلامية تمدها بالسلاح الذي تدافع به عن نفسها.

إن هذا الطاغية ميلوسيفتش ، وزميله الكرواتي ، قد عمل على تفاقم الوضع اللا إنساني داخل البوسنة والهرسك ، عما أثار الرأي العام العالمي ، والدول الإسلامية كلها فتدخلت المجموعة الأوربية ، وأرسلت وسيطها اللورد (كارينجتون) ، ومن بعده الوسيطان (لورد ديفيد أوين ، وسايروس فانس) وتم توقيع اتفاقيات لوقف إطلاق النار ، ولكنها اتفاقيات على الورق لم يحترمها الصرب والكروات ، كما لم تفلح المؤتمرات العديدة التي عقدت لتسوية المشكلة في بروكسل ولندن وجنيف وغيرها من المدن الأوربية في وضع حد لهذا الصراع الدائر ، واستمرت مهزلة التطهير العرقي ضد المسلمين برغم قرارات الأمم المتحدة ، واتفاقيات وقف إطلاق النار، التي وقعوا عليها.

إن الذي لا جدال فيه أن الصراع في البوسنة والهرسك قد شهد قيام تحالفات عديدة ، ولكنها كانت تسقط بعد حين ، ثم تبدلت وتناقضت بين فترة وأخرى . لقد

كـان التحـالف في البـداية بين المسلمين والكروات في مـواجهـة الصـرب ، ثم انتـقض ، وحل محله تحالف آخر صليبي صربي كرواتي ضد المسلمين ، وهذا التحالف قائم حتى الآن .

والذي يدعو إلى الأسى . أن المسلمين أصبحوا يحاربون في جبهتين شكلا ، وفي جبهات متعددة موضوعا ، لأنهم يدافعون عن أراضيهم التي يريد أن ينتزعها الصرب منهم شمالاً وجنوبا وشرقا وغربا . ففي البوسنة الآن مناطق تشهد قتالا بين الصرب والمسلمين فـقط . ومناطق ثانيـة يكون القـتـال فـيـهـا بين الكروات والمسلمين فـقط ، وثالثة بين الصرب والكروات فقط . ورابعة بين الصرب والكروات من جهة ، والمسلمين من جهة أخرى وخامسه بين المسلمين والكروات من جهة والصرب من جهة أخرى.

ونتيجة للقتال الدائر على أرض البوسنة اليوم تم استيلاء الصرب على ٧٠٪ من أراضي جمهورية البوسنة والهرسك كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ومعظم هذه المناطق كان يسكنها المسلمون ولم يبق في أيادي المسلمين من أراضيهم إلا ١٠٪ فقط ، في حين أن الكروات لم يخسروا كثيرا من أراضيهم .

والآن يركزون قتالهم حول العاصمة سراييفو لعدة اعتبارات منها : أنها العاصمة فهي رمز دولة البوسنة ، ومنها : أن بها معظم المؤسسات السياسية والمعالم الحضارية وفوق ذلك فـهي تاريخيـا وحضـاريا من المدن المسلمة التي تسكنها غالبيـة مسلمة . وبرغم ذلك أعلن (كارادزيتش) زغيم صرب البوسنة أن سراييفو يجب أن تضم إلى الأراضي الصربية ، وأن ذلك - على حد قوله - سوف يتحقق إن سلما وإن حربا .

لذا: فإن القوات الصربية قد حاصرتها واحتلت المرتفعات الإستراتيجية المحيطة بها ، وأهما جبلى (إيجمان وبيلانيتش) . ونشروا دباباتهم ومدفعيتهم وبطاريات صواريخهم أرض / أرض ، وأرض / جو ، التي تمطر سراييفو يوميا بوابل من القذائف لإجبار سكانها على مغادرتها ، بعد أن حرموا قوافل الإغاثة من دخولها كما استولوا على مطارها ، وبهذا أصبحوا متمكنين من التحكم في حركة النقل الجوي والبري منها وإليها .

استغلال الدين في الصراع

لكي يوغر قادة الصرب صدور الصرب والكروات والأوربيين والأمريكيين وغيرهم ضد المسلمين في الحرب الدائرة في البوسنة ، استغلوا الدين لصب مزيد من البنزين على نار الصراع . حيث جمعوا تصريحات قادة مسلمي البوسنة التي يظهرون فيها رغبتهم في إقامة دولة مسلمة في أوربا ، ومن هنا راحوا يزعمون أن هذه الدولة المسلمة ستكون بمثابة إيران أخرى ، تنشر الإرهاب في ربوع أوربا . ومن خلال استغلال الدين بهذه الطريقة حصل الصرب على ما يريدونه من دعم سياسي وعسكري من بلدان أوربا ، وبخاصة روسيا وبلغاريا ورومانيا واليونان .

في حين أن المسلمين في البوسنة لم يستطيعوا الحصول إلا على أقل القليل من الدعم السياسي والمعنوي والمالي من الدول الإسلامية . التي كان عليها أن تظهر في صورة أبهى مما هي عليه ، بشأن الحرب الدائرة لإخوانهم في البوسنة .

إن القادة والحكام والعلماء ومن لديهم القدرة المالية من المسلمين - وهم كثير - سيتحملون إثما أكبر من الدهماء والعامة ، عندما يتقاعسون عن نصرة المسلمين هناك.وفي كل بلد يذل فيه مسلمون . يقول ابن تيمية :

(إذا هجم العدو فلا يبقى وجه للخلاف .. فإنَّ دفع ضرهم عن الدين والنفس والحرمات واجب اجماعاً)[1] فماذا يكون عذرنا أمام ما أقره السلف والخلف والفقهاء والمحدثون ، من أنه (إذا اعتدى على شبر من أرض المسلمين أصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة) ؟ والبوسنة أرض مسلمة معتدى عليها ، فلم التجاهل لكوارث المسلمين المتتالية ؟ ولم الغفلة عن التحدث عنها ؟ ، ولمصلحة من تنصرفون عن واجباتكم لنصرة الإسلام ، إن أعداء الإسلام تنهال عليهم كل صفوف الأسلحة وكل ما يحتاجونه من دعم مادي أو معنوي ، والمسلمون والعالم كله قعود ، (وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)[2] فمتى

---

(١) ابن تيمية - الفتاوي الكبرى جـ٤ - ص٦٠٨

(٢) البروج : ٧ ، ٨

ستعلنون الجهاد على هؤلاء البرابرة ؟ ***ماذا لو وصلتم لمستوى وزير البريد الألماني الذي استقال من حكومته لأنه يشعر (بالعار) لأن حكومته (الغير مسلمة) تقاعست عن نصرة المسلمين ، وهو غير مسلم في بلد غير مسلم ؟ ماذا لو وصلتم لمستوى أحد كبار المسئولين في الخارجية الأمريكية الذي أتهم حكومته بـ(التواطؤ) في عمليات القتل والإبادة والاغتصاب ، لأنها لا تريد رفع الحظر العسكري عن المسلمين ؟ وهو الأجنبي الغير مسلم في بلد غير مسلمة .***

ماذا لو قلتم أيها العلماء لدولكم إن الله أوجب على المسلمين نصرة إخوانهم فسلحوا الشباب المسلم ولا تمنعوه من الجهاد في سبيل الله حتى يعز الله الإسلام والمسلمين بالنصر على الكفار والصليبيين ؟

ماذا لو قال الدعاة الكبار والعلماء والمفكرون المسلمون الذين طبقت شهرتهم الآفاق :

تبرعوا لمسلمي البوسنة بالمال والسلاح والأنفس ، وهم الذين اتفق الجميع على إبادتهم ؟ .

هذا مع الأسف وضعنا أمام مأساة البوسنة التي تدور رحاها على أرض مسلمة ونحن صامتون أمام شياطين برزوا في ختام القرن العشرين ليعلنوا صليبيتهم في جلاء.

لقد راح هؤلاء الشياطين يستغلون ورقة الدين لجلب المزيد من التأييد والمساندة زاعمين تخوفهم من نشر ما يسمونه بـ (الأصولية الإسلامية) . فتعمدوا مع من يحالفهم في الغرب والشرق ، أن يظهروا هذه الحرب على أنها حرب دينية ، بين صرب وكروات ، ومسلمين ، مع أن من الصرب من هم مسلمون ، ومن الكروات كذلك ، كما أن من بين سكان البوسنة ممن يقاتلون الصرب من هم أرثوذكس وكاثوليك ، ومع ذلك لم يقولوا إنها حرب بين الكاثوليك والأرثوذوكس والمسلمين ، وإنما صنفوا الصرب والكروات بجنسياتهم وقومياتهم ، وصنفوا المسلمين فقط بديانتهم .

وهذا التصرف يكشف عن خبث الهدف . وهو تحويل الصراع الدائر إلى حرب دينية تكون امتدادا للحروب الصليبية ، ومحاكم التفتيش التي سادت أسبانيا والبرتغال وغيرهما في القرون الوسطى ضد المسلمين ، حين أطلقوا تعبير (العرب المسلمين) على الضحايا والمطرودين من أراضيهم وديارهم في أسبانيا والبرتغال بعد قرون ثمانية كانت زاهرة بالحضارة الإسلامية التي سادت هذه الدول ، في حين أنهم كانوا أسبان مسلمين ، وبرتغاليين مسلمين [١]

طبيعة قديمة جديدة

إن الصرب وهم يطحنون المسلمين طحنا في البوسنة والهرسك ، مستغلين الدين في إشعال نار هذه الحرب التي تعجز الأقلام عن وصف فظائعها المروعة. إنما هم شر خلف لشر سلف ، وهذه الفظائع ليست في الصليبية الغربية الحديثة سجية محدثة ، وإنما هي - على حد تعبير فضيلة الشيخ محمد الغزالي - طبيعة قديمة جديدة (فالقوم يسيرون على النهج الذي سلكه آباؤهم قبل ، فالخلف والسلف على اختلاف الأمكنة والأزمنة تحركهم طبائع واحدة ، وتحدوهم غاية واحدة ، إنهم مع خصومهم لا يعرفون للحرب أدبا ، ولا للرحمة موقعاً ، إلا إذا تكافأت القوى ، وخافوا الثأر العاجل ، فهم عندئذ يعاملون العدو بحذر ، إتقاء للعقوبة لا اتقاء لله . أما إذا أمنوا الثأر فلن يتوقع منهم إلا بطش الجبابرة).

ثم يتساءل فضيلته : (هل استخدام القنبلة الذرية يومىء إلى ذرة من الحس الإنساني) ؟ إن هذه القنبلة تنزل فتحصد الرجال المقاتلين ، ثم تحصد معهم الشيوخ الفانين ، وجماهير النسوة والأطفال ممن لا شأن لهم بالحرب أبداً ، ثم قطعان البقر والغنم والدواجن التي تعيش لسوء حظها مع هؤلاء . بل الحشرات ، وأنواع النبات ، إنها تجتث الحياة إجتثاثاً ، حيث تنزل بلعنتها الماحقة .

(١) من وراء ضياع البوسنة . ص٨٣.

ومع هذا الشر المستطير فإن الأمريكان أنزلوه بمدينتين يابانيتين في الحرب الأخيرة وهو نوع من القتال لم يعرفه أدب الحروب منذ بدء الخليقة ، ولولا أن سر الذرة فضح وعرفه الآخرون لاستخدم هذا التفوق في قهر الناس ، وتغليب الهوى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض).[1]

ثم يتساءل فضيلته أيضا : (وهل محى الاسلام من الأندلس محوا إلا بالحديد والنار؟ وما سجله التاريخ لمحاكم التفتيش من همجية وعار ؟ هل حدث مثل ذلك أو بعضه أو شيء منه في تاريخنا ؟) .

ثم يدلل فضيلة الشيخ محمد الغزالي على هذه الهمجية التي ارتكبت على أيدي محاكم التفتيش بما كتبه الأستاذ محمد شاهين حمزة وهو يروي مخازي هذه العهود :

لم تقم في الشرق محاكم مثل محاكم التفتيش ، التي قامت في بلاد عديدة من أوربا ، مثل أسبانيا وإيطاليا وفرنسا والبرتغال وألمانيا لسجن حرية العقيدة والفكر ، ومطاردة الضمائر والعقول ، وإصدار أحكام تتقزز النفس منها اليوم ، وهي تقرأها في صحائف التاريخ الأسود. أحكام منها : الإماتة حرقا في أحفال عامة يحضرها الملوك والوزراء والأعيان .. والدفن بالحياة ؛ بوضع المحكوم عليهم في مقابر تترك فيها فتحات صغيرة ليراهم الناس منها ، وهم يدنون من الموت رويدا رويدا ، أجل ليتفرج الناس جميعاً على أولئك الذين يحرقون وهؤلاء الذين يدفنون أحياء ، ليعذبوا بهذا الاختناق ... والويل لمن ينظر ثم يتأفف أو يتحسر .

فإذا كان المحكوم بموته امرأة ، عريت وشدت إلى مقبرة ، وتركت ليلا ونهاراً حتى تموت أو تجن .. أما حين تكون في طور التحقيق ، فإنها تعرض لكلابيب ذات رؤوس حادة تسحب الثديين من الصدر .

كانت هذه المحاكم تستعين في تحقيقاتها ، للحصول على إقرارات صحيحة أو مزيفة بوسائل عديدة من التعذيب منها :

---

(١) البقرة : ٢٥١

حرق الأقدام ، واستعمال السياط في الأقفية ، والتعليق في السقف مع ربط كل يد وكل قدم إلى حبل يشدها في اتجاه مضاد ، وغرز المسامير في الرؤوس ، وسل اللسان من الحلق بآلات خاصة ، وتهشيم الأسنان بأجهزة معينة ، ووضع الأقدام في أحذية حديدية عرضت للنار حتى حميت واحمرت ، والكي في أي مكان من الجسد واستعمال أحذية ذات مسامير داخلية حادة يأمر المتهم بلبسها والمشي فيها ، أو الجري والسوط من خلفه ، ومشانق تشنق نصف شنق ، وتسديد حربتين إلى عيني المتهم تنفذان من مؤخرة الجمجمة ، وتوجيه حربة إلى القلب ، وأخرى إلى المعدة أو الأمعاء ، وطي الجسم وكسر عظامه بآلات خاصة ، وحلق الرأس وتعرضه لآلة تسقط الماء البارد عليه نقطة نقطة ، وسلق مواضع من الجسم أو سلخها ، بوضع إسفنج مغموس في ماء مغلي عليها ، وتعريض الرؤوس لمطارق ثقيلة ساحقة ، وصب الماء في الجوف من الفم أثناء الوخز بالدبابيس في الأعصاب والشرايين ، ووضع آلة على فم المعذب حتى لا يخرج أنينه ، فإذا أغمى عليه أنعش بشراب معين ثم أعيد إلى التعذيب من جديد ، وإذا مات في أثناء التعذيب ألقي به بين المعذبين الآخرين زيادة في إيلامهم وإرهابهم .

ثم يتساءل فضيلته هل صنع إنسان في الشرق مثل هذا ؟ إن الإنسان لم ينحط في الشرق قط ، كما انحط في الغرب في أزمنة مختلفة ، وفي دورات متعددة من التاريخ ، ولا علا فيه جانبه الحيواني المفترس ، كما علا في ربوع الغرب واستبد وسيطر . كانت سلطة ديوان التحقيق أو (محاكم التفتيش) مطلقة ، لا حد لبطشها ولا لجبروتها في كل الأمم التي قامت فيها ، لكنها في أسبانيا - حيث كثر المسلمون - كانت أفظع منها في أي دولة أخرى ... وقد تم إفناء المسلمين في أسبانيا بهذه الأساليب واستراحت الصليبية بعد ما خلا لها الجو)[1]

واليوم تتكرر المأساة القديمة في بقعة غالية علينا في البوسنة والهرسك . لذا نرى الصرب يشعلون روح العداء في الغرب عامة وأوربا خاصة ضد الإسلام والمسلمين ليذكروهم بالحروب التي شنها العثمانيون في أوربا ، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

(١) الاستعمار أحقاد وأطماع - الشيخ محمد الغزالي ص ٢٩ - ٣٢.

وأمام هذا التحدى كان لابد لمسلمي البوسنة من التصدي للمعتدين الصرب والكروات دفاعاً عن دينهم وأرواحهم وأرضهم وديارهم وأعراضهم وثرواتهم وتاريخهم وحضارتهم التي انتهكت كلها بفعل عدوان البرابرة الصرب والكروات ، وحماية لأرواح ومعتقدات أبنائهم الذين يمثلون المستقبل والأجيال القادمة ، التي يجب أن تعيش حرة كريمة وآمنة كي لا يباعوا ولا يشتروا في أسواق العبيد والنخاسة مرة أخرى[1]

ونكرر مقالتنا ملفتين نظر المسلمين حكاماً ومحكومين إلى ما يحيق بالمسلمين في البوسنة خاصة ، وبغيرهم عامة ، من شر مستطير وصليبية ماكرة التزمت وضعاً واحداً لا يتغير على مر الدهور واختلاف العصور . وهو الإنكار المستمر على الإسلام والطعن القاسي في أصوله وفروعه . إنهم يرون أن لا معنى لبقاء الإسلام متى أمكنهم الإجهاز عليه ، وإن بقي لظروف عصية فليس لأهله حقوق تقام ومن هنا تحمل أقطار الغرب الصليبي لواء العداء للإسلام والمسلمين . وترى من المستحيل تركه من غير عقوبة تكسر غروره.

والمسلمون اليوم لم ينفضوا بعد غبار الذل ، الذي لحقهم عقب إنهيار حكمهم وطي لوائهم ، وعليهم أن يتهيؤا لإنتفاضة مرموقة ، ويستعدوا لما تفرضه من مغارم وضحايا . إن (حال المسلمين اليوم مع دينهم تستدعي كثيراً من التأمل فهم خلوف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، وهم أوزاع تنميهم قوميات شتى ، يقدمون النسبة إليها على نسب الإسلام العريق . وهم مشتتو الأهواء والآراء أمام العواصف الفكرية والعاطفية الهابة من الغرب وهم يخلطون بين التخلص من التقاليد الرديئة التي أذوت حضارتهم والتخلص من بعض تعاليم الإسلام نفسه ، وهم يخلطون كذلك بين الإفادة من نتاج الحضارة الحديثة أو الإنغماس في متاعها ... على أن الحقيقة المخزية وسط هذه الحيرة النفسية والعقلية ، أن الاستعمار بكل صنوفه وأشكاله ، ماض في طريقه بقسوة وصرامة يجتث أصولهم ويجتاح بقيتهم ، ويرسم المؤامرات المهولة لإبقائهم إلى الأبد عبيد جبروته .

(١) من وراء ضياع البوسنة ص٨٣

والحيوان في هذه المآزق يستقتل للنجاة بنفسه ، والإفلات من صياديه . فكيف بإنسان لا تزال على حياته مسحة من نضارة الإسلام القديم والأصل الكريم ؟[1]

إن قادة الأمة العربية والإسلامية على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، لم يدركوا حقيقة الشرخ الذي صنعته أحداث البوسنة والهرسك في شعوبهم ، ولم يدركوا كيف تغيرت نحوهم نظوة الشعوب ، لقد أدركت هذه الشعوب أن إخوة لهم في العقيدة قد ذبحوا في زمن تعيس ، يتحدث عن حقوق الإنسان ، ولكنه لا يمارس من حديثه شيئا ولقد أضيف إلى إحساس الهوان هذا الإحساس الجديد بانعدام النصر ، وغيبة التضامن أمام المآسي ، وخرجت هذه الشعوب بإحساس واحد : إن المسلمين ليس لهم من يدافع عن مصالحهم ، وليس لهم من ينتقم من أعدائهم ، وليس لديهم من يلتفت إلى مآسيهم ، ويهب لنجدتهم سوى الله سبحانه وتعالى وحده ، ولقد دلهم الله على طريق القوة ، ولكنهم سلكوا غيره ، فانطبقت عليهم سنن الله في الحياة والأحياء .

لقد وقعت مأساة الأندلس منذ خمسمائة عام ، ووقعت مأساة فلسطين منذ خمسين عاماً وها هي أحدث طبعة من مآسي المسلمين في البلقان ، تقع في عصرنا ، وتمر أمام أعيننا ، ونحن نتفرج .

ونلاحظ على المآسي الثلاث أنها نبعت من أسباب واحدة ، وهي : تفرق حكام المسلمين وتخاذلهم وغياب الوحدة بينهم ، وانعدام النصرة ، وعدم وجود سياسة ثابتة أو بعيدة المدى - لقد كانوا جميعاً يركبون سفينة واحدة ، وكان فيهم من يخرق السفينة ، متصورا بذلك أنه يغرق الآخرين ، ثم اكتشف والسفينة تغرق أنه على سطحها وأنه يغرق معها :

إن تفرق الزعامات ، ووقوع الصراع بينهم ، أجهض قوة الشعوب ، وانتهى بها إلى حال يشبه حال أسد مسجون وراء قضبانه ، ويوما ما سيكبر الأسد ، ويكسر قضبانه ويلتهم حارسه ، وينطلق كالإعصار .

---

(١) الاستعمار أحقاد وأطماع ص١٠٣ ، ١٠٤

إنهم يقولون : إن مأساة البوسنة والهرسك هي شهادة بوفاة الضمير العالمي وهذا صحيح ، وأصح منه أنها شهادة بوفاة الضمير العربي[1]

مناورات غربية وأمريكية

بات واضحاً أن الغرب هو المسئول عن إطالة أمد النزاع في البوسنة - الهرسك وأن استطالة أمد الصراع هو من صنع الأمم المتحدة والمجموعة الأوربية . وهذا ما عبر عنه العضو الكرواتي في الرئاسة البوسنية (ستيبان كلويتش) حين قال : (إن الغرب هو المسئول عن إطالة أمد النزاع في البوسنة والهرسك ، بسبب تمهله في دعم استقلالها . إن المئات يقتلون يوميا ، وعيونهم شاخصة إلى الغرب ، إن السياسيين الغربيين يشاركون في العدوان على بلادنا ، بعجزهم عن تنفيذ شروط مؤتمر لندن للسلام ، فقد تم اتخاذ قرار في مؤتمر لندن في شهر أغسطس ١٩٩٢م يقضي بجمع الأسلحة الثقيلة من الصربيين ، والإشراف عليها ، ونشر مراقبين على طول حدود البوسنة مع الصرب لإنهاء القتال ، وجاء الوسيطان الدوليان - سايروس فانس، وديفيد أوين ، إلى سراييفو ، وحصلا على موافقة الأطراف على هذه الإجراءات ، إلا أنها لم تطبق . إني لا أفهم السياسيين الذين يأتون إلينا ، فهم إما لا يريدون استيعاب الوضع ، وإما إنهم يضللون أنفسهم ، فما المطلوب أن نفعله ؟ هل نعترف بالهزيمة ؟ أم نواصل القتال ؟)

لقد اجتمع وزير الدفاع الأمريكي (ديك تشيني) في ١٨ سبتمبر ١٩٩٢م مع كبار المسئولين الفرنسيين ، ثم خرج ليعلن : لم تتوصل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بعد إلى اتفاق ، بشأن منع الطائرات الصربية من التحليق فوق جمهورية البوسنة والهرسك .

---

(١) المختار الإسلامي . العدد : ١٢٨ في (١٩٩٣/٧/٢م) . من مقال للاستاذ أحمد بهجت ص٢٧

وهذا التصريح الغريب يعني أنه لابد للمأساة من أن تستمر. وأن يكون المسلمون هم الضحية لأنهم يفتقرون للأسلحة ، وهم محرومون من الدعم الخارجي سياسيا وعسكريا ، وفضلا عن ذلك فهم يقفون بين عدو حاقد هو الصرب ، وحليف مخادع وهم الكروات ، ليحصل كل منهما على أكبر قدر من الغنيمة .

مخطيء من ظن يوما *** أن للثعلب ديناً

ورغم الوعود التي صدرت عن الصرب بإيقاف القتال ، إلا أنهم تابعوا حصارهم للعاصمة سراييفو ، واستمرت مدفعيتهم في قصف المدينة الصامدة وأهلها المسلمين الصابرين وظهر أمام العالم كله أن ما يحدث هو مؤامرة دولية ضد مسلمي البوسنة والهرسك ، وهنا اتخذ الرئيس الفرنسي (فرانسوا ميتران) قراره بتحدي الصرب واقتحام الحصار . حيث هبط على أرض مطار سراييفو في يوم الأحد ٢٨ من يونيو ١٩٩٢م ، وسبب تصرفه هذا إحراجاً لدول كثيرة ، في مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية ، مما اضطر وزير خارجيتها (جيمس بيكر) آنذاك إلى الدفاع عن بلده حيث قال في مناورة مكشوفة :

(إنها كانت تنتظر طلبا من الأمم المتحدة لتقديم الدعم العسكري المطلوب، لحماية مطار المدينة ، وعملية نقل المساعدات الإنسانية إليها ، وأن الولايات المتحدة مستعدة للقيام بعمليات واسعة لنقل المساعدات الإنسانية إلى سراييفو فورا ، إذا ما كان مطار المدينة مفتوحاً ، وسلامته مضمونة .

وفي الوقت ذاته أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) أن قوة بحرية أمريكية تتألف من حاملة طائرات ، وسفن هجومية ، وطائرات عمودية للنقل ، وألفي عنصر من مشاة البحرية ، قد تلقوا الأوامر بالتحر في اتجاه الأدرياتيكي لتوفير غطاء جوي وبحري لقوات الأمم المتحدة لحفظ السلام في سراييفو ...)[١] ومع هذا لم يحدث شيء واستمرت المأساة بسبب قوى الكبح التي كانت السياسية الإنجليزية في

(١) الحياة . العدد ١٠٧٣٦ . في ١٩٩٢/٧/٢م

مقدمتها، والتي لعب فيها (اللورد كارنجتون) دور الوسيط الدولي الممثل للمجموعة الأوربية ، والذي يبدو أنه أدرك قذارة اللعبة في البلقان - على حد تعبير الأستاذ بسام العسلي[١] - ورغب في عدم التلوث برجسها ، فاعتزل عمله في نهاية شهر أغسطس ١٩٩٢م ، وحل محله (اللورد ديفيد أوين) الذي أخذ على عاتقه تنفيذ سياسة أوربا عامة ، وانجلترا بخاصة ، فصرح يوم تسلم مهمته :

(سيكون الطريق طويلاً قبل الوصول إلى السلام في هذه المنطقة ... وأن عملية السلام ستأخذ وقتا ، ولا ينتظر حصول معجزات ... وإنني انتظر أن ينهك الطرفان .. إذ من الصعب جدا حض الناس على الجلوس إلى طاولة المفاوضات ، والبحث بشكل جدي قبل أن تنهك القوى ، وذلك نظراً لتاريخ المنطقة ، ولحذر كل طرف وغضبه)[٢]

قال هذا في اليوم الذي كان فيه القتال ملتهبا ، وعلى أشده في محيط سراييفو، في الأول من سبتمبر ١٩٩٢م ، وفي هذا اليوم كانت المدفعية تقصف العاصمة المحاصرة بعنف وقسوة ، مما حمل الرئيس البوسني (علي عزت بيجوفيتش) على القول : (إنني أدعو الأمم المتحدة لحماية المدنيين داخل العاصمة سراييفو من المجازر البشعة للصرب وأن هذا الأسلوب يعكس تفكير قادة الصرب التي تصر على تصفية المسلمين ... وهذه عملية قتل متعمد ، فكيف يمكننا التفاوض مع أناس على هذه الشاكلة ؟ إنهم قتلة ، لا يريدون السلام بل سفك الدماء ، وسنقاطع محادثات السلام في جنيف ، إذا لم يتوقف الهجوم الدموي على شعب البوسنة في سراييفو ...)

وهكذا أخذت الدول الغربية وأمريكا تناور وتركت مشكلة البوسنة والهرسك لتنضج على نار هادئة ، بسبب جهود المجموعة الأوربية ، ورعاية الأمم المتحدة المتخاذلة ، عبر الوسيطين الدوليين (فانس وأوين) وكان الوضع يتزايد خطورة في البوسنة عامة ، وسراييفو بخاصة ، الأمر الذي حمل الممثل الخاص للأمم المتحدة لشئون الصحة (رونالد تشيسون) إلى أن يقدم تقرير للأمم المتحدة في ٤/١٠/١٩٩٢م يقول فيه :

(١) في كتابه : المسلمون في البوسنة والهرسك ص ٩٣

(٢) الحياة . العدد ١٠٧٩٧ في أول سبتمبر ١٩٩٢م ص٦

(إن الوضع الغذائي والصحي المتفاقم ، إضافة إلى حلول فصل الشتاء ، يعني أن أطفال سراييفو سيموتون جوعاً ابتداء من نهاية الشهر العاشر ، على أن يتبعهم الكبار اعتبارا من منتصف الشهر التالي إذا لم يتحرك المجتمع الدولي ، إن الوضع خطير للغاية وإذا لم نوصل (٢٤٠) طنا من الأغذية يوميا ، فإن الأطفال سيموتون جوعاً بعد أربعة أسابيع ، والبالغين بعدهم بأربعة أسابيع أخرى ، وبحلول يناير سنشهد في مدينة أوربية صورا عرفناها في القرن الأفريقي . إن الوضع في عاصمة البوسنة سراييفو يشبه إلى حد كبير حصار لينينجراد خلال الحرب العالمية الثانية ، وإن أعراض سوء التغذية قد بدأت تظهر فعلا على السكان).[1]

وهكذا عملت مناورات الدول الغربية وأمريكا عملها ، وتركت الأمم المتحدة البوسنة وحدها تذبح على مرآى منها ومسمع ، مما أظهر عجزها وتخاذلها المشبوه الأمر الذي جعل منها منظمة تدفع الأحرار إلى السخرية منها .

لقد عبر الأستاذ عبد العظيم حماد عن هذه السخرية بقوله في جريدة الأهرام[2]: تحت عنوان (تعاون المعتدين):

(حتى الأمم المتحدة اضطرها العجز ، وربما التخاذل المشبوه إلى التذرع بالعذر الأقبح من الذنب ، لدرجة أن المتحدث باسم أمينها العام قد أعلن - ليلة أمس الأول- أن المنظمة الدولية تدرس سحب قواتها بالكامل من جمهورية البوسنة والهرسك، لأن وجودها لم يعد له معنى ، بسبب عدم تعاون قوات الصرب معها ، باعتبار أن دورها الأصلي هو دور إنساني .

ونحن نعترف مع المتحدث الدولي بأن التفويض الممنوح للقوات الدولية في البوسنة والهرسك يحصر دورها في تأمين قوافل الإغاثة ، وحماية المناطق الآمنة ، ولكن أحدا لم يقل لنا من قبل إن الأمم المتحدة يمكن أن تكتفي أحياناً في الحروب بدور الجمعية الخيرية ، خصوصاً وأن عدوان الصرب وصل إلى حد عرقلة هذا الدور الإنساني الهزيل ، سواء بمنع وضرب قوافل الإغاثة ، أو بالعصف بالمناطق الآمنة.

(١) الحياة . العدد ١٠٨٣٢ في ٦/١٠/١٩٩٢م ص٩

(٢) الأهرام : ١٨/٤/١٩٩٤م

إنا ما نعرفه عن الأمم المتحدة هو أنها منظمة دولية رسمية مهمتها حفظ السلام والأمن الدوليين ، وإقرار مبادىء القانون الدولي ، باستخدام كافة الوسائل ، صعودا إلى تدابير الأمن الجماعي الواردة في الفصل السابع من الميثاق ... ذلك الفصل الذي اشتهر كثيرا أثناء أزمة غزو العراق للكويت ، والأكثر من ذلك أن الذين أقاموا الأمم المتحدة قالوا لنا ، ولمن قبلنا : إنهم أقاموا منظمة خالية من عيوب سابقتها ، غير خالدة الذكر عصبة الأمم .

لقد سقطت عصبة الأمم لأنها وقفت عاجزة أمام غزو إيطاليا الفاشية لأثيوبيا وأمام غزو اليابان لمنشوريا ، بسبب عدم تعاون المعتدين ، فهل هذا هو المصير الذي ينتظر الأمم المتحدة ؟ أم أن ساسة الدول الكبرى ومسئولي الأمم المتحدة يعتقدون أن محنة البوسنة استثناء كرية لن يتكرر ؟

نخشى أن يكون ظنهم في غير محله ، لأنهم هم الذين علمونا من تاريخهم أن التنازل أمام العدوان مرة ، لا يفتح االباب لمزيد من العدوان فقط ، ولكن لمزيد من المعتدين أيضاً).

وتحت عنوان (سقوط العالم الحر) كتب الأستاذ أحمد بهجت في جريدة الأهرام [١] يقول :

(تحت ستارة من القذف المدفعي الكثيف ، وبلا مبالاة بالعالم كله ومؤسساته ومنظماته ، اجتاحت دبابات الصرب مدينة (جورازدي) المسلمة في البوسنة ، وأثارت الرعب بين سكانها ، الذين يبلغ عددهم (٦٥) ألف نسمة ، وسحقتهم تحت جنازير الدبابات . وقد عاش سكان المدينة تحت حكم الرعب شهوراً طويلة ، وقاومت المدينة مقاومة باسلة ثم تحطمت مقاومتها أخيراً واجتاحها الصرب . وقد أذاع راديو سراييفو الخبر قائلا :

الصرب يقتلون ويبيدون سكان جورازدي ، إنها نهاية هذه المدينة الباسلة، ومأساة للبشرية جميعاً ، لأن المجتمع الدولي لم يسمح لسكانها بالدفـــاع عن أنفسهم ، وهذه

(١) الأهرام . في ١٩/٤/١٩٩٤م.

هي الكلمات الأخيرة التي يقدمها سكان جورازدي للرئيس الأمريكي بيل كلينتون والأمين العام للأمم المتحدة بطرس غالي ، وممثله ياسوشي أكاشي . وهؤلاء جميعاً ينبغي عليهم أن يخجلوا من أنفسهم لأنهم مذنبون ، وقد تسببوا بموقفهم السلبي في كارثة المدينة .

هذه هي الصرخة التي أذاعها راديو سراييفو ، وأعلن بها سقوط المدينة وأعلن في نفس الوقت سقوط العالم الحر الذي وقف يماطل ، ويؤجل ، حتى تمت الجريمة ومكّن القاتل من ضحيته .

لم يعرف أحد بعد عدد الضحايا بين السكان ، ورسمت الناطقة باسم المفوضية العليا لشئون اللاجئين - عن طريق التليفون - الوضع في المدينة بقولها :

القذائف ورصاص القناصة تنهال علينا كالمطر ، ونحن الآن حوالي ثلاثين ألف نسمة وقد حوصرنا تماماً في المقر ، ولا نستطيع أن ننظر من النافذة لنرى ماذا يجري في الخارج .

أما الرئيس علي عزت بيجوفيتش فقد بعث برسالة إلى بطرس غالي يقول له فيها :

إن المدينة تحتضر ، والقذف الوحشي عليها لا ينقطع ، وأنتم مستمرون في لعبة غامضة. إن شعبي يعتبرك مسئولا عن هذه المذبحة .

أما حلف الأطلسي ، فقد احتج بأن سوء الأحوال الجوية قد حال بينه وبين توجيه ضربات للصرب .

بهذه النهاية المأساوية ينزل الستار مؤقتا على أحد فصول المأساة في البوسنة ويبقى سؤال لا نوجهه للعالم الحر ، لأنه متواطيء وإنما نوجهه للعالم الإسلامي .. ماذا بعد ؟).

أما آخر فصل أدركناه من المهازل التي تمرغ سمعة أمريكا والأمم المتحدة في الوحل ، فهو ما تناقلته وكالات الأنباء العالمية فيما يتعلق بمهزلة بيهاتش ، ونشرته

جريدة الأهرام في يوم الأثنين ١٩٩٤/١١/٢٨م تحت عنوان : (اعتراف أمريكا والأمم المتحدة بالعجز عن وقف التقدم الصربي في بيهاتش وتقول هذه الأنباء :

اعترفت الولايات المتحدة وقائد قوات الحماية الدولية في البوسنة بانتصار القوات الصربية في بيهاتش وقدرتها على الاستيلاء عليها في أي وقت ، وقالت إن قيام طائرات حلف الأطلنطي بشن المزيد من الغارات الجوية لمحاولة انقاذ المدينة ستكون عديمة الجدوى.

وأعلن وليام بيري وزير الدفاع الأمريكي أن مثل هذه الضربات لن تحدد نتيجة المعركة على أرض بيهاتش مشيرا إلى انه من غير المحتمل استعادة المسلمين للأراضي بقوة السلاح .

وقد واصلت قوات صرب البوسنة تقدمها في ضواحي مدينة بيهاتش المسلمة بينما اضطرت القوات الحكومية التي تفتقر إلى الأسلحة والرجال للتقهقر مما أفسح المجال للقوات الصربية بإحكام قبضتها على المدينة بينما تشير تقارير لمراقبين عسكريين دوليين إلى مواجهات بالسلاح الأبيض بين القوات الصربية والقوات الحكومية البوسنية قرب مستشفى المدينة وذكرت إذاعة البوسنة أن القتال يدور من منزل إلى منزل بين القوات الصربية المعتدية والمدافعين المسلمين وأضافت الإذاعة أن نحو ألفي قذيفة قد سقطت على وسط بيهاتش ومن بينها عدد من القنابل الحارقة . ووصفت الإذاعة البوسنية الوضع المأساوي في مستشفى المدينة بقولها : «إن هناك نحو ألفي جريح في المستشفى ولكن لا توجد مياه ولا إمداد طبية أو ضمادات» في الوقت نفسه وافقت الحكومية البوسنية على اقتراح الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار في منطقة بيهاتش غير أنه لم يتضح بعد ما إذا كانت قوات صرب البوسنة قد وافقت على وقف إطلاق النار. ويسيطر صرب البوسنة وكرواتيا حالياً على ٤٠٪ تقريبا من منطقة بيهاتش بينما لا يوجد أي دليل على وقف هجومهم حيث استمر قذف الضواحي الشرقية والجنوبية لبيهاتش غير أن عمدة بيهاتش أعلن أن المدينة لن تستسلم أبداً .

وقد تعرضت الفرقة الخامسة التابعة لجيش حكومة البوسنة المدافعة عن بيهاتش

لقذف بالمدفعية الثقيلة والدبابات الصربية أمس غير أنها أوضحت أن قوات صرب البوسنة لم تحاول تحقيق مكاسب جديدة . وكان اقتراح لقيادة الأمم المتحدة في البوسنة قد دعا لوقف إطلاق النار وانسحاب القوات الصربية من منطقة بيهاتش التي أعلنتها الأمم المتحدة منطقة آمنة كما طالب قوات الحماية الدولية باستئناف عمليات نزع السلاح في المنطقة .

وفي نيو يورك أدان مجلس الأمن جميع الانتهاكات التي تتعرض لها مدينة بيهاتش ولا سيما دخول المنطقة الآمنة بصورة صارخة من قبل قوات صرب البوسنة ، وطالب المجلس في بيان رئاسي أصدره عقب اجتماع رسمي - جميع الأطراف المتحاربة والأطراف الأخرى المعينة بالموافقة على وقف فوري وغير مشروط لإطلاق النار ، إلى أن المجلس لم يهدد باستخدام القوة ؟! وتوقع اندريه كوزريف وزير خارجية روسيا أن يمارس سلوبودان ميلو سيفيتش رئيس جمهورية صربيا نفوذه على صرب البوسنة لإجبارهم على وقف لإطلاق النار في بيهاتش والبوسنة أيضاً .

وإذا كنا قد ضربنا بعض الأمثلة على السخرية من مواقف الغرب وأمريكا والأمم المتحدة تجاه أزمة البوسنة . فلا يفوتنا في هذا المقام أن نسجل رأي الرئيس الأمريكي الراحل (ريتشارد نيكسون) في هذه المهزلة من خلال كلماته الأخيرة في كتابه الأخير (ما بعد السلام) الذي ظهرت بعض مقتطفات منه بعد موته . ننقلها من خلال ما كتبه الأستاذ سلامه أحمد سلامه تحت كلمته في جريدة الأهرام [1]: من بعيد يقول :

قال الرئيس الأمريكي الراحل ريتشارد نيكسون : إنها حقيقة قاسية ، ولكنها ثابتة ، أن لو كان أهالي سراييفو من المسيحيين أو اليهود لما سمح العالم المتحضر بأن يصل الحصار إلى ما وصل إليه ، حين ألقى الصرب بقنابلهم في قلب السوق المزدحمة بالناس ... ولكان الغرب قد تدخل بسرعة لإنقاذهم . ويقول نيكسون : إنه طالب منذ عام ٩١ مع آخرين غيره ، بأن ترفع الأمم المتحدة قرار الحظر المفروض على ضحايا العدوان الصربي في البوسنة ، ولكن أمريكا والأمم المتحدة وأوربا اتخذوا

---

(١) الأهرام . في ١٩٩٤/٥/٢م

جميعاً موقفا متذبذبا ضعيفاً ، واكتفوا بالكلام والإدانة ، ولكنهم لم يتخذوا أي خطوة عملية لمواجهة مذابح الصرب .

وها هو الأستاذ الكبير مصطفى أمين يدلي بدلوه في هذا المعترك فيقول في جريدة الأخبار[1] في كلمته التي يكتبها تحت عنوان (فكرة) :

رفضت الصرب تنفيذ قرارات الأمم المحدة ، فلم تضربها الأمم المتحدة بالقنابل ، بل أصدرت قراراً بمنع تسليح البوسنة لتدافع عن نفسها ، ورفضت العراق تنفيذ قرارات الأمم المتحدة بتشميع منصات الصواريخ فقامت القيامة ، وقررت أمريكا والأمم المتحدة ضرب العراق بالقنابل .

العمل واحد ، ولكن أمريكا تكيل بكيلين ، فريق تأخذه بالأحضان ، وفريق تمسك بزمارة رقبته ، فريق ترسل له الرسل والمندوبين ، وفريق ترسل له القنابل والصواريخ . اغتصاب مئات الآلاف من المسلمات ، وقتل مئات الآلاف من الأطفال والشباب لا يحرك قلب الأمم المتحدة ، وكل ما تفعله أن تحاول إقناع البوسنة بقبول التقسيم إلى ثلاث دول بدل دولة واحدة .

أي دولة في العالم ترضى هذا الذل والهوان ؟ بأن تقسم إلى أجزاء ، وأن تقتطع منها أجزاء لتعيش ؟ فإذا لم تقبل انهالت عليها القنابل والصواريخ .

وإذا عطس القذافي أعطته أمريكا الدرس ، وأرسلت إليه غارة تهدم البيت الذي يقيم فيه ، وحولته إلى أنقاض ، وإذا زأر حاكم الصرب ، قالت له أمريكا يرحمكم الله.

هل المسئول عن هذه التفرقة كراهة دول أوربا وأمريكا للمسلمين ؟ أم أنها مسئولية العرب والمسلمين الذي يكتفون بإنزال اللعنات على الغزاة المستبدين ، ويقتل الفدائيون الفلسطينيون يهوديا واحداً فيجتمع مجلس وزراء إسرائيل ، وترسل الطائرات تدك مدن فلسطين وتهدم منازلهم ، ويقتل عشرات من الفلسطينين ... يبدو

---

(١) الأخبار . في ١٩٩٣/٧/١٣م

أن العالم الجديد لا يحترم إلا القوة ، فأنت قوي فالحق معك ، وأنت ضعيف فيجب أن تسحق بالأقدام . البكاء لا يفيد ، ولاصوت له ، ولكن المدافع وحدها هي التي تتكلم وتصرخ وتزأر .

تلك كانت قضية المسلمين في البوسنة والهرسك ، ومع أن الحكم لم يصدر فيها بعد إلا أننا سجلناها والحرب تدور ومازالت دائرة ، فهل فيما سطرناه في هذه الصفحات ما من شأنه أن يدفع المسلمين إلى فعل شيء؟

وهل نستطيع أن نتنبأ من خلال هذه الحرب الطاحنة بانتصار المسلمين في هذه البقعة الغالية وهم عُزل لا يملكون عشر معشار ما لدى أعدائهم من سلاح ؟ وهل فيما ذكرناه عبرة ؟ أسأل الله أن يمد هؤلاء الصامدين الصابرين بمدد من عنده ، وألا يخذل جنده إنه سميع مجيب ، وصدق الله القائل :

﴿ أُذِنَ لِلذينَ يُقَاتَلُون بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ اللَّهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

والله الموفق ،،،

مدينة نصر في ١٥/١٢/١٩٩٤م

أ.د. رشدى عزيز محمد

أهم المصادر والمراجع

١- كتاب : من وراء ضياع البوسنة . تأليف لواء أ.ح. حسام سويلم

٢- كتاب : محنة الأقليات المسلمة في العالم . تأليف محمد عبد الله السمان .

٣- كتاب : تاريخ الدولة العلية العثمانية . تأليف محمد فريد بك - تحقيق الدكتور إحسان حقي ط٢.

٤- كتاب : الكامل . لابن الأثير.

٥- كتاب : معجم البلدان . لياقوت الحموي .

٦- كتاب : البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة . تأليف دكتور محمد حرب

٧- كتاب : المسلمون في البوسنة والهرسك . تأليف الأستاذ بسام العسلي .

٨- كتاب : المختار من الجوهر الأسني في تراجم علماء وشعراء البوسنة . تأليف محمد بن محمد ... البوسنوي المعروف بـ الخانجي - هدية مجلة الأزهر -ذي الحجة ١٤١٢هـ.

٩- كتاب : المسلمون في أوربا وأمريكا . تأليف دكتور على الكتاني ج١.

١٠- كتاب : الاستعمار أحقاد وأطماع . تأليف فضيلة الشيخ محمد الغزالي .

١١- كتاب : الفتاوي الكبرى لابن تيمية جـ٤.

١٢- صحيفة الشرق الأوسط . العدد ٤٨٢٩ في ١٩٩٢/٢/١٧م والعدد ٤٨٣٠ في ١٩٩٢/٢/١٨م . والعدد ٤٨٣٨ في ١٩٩٢/٢/٢٦م.

١٣- جريدة (الحياة الدولية العربية) العدد ١٠٦٨٩ في ١٥ مايو ١٩٩٢م.والعدد ١٠٧٣٦ في ١٩٩٢/٧/٢م . والعدد ١٠٧٩٧ في ١٩٩٢/٩/١م والعدد ١٠٨٣٢ في ١٩٩٢/١٠/٦م.

١٤- صحيفة عكاظ . السعودية . العدد ٩٣٣٧ في ١٤ فبراير ١٩٩٢م والعدد ٩٣٦٤ في ٢٣ فبراير ١٩٩٢م.

١٥- صحيفة البلاد. السعودية . العدد ١٠١٠٥ في ٢٣ فبراير ١٩٩٢م.

١٦- صحيفة المسلمون . السعودية . العدد ٦٣٧ في ١٤ فبراير ١٩٩٢م.

١٧- المختار الإسلامي . العدد ١٢٩ في ١٩٩٣/٨/١٩م.

١٨- جريدة الأخبار في ١٩٩٣/٧/١٣م.

١٩- جريدة الأهرام في ١٩٩٤/٤/١٨م و ١٩٩٤/٤/١٩م و ١٩٩٤/٥/٢م.

الفهرس



رقم الإيداع
٩٤ / ١١٤٠٥
I - S - B - N
977 - 00 - 8 / 60 - 4